حوار الروح مع الزمن

رواية

قاسم محمد كوفحي

حوار الروح مع الزمن

حوار الروح مع الزمن

رواية

قاسم محمد كوفحي

• **حوار الروح مع الزمن**

(رواية)

• **قاسم محمد كوفحي**

• **طبعة أولى 2025**

• **الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/8/4344)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: حوار الروح مع الزمن
تأليف	: كوفحي، قاسم محمد محمود
بيانات النشر	: عمان: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2025
الوصف المادي	: 310 صفحة
رقم التصنيف	: 813.03
الواصفات:	: / الروايات العربي / / الأدب العربي/ / العصر الحديث/
الطبعة	: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **(ردمك): 978-9923-23-257-6** ISBN

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

الإهداء

إلى شقيقي الدكتور موسى (أبو حمزة)،

يا مرفأ روحي حين يخذلني تعب الطريق، ويا رفيق الكلمة حين تجفُّ ينابيعها.
إليك أهدي روايتي «حوار الروح مع الزمن»... حروفًا نمت برعايتك، وصفحاتٍ امتدت على ضوء كلماتك المشجِّعة وهمساتك التي تقول لي دائمًا: «اكتب... ولا تنطفئ».
لولاك ما ازهرَ الحرف ولا امتدَّ الحلم ولا ظلَّ للإبداع في قلبي موئل.
دمتَ لي أخًا وسندًا، ودامت كلماتك زادًا لا ينضب لكل رحلةٍ جديدةٍ نحو المعنى.

شقيقك
قاسم

كانت العاصفة لا تزال تتسلل من بين الشقوق، كما لو أن ثمة روحًا متمردة تُحاول أن تخترق جدران البيت القديم. المطر، رتيبًا وثقيلًا، ينقر على الزجاج بنفَسٍ يعرف الطريق جيدًا، كأنه رسائل مبللة تُرسلها السماء إلى الأرض، رسائل تحمل في طياتها صمتًا عميقًا وأسرارًا لا تُقال. كل قطرةٍ منه كانت تُحدث صوتًا خافتًا يشبه همس الزمن، همسٌ يصعب تجاهله، كما لو أن الطبيعة نفسها تُذكّر الجميع بأن الحياة ليست سوى لحظةٍ عابرة بين فصول متعددة، بين بدايات ونهايات، وبين أمل وخوف.

في ركن الغرفة البعيد، كانت تجلسُ على مقعد خشبي، ظهره يئنُّ من ثقل السنوات. وضعت كفّها تحت ذقنها، وراحت تحدّق في الزجاج المبلل. كانت عيناها تلاحقان خيوط المطر، وكأنها تبحث عن مخرجٍ من هذا السكون الذي طال أكثر مما ينبغي. ربما كانت تنتظر رسالة من أحدٍ رحل قبل أن يقول كل شيء، أو جوابًا من السماء على أسئلةٍ خبأتها في درجٍ قديمٍ مع رسائل لم ترسلها أبدًا.

كانت تُحبُّ المطر، لأنه الوحيد الذي لا يطلب منها شيئًا، ولا يأخذ منها شيئًا. يأتي ثقيلًا على روحها، ثم يغسلها، ويتركها وحيدةً مع نفسها. المطر لا يطرق الأبواب، بل يفتحها كلها. يحلّ ضيفًا بلا استئذان، ويقيم احتفالًا صامتًا بين الجدران الباردة.

في بيتهم، كان الصمت رفيقًا وفيًّا لا يملُّ الانتظار. هنا، لكل جدارٍ ذاكرة، ولكل شقٍّ حكاية. كانت تسمعُ صرير الأبواب وكأنه كلمات لم تجرؤ يومًا على قولها. حتى طقطقة الخشب تحت خطواتها، كانت تشبه اعترافًا متأخرًا يخرج من فمٍ خائف. وحين تهبُّ الريح، كان البيت يهتزُّ كما يهتزُّ قلبها حين تستدعي ذكرى ظنّت أنها دفنتها منذ زمن.

تذكّرت وجهه... ذاك الذي ظلّ يحرس صبرها بصمتٍ ويؤنس وحدتها كظلٍ لا يفارق الجدار. رحل قبل أن يهمس لها أن العاصفة ستنحني أمام عناد قلبها، ترك لها بابًا مواربًا تطلّ منه على شرفة روحها كلما ثقل الليل وأحكم حولها ستائره. كانت تؤمن، كإيمان اليتامى بالأم البعيدة، أن الذين أحبّونا بصدقٍ لا يفلتون منّا تمامًا، يختبئون في زوايا التفاصيل ككنوزٍ صغيرةٍ منسية: في بخار قهوةٍ بردت قبل أن تُرتشف، في بيت شعرٍ يتردّد وحيدًا في صدر الليل، في معطفٍ ينتظر على شماعةٍ خلف الباب شتاءً لن يجيء.

رفعت رأسها نحو سقفٍ أثقلته ظلال الليل، أغمضت عينيها لترى أوضح. هناك، داخل جفنيها، كان رجع صوته الخافت يرتّب لها نثار الحزن بصبر ناسكٍ يُعيد تدوير الوجع ليغدو زهرًا بريًّا في حديقة قلبها. أدركت فجأة أن الحياة ليست سوى عاصفةٌ من غبار الذكريات، تهبُّ لتذكّرنا أن بعض النهايات هي حيلةُ البداية، وأن ما نغسله بدمعةٍ خفيةٍ ينبض من جديدٍ دون أن يلحظه أحد.

كان هناك همسٌ يخرج من عمق صدرها، يقول لها: «تماسكي... كل ريحٍ تحمل في جوفها بذرةً لأرضٍ خصبة». فتبتسم خلسةً، كأنها تبرم صلحًا خفيًا مع هذا الليل الذي طال أكثر مما ينبغي. ربما فهمت أخيرًا أن الصبر ليس فضيلةً فقط، بل بيتٌ داخليٌّ، ملاذٌ حين يضيق بنا جدار البيت الخارجيّ.

كانت لياليها هكذا: صمتٌ يغزل حولها حجابًا رقيقًا، وأبوابٌ مواربةٌ على أسرارٍ تأبى أن تُفشى. كانت تسأل نفسها، بصوتٍ لا يسمعه سواها: «هل البيوت تحبّ ساكنيها حقًا، أم تلتهمهم ببطءٍ مثل ذاكرةٍ جائعةٍ لا تشبع؟ وهل الجدران تحفظ وشوشاتنا أم تخونها حين نغادر؟» كانت تظن أن بيتهم القديم لا يزال أمينًا على أوّل نبضةٍ شهقت بها جدرانه حين رفعتها يدٌ عجوزٌ على عجلٍ، لتؤوي أحلامًا أكبر من اتساع الأرض نفسها.

الآن، لم يتبقَ من تلك الأحلام سوى بقايا صورٍ مؤطرةٍ فوق الجدران، وبابٍ لا يغلق جيدًا، ومقعدٍ خشبيٍّ يئنُّ معها كلما جلست عليه تستدعي ماضيها.

أدارت وجهها نحو النافذة مرة أخرى، وكأنها تخشى أن يُباغتها الفجر وهي ما زالت غارقة في سرداب ذاكرتها. في الخارج، كانت الأشجار تُلوّح بأغصانها الهشّة، كمن يودّع شيئًا لم يأتِ بعد. حملتها تلك الحركة المرتجفة إلى زمنٍ آخر، يوم كانت تقف خلف تلك النافذة ذاتها، تنتظر وجهه بين الأمطار. لم يكن يأتي محمّلًا بالهدايا ولا بالكلمات الكبيرة، كان يكفيه أن يقف قبالة الباب، بظلّه الطويل وصوته الخافت، ليعيد ترتيب الفوضى التي تُقيم في صدرها.

لم يكن يُجيد الوعد، لكنه كان بارعًا في الوفاء بالصمت. كان صمته أعمق من كل حوار، وأدفأ من كل معطف. وحين رحل، ترك خلفه صدى خطواته يتجوّل في ردهات البيت، يفتح الأبواب ويغلقها كما يشاء، ويهزُّ قلبها كلما حاولت أن تتناسى حضوره الثقيل.

هي لا تتناسى، لأنها ببساطة لا تعرف كيف تُغلق أبواب الذاكرة. كل الأشياء هنا تتآمر عليها لتبقيها أسيرةً لذلك الغائب الذي صار جزءًا من طقسها اليوميّ. حتى المطر صار يشبهه: يجيء بلا موعد،

يترك بللًا طويلًا في أعماقها، ثم يرحل خفيفًا تاركًا وراءه وحشةً لا تجفّ.

أمسكت بكتابٍ قديمٍ من الرفّ المائل. قلبت صفحاته بإصبعين مرتجفين، وكأنها تبحث عن أثره في الكلمات. هي تعرف أن الكتب لا تحفظ الراحلين، لكنها تُخفّف ثقلهم في القلب. بين سطورٍ مهترئةٍ بخطّ يده، وجدت وردةً يابسة، أسندت رأسها على الكرسي وأغمضت عينيها لتشمّ رائحة ذلك اليوم البعيد.

تذكّرت ضحكته الأولى تحت المطر، حين قال لها: «دعي المطر يغسلنا من كل شيء، من الكلام، ومن الناس، ومن الخوف». ضحكت يومها لأن المطر كان شديدًا، وكانت خائفة أن يفضح ارتجافها. لكن ارتجافها صار قصيدةً صغيرةً خبأتها في قلبها، لا تسمح لأحدٍ أن يقرأها سوى الليل.

مرّت أصابعها على النافذة الباردة، ورسمت بالأطراف دوائر مائيةً صغيرة، وكأنها تكتب رسائلها إليه على زجاجٍ لن يقرأه أحد. كانت تؤمن أن الرياح تُخبّئ الكلمات في أجنحتها، وأن المطر ينقل أسرار العاشقين من نافذةٍ إلى نافذةٍ، ليصنع منّا غرباء يعرفون بعضهم من رائحة البلل.

صوت عقارب الساعة يزاحم حفيف المطر، يذكّرها أن الليل ليس أبديًّا، وأن الغياب مهما طال، له فجوةٌ في الصبح لا بدّ أن

تُضاء. لكنها لم تعد تثق بالصباحات. منذ رحل، صارت تُفضّل أن تسهر حتى يغلبها النعاس على مقعدها الخشبيّ، تترك المصباح وحيدًا يحرس أحلامها، وتُسدِل على الليل ستارًا من صمتٍ يشبه صلاةً بلا دعاء.

في بيتهم، كل شيءٍ قديمٌ لكنه لا يشيخ. الجدران التي تسند أسرارها، الأبواب التي تحتفظ بصريرٍ مألوف، الصور المُعلّقة كحراسٍ للذكريات. حتى صوت الريح حين يعبر الأبواب، صار جزءًا من حكايتها. كانت تخشى أن تُحدّث أحدًا عنها، فيظنّ أن الوحدة أوهام، بينما هي يقينٌ تُربّيه برفقٍ كل مساء.

أحيانًا، كانت تُقنع نفسها أن هذا البيت ليس سوى امتدادٍ لجسدها: متصدّعٌ لكنه واقف، رطبٌ لكنه دافئ، موحشٌ لكنه مأهولٌ بظلالٍ لا تُرى.

رفعت رأسها، استرقت السمع لصوتٍ بعيد، خُيّل إليها أن خطواتٍ تعرفها تتقدّم نحو الباب. لكن لا أحد يجيء في الليل سوى الريح. عادت تغمض عينيها، وسمحت لذاكرتها أن تتمدّد، أن تستعرض أمامها شريطًا طويلًا من حواراتٍ ناقصةٍ وابتساماتٍ لم تكتمل.

قالت لنفسها: «أحيانًا نُصبح نحن العاصفة، ونحن البيت، ونحن المطر الذي ننتظر أن يبلّلنا ثم يتركنا جافّين». ابتسمت

لذلك الاكتشاف المتأخر. وحدهم الذين عاشوا العمر في حضرة الصبر، يعرفون أن كل شيءٍ ينكسر يومًا، حتى الصبر نفسه، لكنه يترك شظاياه لامعةً على الأرواح التي جرّبته.

مدّت يدها نحو كوب الشاي البارد على الطاولة. لم تشربه، لكنها احتاجت أن تحتفظ به قربها، كشاهدٍ على وحدةٍ لا تحتاج لشيءٍ سوى أن تُسمّى بأسمائها القديمة: حنينٌ، وانتظارٌ، ورجاءٌ لا يكلّ.

حين تسلّلت خيوط الفجر الأولى، لم يكن المطر قد هدأ بعد. بدا لها وكأنه مصرٌّ أن يغسل هذا الليل من بقايا الصمت. وقفت ببطءٍ عند النافذة، وضعت كفّها على الزجاج المبلّل، وحدّثت الغائبين جميعًا: «هكذا أنا، بيتٌ صغيرٌ تسكنه العواصف ولا تهدمه. وامرأةٌ صغيرةٌ يُربّيها الصبر كل ليلةٍ من جديد».

في زاوية الغرفة، وعلى حافة الطاولة، كانت شمعة صغيرة تقاوم الريح التي لا تدخل حقًا، لكنها تهب بقوة كافية لتُحرّك الستائر بخفة، كما لو أن شيئًا ما كان يحاول أن يتذكر نفسه، يحاول أن يفيق من سبات طويل. الضوء الذي تنثره الشمعة كان يتراقص على الجدران بطريقة عشوائية، لكنه يحمل في طياته دفئًا بسيطًا، وهمًا بالكمال وسط فوضى الطبيعة التي كانت تعصف بالخارج. ذلك الضوء كان أشبه بصوتٍ داخلي هادئ، يحاول أن يقول إن

في قلب العاصفة قد يكون هناك مأوى، هناك مكان حيث يمكن للروح أن تجد بعض السكينة، بعض الهدوء.

ربما لذلك ظلت تحدّق في تلك الشمعة طويلًا، وكأنها ترى في ارتعاشها ارتعاش قلبها الذي ظلّ يقاوم الريح نفسها. كانت الريح في الخارج تعصف بكل شيءٍ، تقتلع من الذاكرة ما لا يمكن اقتلاعه، وترميه كأوراقٍ ميتةٍ على رصيف العمر. ومع ذلك، كانت تلك الشمعة الصغيرة تُثبت أن ضوءًا واحدًا يكفي أحيانًا ليُربك الظلام، ليذكّرنا أن بعض الهشاشة تحمل في داخلها صلابةً لم نجرّبها من قبل.

رفعت كفّها، وضعتها فوق لهب الشمعة دون أن تمسّه، كأنها تختبر دفئًا بعيدًا عن جسدها، دفءَ فكرةٍ لا تُحرق الأصابع لكنها تشعل القلب. تساءلت بينها وبين نفسها: كم من المرات نحترق لنضيء للآخرين؟ وكم مرةً نخاف أن نطفئ نورنا خوفًا من الريح، بينما الريح في النهاية تمرُّ وتمضي، وتبقى الشموع التي تجرّأت على التوهّج في العتمة؟

خلف النافذة، كانت الأشجار تتمايل كراقصاتٍ حزيناتٍ في حفل وداعٍ طويل. أوراقٌ تتساقط في ليلٍ لا يشتهي الضوء. كل شيءٍ خارج هذه الغرفة كان هشًّا إلا يقينها بأن البيت، مهما تقادم وتصدّعت جدرانه، هو امتدادٌ لصبرها، وأن الشمعة، مهما انحنى لهبها، لن تنطفئ قبل أن تقول ما لديها.

ها هي، إذ تُغمِضُ عينيها، لا تُسدِلُ جفنًا فقط، بل ترفعُ عن روحها ستارًا ثقيلًا من ضجيجِ النهارات. ما إن أطبقت أجفانها حتى وجدت نفسَها في بيتٍ لا يُمسِكُه جدارٌ ولا تربِطُه جذورٌ بالأرض، بيتٌ عائمٌ كنجمةٍ سقطتْ في حوضِ مطرٍ لا يكفُّ عن البكاء. تقفُ هي على عتبتِه، نصفُها مُدبِّرٌ، ونصفُها مُودِّع. بيدٍ تشدُّ رداءَ صبرِها، وبالأخرى تلوّحُ لمن عبروا كالحلمِ العابر: الذين جاءوا ثم غابوا، الذين كانوا هنا وما كانوا.

وفي صمتِ هذا البيت العائم، تكبرُ شعلةٌ صغيرةٌ انبثقتْ من حوافِّ قلبِها، تخلعُ عنها جلدَ شمعةٍ ذابلةٍ لتصيرَ مصباحًا وديعًا، ثم تقفزُ إلى رتبةِ قنديلٍ يُعلَّق على بابٍ نسيَ الإغلاقَ قديمًا. ما تلبثُ هذه الشرارةُ أن تتّسع، وتتناسخُ كضوءٍ عنيدٍ حتى تصير شمسًا صغيرةً تزرعُ الدفءَ في جدرانِ بيتٍ لم يذقْ طعمَ العتمة يومًا، بيتٍ كان حُلمًا، ثم صار وطنًا من نور.

لكنها فتحت عينيها بسرعة، خافت من وهْم الأضواء الكبيرة. كانت تعرف أن الضوء الذي نخلقه في خيالنا لا يكفي ليحرسنا من الريح، ولا ليملأ الغرف الفارغة. الشمعة وحدها تكفي. هذه الشعلة الخافتة التي تهتزُّ بين كفيها هي الحقيقة الوحيدة: ضعيفة بما يكفي لتذكّرها بهشاشتها، قويّة بما يكفي لتدلّها على الطريق وسط عاصفةٍ لا تهدأ.

اقتربت من النافذة، مسحت الزجاج بباطن كفّها، فرأت صورتها غائمةً بين خيوط المطر. لم تتعرف على نفسها فورًا. من هذه المرأة التي تشبهها؟ تلك التي صار لها قلبٌ يشبه لهب شمعةٍ صغيرة، يرفرف ولا ينطفئ؟ تبتسم للريح بينما الريح تهدّد كل شيءٍ حولها؟

تراجعت خطوة إلى الداخل، ثم جلست قُبالة الشمعة من جديد. وضعت كفّها تحت خدّها، كأنها تُنصت لهمس الضوء وهو يكلّمها. كان يقول لها بصوتٍ لا يُسمع: «اصبري... فالعاصفة ليست عدوًا، هي معلمٌ قاسٍ، لكنها تمرّ لتخبرنا من نحن حقًا. من نحن حين نُترك وحدنا أمام رياحٍ لا ترحم؟ من نحن حين لا يبقى لنا سوى نورٍ صغير نحميه بظلِّ قلوبنا؟».

جلست هناك وحدها، تستمع إلى صوت المطر، تشعر بأن كل قطرة تنقر على النافذة تروي قصة مختلفة، قصة عن حزنٍ دفين، وعن أملٍ يتجدد، وعن حياةٍ تُكتب ببطء وبصمت. كانت العاصفة في الخارج، لكنها لم تكن مجرد عاصفة عادية، بل كانت مرآة لمشاعرها، لحالة الغموض التي تخيم على قلبها. كان في نفسها شيءٌ مكسور، شيء لا يستطيع الكلام إلا بلغة الصمت، لغة الألم التي لا تحتاج إلى كلمات لتتحدث.

كانت تضع كفها على الزجاج البارد، وكأنها تحاول أن تلتقط صوت المطر بيدها، أن تمنع العاصفة من المضي بعيدًا قبل أن

تعطيها جوابًا عن أسئلة لم تصرّح بها لأحد. لم تكن تُريد من الليل سوى أن يستمر، أن يطيل بقاءه قليلًا، لأن الصبح يفضح ما يختبئ خلف عتمتها، يكشف خطوط الشحوب في عينيها، ويوقظ جرحًا ظنّت أن المطر وحده يعرف كيف يُخبئه.

أغمضت عينيها. في تلك اللحظة، صار الصمت أوسع، صار مكانًا يمكنها أن تهرب إليه حين تخونها الكلمات. كانت تؤمن أن في الصمت تكتمل الحكايات التي لم تكتمل يومًا، وفي قطرات المطر تذوب الاعترافات التي لم تجد طريقها إلى صوتها.

تذكّرت وجه أمها التي قالت لها يومًا: «القلب القوي لا ينكسر إلا ليعود أصلب». لكنها لم تخبرها أن الكسر أحيانًا يُصبح وطنًا بحد ذاته، بيتًا من شقوقٍ نختبئ فيها حين لا نجد بيتًا يحرسنا من الريح.

في عتمة الغرفة، بدت الشمعة الصغيرة واهنةً لكنها عنيدة، تشبهها كثيرًا: لهبٌ يتراقص رغم الرياح، ونورٌ خافتٌ يصرّ أن يفضح العتمة ولو للحظة. شعرت أنها هي والشمعة تُقاتلان معًا ضد تلك العاصفة— كلتاهما تعرف أن الحرب غير عادلة، لكن الهزيمة ليست خيارًا.

راحت أصابعها ترسم على الطاولة دوائر من البخار الذي صعد من كوب شايٍ بارد. كتبت اسمًا لم تنطقه، ثم مسحته سريعًا كما

يفعل الموج مع حروفٍ نُقشت على رملٍ مبتلّ. عادت تنظر إلى النافذة، إلى المطر الذي يقرع الزجاج بإصرارٍ يشبه صلاةً طويلة.

هناك، خلف الستائر، عالمٌ لا ينتظرها، لكن هنا، في هذا الركن من البيت القديم، كانت كل الأشياء تعرفها: الكرسي الخشبي الذي تألم من ثقل وحدتها، الساعة التي لم تعد تجرؤ على إيقاظها من أفكارها، الجدران التي لم تعد تردّد صدى ضحكاتٍ رحلت منذ زمن.

أدركت فجأةً أن ما يُبقيها هنا ليس العاصفة ولا الشمعة ولا المطر، بل تلك المسافة الدقيقة بين الألم والصبر— المسافة التي تُدعى حياة.

كانت تعرف أن الأشياء لا ترحل كلّها دفعةً واحدة. بعضها يبقى متخفّيًا في رائحة الأثاث القديم، وفي صرير الأبواب حين يطول الليل، وفي تفاصيل صغيرة تُعلن حضور الغائبين رغم انقطاع أخبارهم. كانت تصغي جيدًا لصوت البيت وهو يتنفّس مع العاصفة. كأن بين الجدران أرواحًا لا تهدأ، همسات قديمة تطرق ذاكرتها كلما طرق المطر نافذتها.

مرّت يدها على إطار صورةٍ نصف مغطّاة بالغبار. مسحت الغبار برفق، كأنها تزيل عن قلبها غيمةً عالقة. ابتسمت للصورة، كأنها تحادثها: «أما زلت هنا؟». في الصورة كان هو واقفًا، يضع

يده على كتفها يوم كانت لا تزال تتقن الضحك دون خوفٍ من الغد. تذكّرت كم من المرات وعدها أن يكون عاصمتها إذا هبّت العواصف، لكنه صار الريح نفسها حين قرّر أن يرحل.

ما عرفت الغضب منه يومًا، إذ كيف تغضب من غيمٍ علّمها أن المطر لا يرحل حقًّا، بل يعبر ليعود من جهةٍ أخرى؟ كانت تُؤمن، مذ فهمت لغة البلل، أن كل مَن مضى إنما مضى وفي جيبه سرّ الرجوع. أولئك الذين غادروا لم يتركوا خلفهم غير أسمائهم القديمة، أما هم فقد عادوا بأشكالٍ تُربك القلب في غفلةٍ منه: فكرةٌ تندسُّ في وسادةٍ قبل النوم، عطرٌ يداهمها في الزحام فيوقظ في صدرها ذاكرةً مبتلّة، أو نغمةٌ عتيقةٌ تتسلّل من راديو خجولٍ صدئ، كأن الماضي يصرُّ أن يربت على كتفها كلما ظنّت أنها نسيت.

أغلقت الصورة على حزنٍ صغيرٍ أعاد ترتيب قلبها، ثم وقفت أمام المرآة تبحث عن ملامحها وسط ظلال الليل. رأت في عينيها أسئلةً لم تُسأل، وأجوبةً لم يُسمح لها أن تُقال. حدّثت انعكاسها: «ما زلتِ هنا. نصفكِ صبرٌ ونصفكِ الآخر انتظار». ثم مرّ طيفُ ابتسامةٍ على شفتيها، كأنها تُطمئن نفسها أن الانتظار، مهما طال، لا يُلغي المعنى من الحكاية.

في الخارج كانت الريح قد اشتدّت أكثر، كأنها تُصرّ على أن تُربك كل شيءٍ في طريقها. ضحكت بينها وبين نفسها: «لعلّ الريح

تأتي اليوم بأخبارٍ لم تأتِ بها رسائل البريد منذ سنوات». ثم سحبت وشاحًا قديمًا ولفّته حول كتفيها، وجلست قرب النافذة لتراقب عراك المطر مع الزجاج.

صوت قطراتٍ ثقيلةٍ ارتطم بزهريةٍ قرب الشرفة، تذكّرت كيف كانت تزرع الورد لتُقنع نفسها أن البيت، مهما ضاق، يبقى وطنًا إذا امتدّت فيه الحياة. لكنها حين ماتت شجيراتها الصغيرة واحدةً تلو الأخرى، عرفت أن بعض الأحلام لا تُروى بالماء فقط، بل تحتاج قلبًا أخضر لا ييبس من الداخل.

تسلّل إلى سمعها دويُّ الرعد. لم تخف منه، بل رحّبت به كصديقٍ قديمٍ يعود ليذكّرها أن لا شيء يبقى على حاله. العاصفة، بكل قسوتها، كانت درسًا مفتوحًا في احتمالية التجدّد. المطر، بكل وزنه، كان بركةً مستترةً في هيئة فوضى.

أغلقت عينيها مجددًا، وتركت رأسها يستند إلى حافة الكرسي. شعرت أن الوحدة ليست عدوًّا ما دامت تحتفظ بقدرتها على تحويل كل لحظةٍ عابرةٍ إلى تأملٍ عميق. في العزلة، ينكشف وجه الإنسان الحقيقي: هشٌّ أحيانًا، وعنيدٌ أحيانًا، وخائفٌ لكنه لا يعترف، وقويٌّ فقط بقدر ما يُجيد احتضان ضعفه.

هكذا كانت: هشّة وعنيدة في آنٍ معًا. قطعة زجاجٍ مكسورٍ ما زالت تعكس الضوء كلما لامستها يدُ العتمة.

كانت تعرف أن الليل سيمضي، كما تمضي كل الليالي التي تأتي بعدها صباحاتٌ مشغولةٌ بالضجيج وتفاصيل الناس. لكنها أحبّت الليل لأنه يمنحها مساحةً لتُرمّم كسورها بعيدًا عن أعين أحد. في الليل فقط تصبح وحيدةً بما يكفي لتسمع حديث قلبها دون تشويش.

قالت لنفسها همسًا: «قد أكون أنا العاصفةُ التي أخافها. قد يكون المطر كل دمعةٍ أخفيتها عنهم. قد يكون الصمت سلاحي حين تكثر الأسئلة ولا أجد إجابةً تُنقذني من نفسي». ثم ابتسمت مرة أخرى، كأنها تُصالح قلبها وتُعلّمه كيف ينجو من كل هذا.

حين لامس الضوء الباهت أول خيوط الفجر، كانت لا تزال هناك، تُراقب الشمعة التي لم تنطفئ رغم كل محاولات الريح. أدركت حينها أن داخلها شمعةً أخرى لم تنطفئ أيضًا، رغم كل الرياح التي مرّت بها.

كانت تفكر في كل ما مضى، في كل الأحلام التي تأجلت، في كل القرارات التي تم تأجيلها بسبب مخاوف لا نهاية لها. كانت تدرك أن العاصفة لم تكن سوى انعكاس لما في داخلها، أن المطر الذي يهطل رتيبًا وثقيلًا هو بالضبط ثقل الذكريات التي تحاصرها. كل قطرات المطر كانت تُمثّل لحظة ألم، ولحظة فقدان، ولحظة تساؤل عن معنى الوجود. وكانت الشمعة الصغيرة، رغم ضعفها،

تمثل جزءًا من ذاتها التي لم تستسلم، التي ما زالت تكافح من أجل الضوء وسط الظلام.

مدّت يدها إلى تلك الشمعة، قرّبتها منها أكثر، كأنها تُقرب ما تبقى من نفسها نحو قلبها. كانت تفكر: «ربما نحن جميعًا شُموعٌ صغيرةٌ تُقاوم ريحًا أكبر منّا، لكن ما يهمّ حقًا أن نظلّ نقاوم».

أدركت في تلك اللحظة أن الخوف كان رفيقها القديم، ذلك الصامت الذي يجلس بجوارها كل ليلة ولا يقول شيئًا، لكنه يُخرس صوت قلبها كلما حاول أن يجرؤ على الحياة. كانت تخشى البدايات أكثر من النهايات، وتخشى أن تمنح حلمًا فرصةً ثانيةً، لأن خيبة واحدة كانت كافيةً لزرع غابةٍ من الحذر في صدرها.

لكن ماذا لو أن الخيبة نفسها كانت معلمًا خفيًّا؟ ماذا لو أن الخسارة كانت الطريقة الوحيدة لتتعلّم كيف تربح نفسها أخيرًا؟

ابتسمت بسخرية خفيفة وهي ترى انعكاس ظلّها يهتزّ مع لهب الشمعة: ظلٌّ هشّ، يشبه خوفها، يشبه كل المساحات التي حاولت إخفاءها خلف صمتٍ طويل. كانت تخشى أن يعرفها الناس عاريةً من أقنعتها: امرأةٌ بلا شجاعة، بلا قراراتٍ نهائية، بلا يقينٍ سوى هذا الصبر الذي صار عبئًا وجسر نجاةٍ في آنٍ معًا.

رفعت بصرها إلى النافذة. المطر لم يتوقف، بدا وكأنه عقدَ اتفاقًا مع الليل ليُطيل بقاءه أكثر. شعرت أن كل قطرة مطرٍ تسقط

على الزجاج تحمل سؤالًا: «إلى متى ستبقين هنا؟» لكن إلى أين تذهب؟ وأي الأبواب أكثر أمانًا من باب هذا البيت الذي شهد كل انكساراتها وخيباتها وأوهامها؟

هذا البيت لم يكن حجارةً خشنةً فقط، بل ذاكرةً كاملةً تجلس معها كل مساء لتتبادل معها قصصًا لا يسمعها أحد. في هذا الركن بالذات، تعلّمت أن الوحدة ليست مرعبةً كما ظنّت يومًا، بل قد تكون الحارس الذي ينقذنا من أنفسنا حين نتورّط في زحام الآخرين.

كانت وحدتها تشبه تلك الشمعة: ضوءٌ خافتٌ يكفيها لتبصر أعماقها حين يُطفئ الناس كل الأضواء. أحيانًا تساءلت: «أيهما أكثر وفاءً؟ من يرحل في العاصفة أم من يبقى؟» لكنها لم تجد جوابًا، لأن بعض الأسئلة خُلقت لتبقى بلا إجابة.

أغمضت عينيها قليلًا، وتركت ذهنها يطفو بين أصوات المطر وذكرياتٍ بعيدةٍ تتسلل كطيفٍ رطب. تذكّرت حوارًا قديمًا بينها وبين أمها حين سألتها وهي صغيرة: «متى تتوقف العواصف يا أمي؟» فأجابتها أمها بهدوء: «حين نُحبّ الريح أكثر مما نخشاها.» يومها لم تفهم، لكن الليلة فقط أدركت أن الإنسان لا ينتصر على الخوف إلا إذا فتح قلبه له، لم يعد يهرب، لم يعد يغلق الأبواب، بل يترك الريح تدخل وتبعثر ما شاءت.

أدركت أن كل قرارٍ تأجل، وكل حلمٍ تأخر، كان يحتاج عاصفةً مثله كي يُغسل من تردّدها القديم. لعلّ هذا المطر ليس لعنةً، بل هدية: هدية تُذكّرها أن الشجاعة لا تنزل علينا دفعةً واحدةً مثل شمسٍ صافية، بل تتسرّب ببطءٍ مثل قطرةٍ صغيرةٍ تنقر على نافذةٍ منسية، تفتح شقًّا للضوء وسط ظلمةٍ عاتية.

حين انتبهت، كانت الشمعة قد ذاب نصفها تقريبًا، ومع ذلك ظلّت واقفةً تضيء. قالت لها بصوتٍ خافت: «شكرًا لأنكِ ما زلتِ هنا.» ثم همست لنفسها: «وأنا أيضًا... ما زلت هنا.»

وقفت ببطء، أعادت ترتيب غطائها حول كتفيها، مشت نحو النافذة وأزاحت الستار قليلًا. في الخارج كان الشارع يلمع تحت أضواءٍ بعيدةٍ ورعشاتٍ من برقٍ متقطّع. الحياة هناك مستمرّة رغم المطر، رغم العاصفة، رغم الليل. للحظةٍ صغيرةٍ تخيّلت نفسها تخرج إلى ذلك الشارع، تمشي بلا مظلّة، تفتح ذراعيها للمطر حتى لو بلّلها حدّ العظم، حتى لو انتفض قلبها بردًا، حتى لو تذكّرت كل شيءٍ حاولت نسيانه.

لم تخطُ خطوةً خارجًا، لكن تلك الفكرة وحدها كانت بدايةً كافيةً الليلة. بداية أن تُصدّق أن لها الحقّ في الضوء، في المطر، في الحياة، حتى لو ظلت الريح تُصفّق للذكريات خلف الأبواب.

كانت تفكر في كم مرة حاولت أن تقاوم هذه العواصف الداخلية، حاولت أن تُخفّف من وقعها على روحها، لكن الأمر لم يكن سهلًا. كانت الحياة مثل هذه العاصفة، لا تنتهي فجأة، بل تستمر في التنقل بين لحظات من الهدوء والضجيج، بين أوقات من السلام والاضطراب. وكانت هي، كالبشر جميعًا، تحاول أن تجد لنفسها متنفسًا وسط هذا المزيج المتقلب من المشاعر.

تذكّرت كم مرةٍ أوهمت نفسها أن الصمت شفاء، وأن تجاهل الريح كفيلٌ بأن يجعلها تتوقف عن الصفير بين جدران صدرها. لكنها أدركت أن الريح لا تهدأ لأنها ببساطة جزءٌ منها، وأنه لا معنى لأن تُغلق الأبواب جيدًا إذا كان باب القلب مشرعًا على مصراعيه لكل هبة هواءٍ عابرة.

رفعت رأسها ببطء كمن يراجع قائمة أحلامٍ مؤجلة. أي حلمٍ منها يستحق أن تعيد إليه نبضًا بعد كل هذا الوقت؟ وأيها صار هشًّا أكثر من اللازم ليُعاد بناؤه؟ لكن وسط هذا التساؤل، ابتسمت حين شعرت بأن فكرة الحلم في حد ذاتها كافية لتُقنعها أن الحياة، رغم العواصف، كانت دائمًا تستحق أن تُعاش.

كان بداخلها يقينٌ صغيرٌ يشبه تلك الشمعة على الطاولة: لا يضيء كثيرًا لكنه كافٍ ليمنعها من الوقوع في عتمةٍ كاملة. يقينٌ

يقول إن الإنسان ليس مُطالبًا بانتصارات كبرى دائمًا، بل أحيانًا يكفيه أن يقف في مواجهة نفسه دون أن ينهار.

تذكّرت والدها يوم قال لها ذات شتاء بعيد: «لا تخافي من الريح، الريح تعلمنا كيف نثبت جذورنا». يومها لم تفهم المعنى جيدًا. كانت صغيرةً حينها، تظن أن الريح عدوٌّ يأتي ليكسر النوافذ ويُطفئ الشموع. واليوم، فقط اليوم، فهمت أنها لولا الريح ما عرفت متى تغلق النوافذ جيدًا، ومتى تتركها مفتوحةً لتُجدّد هواء البيت والروح معًا.

في هذه اللحظة، تذكّرت شيئًا كانت قد نسيته طويلًا: أنها لم تكن وحيدةً أبدًا. كانت دائمًا محاطةً بأصواتٍ خفيّة، بأسماءٍ تركت في صدرها صدى لا يُمحى، بذكرياتٍ لم تشأ أن تودّعها لأنها ببساطة خافت أن تكتشف أنها بدونها ستصبح فراغًا.

كانت الوحدة تُخيفها حين كان قلبها ممتلئًا بالناس. أمّا الآن، وقد صار قلبها مثل بيتٍ قديمٍ بلا أبوابٍ زائدة، صارت الوحدة رفيقًا هادئًا، لا يرفع صوته إلا ليُعلّمها كيف تحب نفسها دون شروط.

نظرت إلى النافذة مرة أخرى، كانت قطرات المطر تنزلق مثل دموعٍ عن زجاجٍ شفيف. أدركت أن دموعها أيضًا كانت تجد

طريقها للخروج بهدوءٍ مماثل: بلا ضجيج، وبلا شهودٍ كثيرين، وبلا وعودٍ بأن الغد سيكون أفضل بالضرورة.

ربما لم تعد تُراهن كثيرًا على الغد. لكنّها تُراهن على نفسها: على تلك القدرة القديمة فيها أن تنهض من تحت ركام الخوف، أن تعيد ترتيب ما يمكن ترتيبه، وتترك ما لا يمكن أن يُصلح في عهدة الزمن.

وضعت يدها على صدرها كأنها تربت على قلبها وتقول له: «هنا، هنا فقط يكفيك أن تتنفس. لا أطلب منك أن تتجاوز كل شيء دفعةً واحدة. ولا أن تنسى. يكفيك أن تتذكر أنك حيّ، حيّ رغم الريح والمطر وصوت العاصفة».

هناك، في هدوء الغرفة، وسط ضوء الشمعة الذي يتراقص، جلست تفكر في معنى الصراع الداخلي الذي تعيشه. كانت تدرك أن هناك دائمًا نوعًا من العاصفة في داخل كل إنسان، تلك المعركة المستمرة بين الرغبة في الانطلاق والقيود التي تفرضها الحياة أو المجتمع أو حتى النفس. كانت تدرك أن هذه العواصف لا تهدأ إلا حين يجد الإنسان طريقه نحو فهم ذاته، نحو تسامح مع ماضيه، نحو قبول لما هو مختلف أو غير متوقع.

مدّت يدها نحو الشمعة كمن يلمس قلبه لأول مرة.فكّرت أن ضوء هذه الشعلة الصغيرة يشبه تمامًا ذلك الفتات من الإيمان

الذي ينقذنا من أنفسنا حين نكاد نغرق في ضلالنا. كانت تعرف أن لا أحد يُنقذنا إن لم ننقذ أنفسنا، وأن أكبر خيانة يرتكبها الإنسان بحق روحه هي أن يتركها وحيدةً في العتمة دون شمعةٍ أو نافذةٍ أو حتى شقّ ضوءٍ يتسلّل من تحت الباب.

أغمضت عينيها وأصغت إلى صوت المطر وقد صار أكثر هدوءًا، كأنه هو الآخر تعب من طرق الزجاج، كأنه أدرك أن لا جدوى من محاربة الجدران حين يكون الداخل مفتوحًا على مصراعيه. ابتسمت لنفسها حين فهمت هذه الإشارة: كل العواصف الخارجية ليست سوى صدىً لعواصف أصغر تجلس في صدرها، وكل ما عليها أن تفعله هو أن تفتح نوافذ قلبها قليلًا لتُعيد ترتيب الرياح.

عبرت بخاطرها، كمن يعبر بيده فوق جرحٍ قديم، على كل تلك المرات التي آثرت فيها الهروب على المواجهة، والمراوغة على البوح، والصمت على نجدةٍ كان صوتها وحده كفيلًا بها. تذكّرت كيف خبّأت الكلام في صدرها حتى تآكل بعضه وصار نزيفًا لا يُرى، لكنها لم تمنح الندم مقعدًا إلى جوارها. أدركت متأخرةً أن حتى الأخطاء تُحسن التربية حين توجعنا بقدرٍ كافٍ. بعض الانكسارات لم تأتِ لتُميت فيها الرجاء، بل لتفتح لها شقوقًا في جدرانٍ ظنّتها صلبة، فتراها على حقيقتها هشةً في بعض الزوايا،

متداعيةً في مواضع أخرى، فتتعلم أين تُرمّم بثباتٍ، وأين تدع الريح تمرُّ كي تهدم ما لم يعد يصلح للسكن.

سمعت في ذاكرتها صدى ضحكةٍ بعيدةٍ كانت تخصّ طفلةً ما زالت تسكن فيها، تلك الطفلة التي ظنّت يومًا أن الكبار لا يخافون. وحين كبرت، فهمت أن الكبار ليسوا أقلّ خوفًا، لكنهم فقط يُتقنون إخفاء الخوف في كلماتٍ كبيرةٍ وصمتٍ ثقيلٍ وكثيرٍ من العناد.

فتحت عينيها على ضوء الشمعة الذي بقي يرقص رغم كلّ شيء. اقتربت منه أكثر، كمن يقرأ رسالةً سرّيةً مكتوبةً باللهب: «ما دمتِ هنا، لن ينطفئ كل شيء». عندها فقط أدركت أن أجمل ما في العاصفة أنها تعلّمنا كيف نحرس هذا اللهب الصغير في صدورنا، كيف نتركه يرقص خائفًا لكنه لا ينطفئ.

نهضت من مكانها ببطء، رفعت الستارة قليلًا، سمحت لنسماتٍ رطبةٍ أن تتسرّب إلى صدرها. للحظة شعرت أنها جاهزةٌ لتترك العاصفة تمرّ دون أن تكسرها، أن تسمح لها بأن تنظّف بعض الغبار العالق في قلبها، أن تغسل أطراف روحها بما تبقى من مطر.

ابتسمت أخيرًا— ابتسامة صغيرة لكنها حقيقية، شبيهة بضوء الشمعة حين ينتصر على الريح لدقيقةٍ أخرى. همست لنفسها: «ربما لا تهدأ العواصف تمامًا، لكننا نتعلّم كيف نحبّ صوتها».

رغم كل شيء، كانت تلك العاصفة بمثابة اختبار للحياة، اختبار للقوة التي نمتلكها لنواجه ما يأتينا. كانت تُدرك أن الهروب منها لن يُجدي، بل يجب أن تتعلم كيف ترقص تحت المطر، كيف تحوّل صوت القطرات إلى موسيقى تعزف على أوتار القلب، موسيقى ليست حزينة، بل مُفعمة بالأمل. كانت تفكر في كيف أن لحظات الشك والخوف، مهما طالت، فإنها لا تدوم إلى الأبد. فبعد كل عاصفة، تشرق شمس جديدة، تحمل معها وعدًا بحياة مختلفة.

تأملت أطراف أصابعها وهي تتحرك بخفة فوق حافة النافذة، ترسم دوائر صغيرة فوق الزجاج البارد الذي التصق به بخار روحها. شعرت أن هذا الزجاج ليس إلا حدودًا واهية تفصل بينها وبين العالم الخارجي، بين صمتها وصخب كل ما ينتظرها هناك.

في قلبها كانت هناك موسيقى خافتة، لحنٌ يشبه وقع المطر حين يخفّ ويشتدّ، يشبه نبضها حين يهدأ ويضطرب. تلك الموسيقى التي لا يسمعها سواها كانت تذكّرها أن الحياة مهما تقلّبت، ومهما غابت عنها الألحان الصافية، فإن نغمة صغيرة من الأمل تكفي أحيانًا لتعيد ترتيب الفوضى.

تساءلت: كم مرةً ظنّت أن العتمة لا بدّ أن تطول إلى الأبد؟ كم ليلةً مرّت بها دون أن تصدّق أن الصبح قادر على أن يكسر ستار

الخوف؟ لكنها الآن، وسط كل هذا المطر، كانت ترى نفسها كحديقة صغيرةٍ غمرتها السيول لتمنحها خصوبةً لم تكن تدري بها.

تنهدت وكأنها تُفرِج عن رئةٍ ضاقت بكل الأسئلة. قالت لنفسها بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يسمعه غيرها: «لا بأس إن تعبتِ، لا بأس إن بكيتِ، لا بأس إن توقّفتِ للحظةٍ واحدةٍ كي تسمحي لقلبك أن يرتاح من ركضه الطويل».

لم تكن تريد معجزةً تُبدّد كل شيءٍ دفعةً واحدة. كانت فقط تتمنى أن يبقى بداخلها ما يُشبه هذه الشمعة المضيئة على طاولتها— صغيرة، لكن عنيدة بما يكفي لتذكّرها أن كل ليلةٍ، مهما طالت، لا بدّ أن تنتهي بفجرٍ يليق بمن صبر لها.

أغلقت عينيها للحظةٍ طويلة، وأطلقت روحها تهيم مع صوت المطر كمن يُسلّم نفسه ليدٍ خفيةٍ تغسله من كل ما علق به من خوف. وحين فتحت عينيها أخيرًا، لم ترَ في النافذة سوى وجهها يبتسم لها من خلف الزجاج— وجهٌ يعرف الآن أن الصبر ليس انتظارًا خاملًا، بل رقصٌ صامتٌ تحت أوّل قطرة مطر، ووعدٌ جديدٌ بأن الغد يحمل ما لم تتوقعه، وما كانت تظن أن قلبها صار عاجزًا عن احتماله: حياةٌ جديدة.

كانت تتذكر لحظات مضت، حين كانت تستمع إلى صوت المطر من نافذة غرفتها في بيت الطفولة، كيف كان المطر يُشعرها

بالحنين، كيف كان يفتح أبواب الذكريات أمامها كصفحات كتاب قديم يُعاد قراءته في كل مرة، يُجدد كل مرة، لكنه لا يفقد رونقه ولا سحره. كانت تسمع صوت القطرات المتساقطة بهدوء، كأنها تنقل رسائل خفية من السماء إلى الأرض، رسائل لا تُكتب ولا تُقال، بل تُشعر بها الروح وحدها.

كانت تشعر حينها بأمان غريب، غريب لكنه عميق، أمان ينبع من مكانٍ في داخلها لم يكن واضحًا تمامًا، لكنه كان حقيقيًّا، حقيقي كلمسة يد دافئة في ليلة شتاء باردة، حقيقي كهمس الحبيب الذي يطوف في أذنها دون أن يُسمع للآخرين. كان الأمان هذا ينبع من قبولها لما هو مؤقت، لما هو متغير، لما لا تستطيع أن تُمسك به مهما حاولت. كانت تقبل أن المطر سيمر، وأن الغيوم ستزول، وأن الأيام لن تتوقف عن التبدّل كما يتبدّل وجه السماء بين صفاء وغيوم ورعد.

كانت تعلم في تلك اللحظات أن الحياة، مهما بدت متقلبة وقاسية، تحمل معها هدوءًا يلوح بعيدًا خلف كل عاصفة، كأنه وعد مخفي في أعماق السماء. وتلك القبولية كانت بداية السلام الداخلي بالنسبة لها، بداية تحرر من أسر الماضي، من قيود الألم، من تلك الندوب التي تركتها الذكريات على جدران القلب.

صوت المطر كان يتسلل إلى أعماقها، يذكرها بأن كل شيء في الحياة مؤقت، حتى الأحزان، حتى الأفراح، حتى ذاك الشعور

بالحنين الذي يراودها بين حين وآخر. كان يعيد إليها فكرة أن لا شيء يدوم على حاله، وأن في تغير الأشياء نفسها جمال لا يُقاوم. هنا، في هذه اللحظة، أدركت أن بيتها الحقيقي ليس ذلك البيت القديم المصنوع من الطوب والخشب، بل ذلك المسكن الذي صنعته في قلبها، ذلك المكان الذي يحتضن كل لحظة من حياتها، بكل ما تحمله من آلام وآمال.

تذكرت رائحة الأرض المبلولة التي كانت تملأ غرفتها في أيام الطفولة، وكيف كانت تلك الرائحة تأخذها بعيدًا إلى عالم من الحلم والراحة، عالم تبدو فيه كل الأحزان صغيرة، وكل الآمال ممكنة. كانت تشعر بأن تلك الرائحة كانت مثل السحر، سحر يُبقيها قريبة من ذاتها، ومن جذورها، ومن تاريخها الصغير الذي تشكل داخل هذه اللحظات العابرة.

كانت تتساءل، في هدوء نفسها، هل يكفي أن نحب تلك اللحظات العابرة لكي تبقى معنا؟ هل يمكن للذاكرة أن تُصبح ملاذًا ثابتًا وسط زحام الحياة؟ وهل السلام الذي نحلم به يولد من التسليم بكل ما لا نستطيع تغييره؟

كانت تعرف أن الحياة ليست سوى نهرٍ جارٍ لا يتوقف، وأن السلام الحقيقي لا يأتي من ثبات المكان، بل من قبول حركة المياه، ومن ارتياح القلب مع تلك الحركة التي لا نملك السيطرة

عليها. كانت تعلّمت كيف تصحو على صوت المطر في داخلها، كيف تحتضن حزنها كما تحتضن فرحها، كيف تترك للأيام أن تعبر بصفحاتها المتغيرة وتغلق الباب وراءها، وتحفظ في قلبها فقط ما يستحق أن يُحفظ.

ابتسمت برقة، كأنها تستعيد صديقًا قديمًا لم تره منذ زمن، صديق اسمه «الطمأنينة». شعرت بأن صوت المطر لم يعد يعيدها إلى الماضي فقط، بل صار يعزف في داخلها لحنًا جديدًا من الأمل والسكينة. أدركت أن المطر الذي كان صديق طفولتها صار اليوم معلمها، يعلّمها أن التغير ليس عدوًا، بل هو المفتاح الذي يفتح أبواب السلام الحقيقي.

مدّت يدها ببطء نحو النافذة، كأنها تريد أن تلمس ذلك الأمان القديم، وتغمض عينيها تستمع إلى السماء وهي تُرسل أغنيتها السرية، أغنية لا يسمعها إلا من يؤمن أن كل لحظة تمضي، مهما كانت قصيرة، تستحق أن تُعاش بكل عمق.

كانت تعرف الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن بيتها الحقيقي هو في حضور الصبر، في قدرة القلب على احتواء كل لحظة، وفي جمال القبول أن الحياة مثل المطر لا تبقى على حال، لكنها تروي الأرض والروح معًا، فتثمر فينا الأمل رغم كل شيء.

في تلك اللحظة، وقفت هناك، وسط صمت الغرفة التي لا تكاد تحتمل وحدتها، تنظر إلى نافذتها التي يغسلها المطر بعزفٍ رتيب، كأنها تدعوها أن تسمع أكثر مما ترى، أن تشعر أكثر مما تُفكر. أدركت، ببطء شديد، أن العاصفة التي كانت تُخيفها في الخارج، كانت في الحقيقة نفسها التي كانت تحتاجها داخليًا، ليست مجرد ريحٍ تهب لتُعصف بالأشجار، بل عاصفةٌ تُحرك شيئًا أعمق وأعظم في داخلها، عاصفة تُزيل الغبار الذي تراكم لسنوات فوق زوايا مخفية من روحها، تلك التي ظنت أنها دُفنت مع الذكريات القديمة، لكنها لم تكن إلا نائمة في انتظار هذا الزفير القوي ليصحو.

في أعماقها، كانت العاصفة ليست مجرد ريح تعصف، بل قصيدة تُكتب بدموع السماء، لحن يتراقص على أوتار الألم والرجاء، رقصة خفية بين ضوء الظلام، بين رغبة في الانطلاق وأسر في ذاتٍ لا تهدأ. كانت العاصفة بمثابة المرآة التي تعكس كل ما حاولت أن تخفيه عن نفسها، وجهها المكسور الذي لا يرى إلا من يجرؤ على النظر بلا خوف.

كانت تدرك أن هذه العاصفة ليست عدوها، بل هي صديقها القديم، الذي كان ينتظر فقط لحظة السماح لتتسلل إلى أركانها، وتتوغل في أعماقها، وتجتاح كل ما كان يُعيق حريتها الحقيقية. كانت العاصفة تهب على أمانيها القديمة والجديدة، تنفض عنها

أطنان الغبار التي غطت أحلامها، تزرع فيها بذورًا من نضارة لم تعرفها منذ زمن. هي ليست فقط ريحًا خارجية، بل هي عاصفة حياة، تُنظّف كل ما هو ميت في داخلها، تُفسح المجال للنمو، للولادة من جديد.

تلك الشمعة على الطاولة، لم تكن مجرد نورٍ ضعيف، بل كانت قلبها يتنفس، نفسٌ ينبض رغم الشتات، شعلة لا تعرف الاستسلام. كان ضوؤها يتلوى كالثعبان بين جدران الغرفة، يرسم حكاية عن صمود لا يُقهر، عن أمل صغير يحاول أن يشق طريقه وسط عتمة الأيام.

في صمتها، تذكرت كيف كانت تخشى الريح في الماضي، كيف كانت تخاف من الأصوات العالية التي تزلزل النوافذ، ومن الأمطار التي كانت تغسل كل شيء، ومن البرق الذي كان يقطع السماء كالسهام. لكن الآن، وفي هذه اللحظة من الوعي، فهمت أن الخوف كان مجرد قناع. كانت العاصفة هي التي تحررها، التي تكسر الأغلال الخفية، التي تدفعها أن تكون حقيقية، أن تخرج من قوقعتها.

كانت تشعر بشيء يتحرك، شيء كان جامدًا لسنوات طويلة، ربما كان الألم، ربما كان الألم ممزوجًا بالأمل، كان مزيجًا غريبًا من الرغبة في التحرر والخوف من المجهول.

تخيلت نفسها نهرًا ينساب بلا توقف، يتلوى بين الصخور، يرفض أن يقف، يصرخ في صمته، يصر على أن يكسر الحواجز. كان النهر يحمل سرًّا يشبهها، أنه بالرغم من كل العوائق، يكتب طريقه الخاص، لا ينتظر إذنًا من أحد، لا يطلب أكثر من أن يكون هو، في كل تدفق وكل انكسار.

«هل يمكنني أن أكون أكثر من مجرد فتاة تنتظر؟» همست لنفسها، كأنها تسأل صدى روحها. «هل يمكنني أن أترك العاصفة تدخل حياتي دون أن تخيفني؟»

كانت هذه الأسئلة تُطارِدها كما تهيم الريح في الليالي الباردة، لكنها لم تعد تهرب منها، بل وقفت في وجهها بشجاعة هادئة، كمن يستقبل رياح التغيير بأذرع مفتوحة.

تذكرت كيف كانت تحلم، حينما كانت صغيرة، بأن تكون حرة، أن تكتب قصتها بيدها، أن تعيش الحياة التي لا تقيدها قيود الماضي أو توقعات الآخرين. لكن الحياة، كما تعلمت، لا تمنحنا دائمًا ما نريد، بل تمنحنا ما نحتاجه، حتى وإن كان ذلك موجعًا في البداية.

كانت تدرك الآن أن العاصفة التي كانت تخشاها لم تكن سوى طريقها نحو تلك الحرية. العاصفة ليست النهاية، بل بداية جديدة.

بداية حيث تنقشع الغيوم الثقيلة، وتشرق الشمس على أرضٍ رطبة، تنبعث منها رائحة الولادة والنمو.

بدأت تخطو خطوات صغيرة في ذاكرتها، تستعيد كل اللحظات التي حاولت فيها أن تُقاوم نفسها، أن تُخفي ما بداخلها من رغبة في الانطلاق، في التحرر، في أن تُسمع صوتها وسط صمت الأعوام. كانت تلك اللحظات مليئة بالصراعات، بصراعات الوجدان التي لا تُرى ولا تُقال، لكنها تُشعر بها بعمق في القلب.

في قلبها، كانت تلك العاصفة تُشبه رقصًا صامتًا بين الضوء والظل، بين الألم والفرح، بين الخوف والشجاعة. كلما هدأت العاصفة، كان هناك صمت ثقيل يملأ المكان، لكنه لم يكن صمتًا ميتًا، بل كان صمتًا حيويًّا، صمتًا ينبض بانتظار اللحظة التي ستُسمح فيها للريح أن تعود.

تخيلت القمر، ذلك الرفيق الثابت في ليالي الوحدة، يراقبها من فوق بريقه البارد، يهمس لها بأسرار لا تفهمها إلا الأرواح التي تنتظر. القمر كان رمزًا لثباتها وسط تيارات الحياة المتلاطمة، وكان يحكي قصة امرأة تعرف أن النور لا يحتاج إلى أن يكون مشعًا طوال الوقت، يكفي أن يبقى موجودًا، خافتًا، لكنه حاضر.

أيقنت أن العاصفة هي المعلم الحقيقي الذي يُخرج الإنسان من أوهام الثبات. هي التي تُعلّمه أن الحياة ليست مجرد يوم هادئ

بلا متاعب، بل هي سلسلة من التجارب، من الدروس التي تُعيد تشكيلنا، وتجعلنا نعيد النظر في أنفسنا، وفي أحلامنا، وفي ما نريد حقًا أن نكون.

كانت تسمع في رأسها صوتًا هادئًا يقول لها: «لا تخافي من العاصفة، فأنتِ أكثر من مجرد صديقة لها، أنتِ رفيقتها، وراكبتها، ومن خلالها ستصلين إلى حيث لم تحلمي من قبل.»

نظرت إلى تلك الشمعة الصغيرة التي كانت تشتعل على طاولة الغرفة، ذلك الضوء الضعيف الذي لم يُطفأ رغم كل الرياح. شعرت أنها تشبهها تمامًا: صغيرة وضعيفة، لكنها متمسكة بالضوء مهما حاول الظلام أن يبتلعها.

تذكرت كيف كانت الشموع، منذ طفولتها، رمزًا للأمل، وللنور وسط الظلام. وكيف أن ضوء الشمعة قد يكون صغيرًا، لكنه قادر على أن يزيح ظلال الليل، ويجعل المكان ينبض بالحياة.

ابتسمت بخفة، وكأنها تعانق ذلك النور الصغير داخلها، وتقول له: «ابقَ معي، فأنت وحدك من يمكنه أن ينير دربي.»

تخيلت زهرة برية، تنمو في صمت الصحراء القاحلة، كيف تصمد رغم قسوة الأرض، وكيف تفتح بتلاتها للحياة، تستقبل أشعة الشمس، رغم كل شيء. كانت تشبهها، في مقاومة الحياة،

في رفض الاستسلام، في الإيمان بأن لكل بداية نهاية، ولكل نهاية بداية.

في تلك اللحظة، شعرت أن العاصفة قد بدأت تتراجع شيئًا فشيئًا، لم تختفِ تمامًا، لكنها صارت أقل شراسة، وكأنها تعرف أنها وجدت في داخلها موطنًا جديدًا يمكن أن تهدأ فيه.

كانت تدرك أن الرحلة طويلة، وأن هناك الكثير من الأيام العاصفة التي قد تأتي، لكنها صارت مستعدة. مستعدة لأن تواجهها، أن ترقص تحت المطر، أن تسمح للعواصف بأن تنظف روحها، وأن تنمو من جديد، متجددة، أكثر قوة، أكثر صفاءً.

وقفت أمام النافذة، وأطلقت نظرة أخيرة على المطر الذي ما زال ينهمر، وقالت في نفسها: «أنا هنا، وأنتِ تأتين، فلا تهدئين حتى تُحركي كل شيء بداخلي. ولا بأس، فأنا أحتاجك، أحتاج عواصفك، لأكون حرة.»

وبابتسامة صغيرة، أغلقت النافذة، وأطفأت الشمعة، لكنها كانت تعرف أن نورها سيبقى في داخلها، في قلب العاصفة التي أصبحت جزءًا منها.

جلست على الأرض، تستند إلى الجدار البارد، وكأنها تحاول استمداد بعض الثبات من صلابة الحجر. هناك، في تلك اللحظة،

لم تعد وحدتها عبئًا، بل أصبحت ملاذًا صغيرًا يُمكّنها من أن تلتقط أنفاسها، أن تستمع إلى صوت نفسها بوضوح لأول مرة منذ زمن.

«كم من الوقت قضيتُ أهرب من نفسي؟» همست بصوت خافت، كأنها تخاطب روحها التي كانت تبتعد عنها سنوات طوال.

كانت تتذكر طفولتها في هذا البيت القديم، غرفته التي ما زالت تحمل رائحة الذكريات، رائحة الكتب القديمة، رائحة البراءة التي كانت تفوح منها كنسمة رقيقة. كانت تتذكر ضحكاتها التي كانت تملأ المكان، صدى الخطوات التي كانت ترقص على أرضية الخشب.

لكن الوقت، ذلك السارق الصامت، أضاف طبقات من الغبار على كل شيء، حتى على قلبها الذي بدأ يخشى أن يُمحى تحت وطأة الوحدة.

أخذت تنظر حولها، إلى الطاولة الخشبية المتشققة، إلى الستائر التي ما زالت تتراقص برقة مع نسيم الليل، إلى الشمعة التي كانت تضيء المكان بضوء خافت. كان ضوء الشمعة كأنه قلبها الصغير، ينبض رغم البرد، صامد رغم الظلام، صغير لكنه حقيقي.

همست لنفسها: «هل ما زال قلبي ينبض بهذا الإصرار؟ هل ما زلت أؤمن بقدرتي على النهوض، على الخروج من عاصفة الألم؟»

في تلك اللحظة، شعرت بأن جدران الغرفة لم تعد تحاصرها، بل احتضنتها. احتضنتها كما يحتضن البحر أمواجه بعد عاصفة عنيفة. وكأن الطبيعة نفسها تقول لها: «كل شيء سيمضي، وكل ألم سيصبح جزءًا من قصتك، من ملامحك التي لا تُنسى.»

أغمضت عينيها، ورأت أمامها صورة البحر، البحر اللامتناهي، الذي يعيد نفسه كل يوم بلا كلل. كانت تشعر بأنها تشبه البحر، تتكسر أحيانًا، تتلاشى في العواصف، لكنها تعود دومًا لتغني أغنيتها الخاصة، صامدة، متجددة.

«البحر لا يخشى العواصف»، تذكرت كلماتها التي كانت تقولها لنفسها دائمًا. «أنا لا أخاف. أنا أحتضن العاصفة.»

كانت الكلمات تتحول في ذهنها إلى شعر، قصيدة تكتبها روحها في لحظة صدق مع الذات:

أيا عاصفةُ، لا تذهبي،

ابقِ، فقلبي بحاجةٍ إلى صوتك،

لتعلم أن الألم يولد الحياة،

وأن الليل يعانق النجوم.

مع كل كلمة، كانت تشعر بأن جسدها يتحرر من قيود الكبت.

كانت العواصف الداخلية تتساقط عنها مثل أوراق الخريف، تفسح المجال لأنوار الربيع تعانق قلبها من جديد.

أدركت أن الزمن ليس عدوًا، بل معلم صبور، وأن كل تجربة، حتى وإن كانت مريرة، هي نهر ينساب ليشكل وادي الروح الذي لا ينضب.

في صمت الغرفة، وسط ذلك النور الخافت، سمعت صوتها الداخلي ينبض بجرأة: «لقد تعبتُ من الهروب من نفسي، ومن الجدران التي بنيتها حول قلبي. حان الوقت لأن أتحرر، لأفتح نوافذي على الحياة، لأترك الريح تدخل، لتغسلني، لتغسل أحزاني.»

كانت العاصفة التي كانت تخشاها ليست إلا بداية حقيقية لحريتها، تحررها من قيود انتظار الآخرين، من تخيلات الخوف التي تسجن الروح.

كانت تتحدث مع نفسها كما لو كانت صديقة قديمة، تشاركها سرًا عميقًا: «أنا لستُ امرأة مهزومة، بل أنا زهرة برية في صحراء الحياة، لا تحتاج إلا إلى قطرات المطر لتتفتح.»

وبينما كانت تتحدث، جاء صوت خافت من داخلها، يشبه همس الندى على أوراق الشجر، صوت يقول لها: «لا تنسي، أنتِ

قادرة على إعادة بناء نفسك كما يبني النهر مجراه، بروية وصبر، بقوة لا تنطفئ.»

في تلك اللحظة، شعرت بأن ثقل الوحدة بدأ يتحول إلى سلام داخلي، سلام لا يعني غياب الألم، بل قبول وجوده بجانب النور، كجزء من الرحلة، وليس نهايتها.

ببطء، وقفت، مدّت ذراعيها كمن يحتضن العالم، وتنفست بعمق، كأنها تلتقط الهواء لأول مرة في حياتها. كانت تعلم أن الغد يحمل معه وعدًا جديدًا، حياة لم تكتب فصولها بعد، حياة تنتظر أن تُحكى من قلب امرأة تعلمت أن تعانق عواصفها.

وهكذا، جلست هناك، بين صوت المطر وهمس الشموع، في مواجهة هذه العاصفة التي كانت تهاجم الزوايا الخفية من حياتها. جلست لتُعيد التفكير في كل شيء، لتعيد ترتيب أفكارها ومشاعرها، لتبدأ رحلة جديدة من الفهم والقبول. كانت تعلم أن العاصفة لن تنتهي بين ليلة وضحاها، لكنها كانت مستعدة لأن تتعلم كيف تعيش معها، وكيف تستمع إلى موسيقاها، كيف ترقص تحت المطر.

كانت تدرك، في عمق ذاتها، أن هناك جمالًا خفيًّا في العواصف، جمالًا لا يراه إلا من يملك الشجاعة ليواجهها، لا يكتفي بالهرب منها أو التظاهر بعدم وجودها. هذا الجمال الذي يولد في قلب

العاصفة، حيث تتشابك ألوان الظلام مع خيوط الضوء، حيث تتراقص الريح في أرجاء الروح، وتكتب على صفحة الزمن قصصًا لا تُنسى.

كل قطرة مطر كانت لها معنى، كل نسمة ريح كانت تحمل سرًّا، وكل شعلة شمعة صغيرة كانت تضيء في زوايا الغرفة المظلمة، تذكرها بأنها ليست وحيدة. كانت هذه التفاصيل الصغيرة، البسيطة، التي قد يغفل عنها كثيرون، هي التي تشكل تلك الرحلة، الرحلة التي تُعلّم الإنسان كيف يصبح أكثر وعيًا، كيف يكتشف في نفسه قوة لم يكن يظنها موجودة، وكيف يحلق بحريّة في سماء لا حدود لها.

كانت تعرف أن الحياة ليست مجرد استقرار أو هدوء، بل هي نهر متدفق من التغيرات، من الحركات المتواصلة التي لا تتوقف، التي تصنع في كل لحظة نسخة جديدة منا، تزيل غبار الماضي، وتفتح أبواب الغد. هذا النهر، الذي لا يتوقف عن الجريان، هو ذاتها، هي نفسها، وهي الأخرى، كل ما كانت، وكل ما ستصبح.

جلست وحيدة، في غرفتها التي تحمل رائحة الماضي، الغرفة التي شهدت أحلام الطفولة ودموع اليأس، حيث كان الضوء والظلام يتعانقان في رقصة دائمة. نظرت إلى الشمعة التي تشتعل بخجل، وظلت تراقب رقص شعلة الضوء وهي تلاعب الظلال

على الجدران، تتابع كيف يتحول كل ظل إلى قصة، كل ارتعاش إلى لحظة تأمل.

تذكرت كلمات كانت قد سمعتها منذ زمن بعيد، تقول: «العواصف تُهذّبنا، ترسم على أرواحنا خطوط القوة، تجعلنا نستيقظ لنعيش بحقيقة أكبر.» تلك الكلمات كانت ترددها في قلبها، تتغذى عليها في كل لحظة ضعف.

كانت تتنفس ببطء، تسمع دقات قلبها تناغم صوت المطر الذي يهطل من نافذتها المفتوحة، كأنه يغني لها أغنية خاصة، أغنية تعانق الوحدة وتحتفي بالصبر. كانت تعلم أن كل لحظة ألم هي نبض جديد، وكل دمعة هي طاقة تخرج من عمق الروح لتمنحها حياة أخرى.

خارج النافذة، تراقصت أوراق الشجر تحت وقع المطر، وكأنها ترقص رقصة حياة رغم ثقل الماء عليها. هذا المشهد كان بمثابة رسالة صامتة، تقول لها: «انظري كيف تستمر الحياة بالرغم من كل ما يصيبها، كيف لا تترك نفسها تنهار، كيف تصر على أن تعود للجذور، على أن تنبت من جديد.»

في هذه اللحظة، كان بوسعها أن تلمس هذه الحقيقة. أن لا تخاف من سقوط الأوراق، لأنها تعلم أن لكل سقوط بداية لنمو

جديد، لكل نهاية قصة تبدأ من جديد. كانت تشعر بأن روحها أيضًا تحتاج إلى أن تسقط في أحيان، لتعود أكثر قوة وصفاءً.

بدأت تكتب لنفسها قصيدة صامتة، قصيدة لا تحتاج إلى حروف ولا كلمات، بل إلى مشاعر حية:

في قلب العاصفة،

أجد نفسي أحيانًا تضيع،

لكن بين رياحها،

أسمع نغمة جديدة تنادي،

تخبرني أن الألم ليس نهاية،

بل بداية رحلة لا تنتهي.

كانت تدرك أن صراعاتها الداخلية تشبه تلك العواصف الطبيعية، لا تهدف إلى تدميرها، بل إلى تطهيرها، إلى منحها فرصة لتعيد ترتيب نفسها، لترتقي إلى مستوى أعلى من الوعي والقبول.

كل تجربة، مهما كانت صعبة، كانت تُبقي فيها بذرة أمل، بصيص ضوء يخبرها بأن بعد كل ليلة مظلمة، هناك صباح يشرق بألوان مختلفة، بأحلام جديدة، برؤى أخرى.

في أعماقها، كانت تشعر بأن الطبيعة كلها تتحدث إليها، بكل رموزها وأسرارها، وأنها ليست وحيدة في هذه الرحلة. كانت تسمع في حفيف الأشجار صدى أحلامها القديمة، في همسات الريح نبضات قلبها المرهف، في نداء العصافير أغاني الحرية التي تنتظرها.

شعرت كأنها طائر صغير يقف على غصن شجرة، ينظر إلى السماء المتغيرة، يتمنى أن يُحَلِّقَ بعيدًا عن كل قيود. لكنها كانت تعلم أن الطيران لا يبدأ إلا حين يتعلم الطائر كيف يواجه العواصف، كيف يوازن بين الريح وقوة جناحيه.

أغمضت عينيها، وتركت خيالها يرحل بعيدًا، إلى حيث البحر الهادئ بعد العاصفة، حيث المياه تعكس لون السماء، وتغني لحنًا جديدًا، لحنًا عن بداية وفرح. كانت البحر رمزًا للعمق والغموض، لكنها كانت تعرف أن في أعماقه يكمن سر الحياة، كما في أعماق نفسها.

تذكرت أن الحياة ليست في استقرارها فقط، بل في حركتها الدائمة، في تدفقها الذي لا يتوقف، في قدرتها على أن تعيد تشكيل ذاتها في كل لحظة.

كانت مثل النهر، لا يتوقف، ينساب بين الصخور، يغير مجراه لكنه لا يتوقف أبدًا. كانت تبتسم في سرها، كأنها تعرف أن روحها مثل هذا النهر، لا يمكن أن تُحجز، لا يمكن أن تذبل.

في داخلها، كانت تكتب حوارًا مع نفسها، حوارًا عميقًا بين الخوف والأمل، بين الألم والفرح:

- هل تخافين من العاصفة؟

- نعم، لكني لا أريد الهروب منها.

- لماذا؟

- لأنها تعلمني كيف أكون قوية. كيف أكون حرة.

- وهل الحرية تأتي بلا ألم؟

- لا، لكن الألم جزء من الحرية، جزء من الحياة.

كانت هذه الكلمات ترن في أذنيها كأنها أغنية ناعمة، أغنية التمرد الهادئ الذي لا يحتاج إلى صخب.

كانت تدرك أن هناك في كل لحظة، في كل تغير، فرصة للنمو، للنضج، لأن نصبح أكثر صدقًا مع أنفسنا. أن نحب ذاتنا بما هي، بكل ضعفها وقوتها، بكل عواصفها وأيامها الهادئة.

نظرت إلى الشمعة التي بدأت تخبو، وابتسمت بابتسامة واثقة. كانت تعرف أن ضوءها، مهما ضعف، قادر على أن يشعل نارًا في القلب، نارًا لا تنطفئ مهما طال الظلام.

وفي النهاية، كانت تعلم أن الجمال الحقيقي لا يكمن في اللطف والهدوء فقط، بل في قدرة الإنسان على الصمود وسط العواصف، في أن يرى في وجه الريح تحديًا وفرصة، أن يحتضن الألم ليصنع منه حياة.

كانت الحياة، في جوهرها، رقصة بين الضوء والظلام، بين الثبات والتغيير، بين الحلم والواقع. وهي اختارت أن ترقص، حتى وإن كان المطر يبللها، والرياح تعصف بها، لأن في هذه الرقصة وحدها تكون حرة.

بينما كان صوت المطر يزداد خلف النوافذ، كان في صدرها نقرٌ يشبه إيقاع قلبٍ جديد، قلبٍ لم يعد يخاف من البلل، ولم يعد يرتعد من صدى الرياح التي تصفع الزجاج. كان ثمة همس خفي يعلّمها أن هذه العاصفة، رغم بردها ووحشتها، ليست سوى حضنٍ متقلبٍ يدرّب الروح على التجدّد، ويعيد ترتيب الأشياء المبعثرة في داخلها.

كانت تجلس على كرسي خشبي قديم بجوار نافذتها، تلفُّ كتفيها بشالٍ رمادي نسجته أمها منذ أعوام. كانت تتأمل قطرات المطر وهي تنزل ببطء، كأنها رسائل معلّقة بين السماء والأرض، رسائل لا يعرف سرّها إلا من يجرؤ على قراءة ما وراء البلل.

كانت تقول لنفسها: كم يشبهني هذا المطر! ينهمر بغزارة، يتظاهر بالقوة، لكنه في عمقه هشّ، شفاف، يذوب في التراب ليختفي في صمت.

لم تخشَ الوحدة في تلك اللحظة، بل كانت الوحدة، رغم قسوتها، حليفًا ضروريًا. لم تعد ترى في لقب «عانس» سوى قيدٍ لفظي زرعه الناس في أفواههم، ظنًّا منهم أن قلب المرأة لا يكتمل إلا بمفتاحٍ يقدّمه لها أحدهم. أما قلبها، فكانت تعرف أنه لا يحتاج سوى إلى نَفَس صادق، إلى مساحة آمنةٍ من الصمت والصدق كي يُعيد خلق نفسه بيده.

لم تكن تخشى الاعتراف: أنا لم أحب نفسي كما يجب. كانت تكتب هذه الجملة في دفتر صغير تحتفظ به بين طيات وسادتها، دفتر يشبهها: مهترئ الغلاف، متشقق الأطراف، لكنه يحتفظ في جوفه بكل أسرارها التي لم تقلها لأحد.

كتبتُ بخطٍّ مائلٍ، كمن يزرعُ وشمًا في خاصرة الورق:

«سأحبُّكِ اليوم... سأغفرُ لكِ كلَّ ما كان.»

سأعفو عن ذلك الركنِ فيكِ الذي أرهقتهُ الأكاذيبُ، وارتعدَ حين نثرتِ عليهِ أصابعُ الغيابِ مقولةً باردة: لقد تأخّرتِ.

ما تأخّرتِ يا ابنةَ السرِّ، بل كنتِ تتكوّنين في رحمِ الانتظار، تفتّشين عنكِ في دروبٍ ضيّقةٍ، لتعودي إليكِ وحدكِ، عودةً لا يلوّثها أحد.

أراحت رأسها على حافة المقعد وأغمضت عينيها. تركت ذاكرتها تنساب مع خرير المطر. عادت طفلة في بيت قديم، تركض خلف دجاجات الحوش، تضحك حين تسقط في الطين. تذكرت كيف كانت تلوّن كفّيها بوحل الشتاء وتضحك ملء قلبها، غير آبهة بالوقت، ولا بالنظرات، ولا بتلك الأسئلة الثقيلة: ماذا ستكونين حين تكبرين؟

كبرت، لكنها كبرت بطريقة لم يتوقعها أحد. كبرت خارج سياق التوقعات الجاهزة، خارج كتالوج الزواج. لم تكن ضد الدفء ولا ضد الصحبة، لكنها تعلّمت أن تسند ظهرها إلى نفسها أولًا، أن تتكئ على يدها قبل أن تمدها لأحد.

في ذلك البيت الهادئ، بين جدرانٍ تعرف أنينها وابتسامتها، كانت تسمع صوت أمها في الريح: كوني قوية يا ابنتي. كانت أمها البعيدة حاضرة في نسمة باردة تمرّ بين الستائر، حاضرة في عبق القهوة الذي ظلّ يرافقها من مطبخ العائلة الأول حتى وحدتها الطويلة.

تنهدت: أعرف يا أمي أني قوية. أعرف أني متعبة أحيانًا. لكن القوّة ليست في أن أبقى واقفة دائمًا، بل في أن أقبل بالجلوس أحيانًا، أن أرتاح، أن أبكي دون أن يربكني صوت بكائي.

كانت تعرف أن الليل سيطول الليلة. الليل الذي يظنه الناس ستارًا للخوف، كان بالنسبة لها لحافًا يغطي جراحها ويمنحها فرصة لتكاشف نفسها أكثر. هناك، في ظلمة الغرفة، كانت ترى كل شيء بوضوحٍ أكبر. ترى قلبها الذي لم يزل نابضًا رغم الجفاف. ترى أحلامها التي لم تمت رغم تأجيلها ألف مرة. ترى جسدها الذي احتمل خيباته بصمت، وما زال يحملها نحو صباحات لم تولد بعد.

همست للشمعة: لا تنطفئي الليلة. أريد أن أراكِ تحترقين ببطء، لأتعلم منكِ كيف أضيء نفسي حتى آخر رمق.

مرت لحظات صمت طويلة. فتحت عينيها، تناولت دفترها من جديد، وكتبت:

أنا البيت وأنا العاصفة. أنا الشمعة وأنا الريح. أنا تلك التي انتظرت من ينقذها، ثم اكتشفت أن النجاة لم تكن يومًا على هيئة يد غريبة، بل كانت هناك، في صدرها، حين قررت أن تصدّق أنها كافية.

رفعت رأسها إلى سقف الغرفة، كأنها تخاطب شيئًا أكبر منها: امنحني شجاعة أن أبقى وحدي إذا كانت وحدتي تحميني من تزييف المشاعر. امنحني يقينًا أن المطر لن يغسل روحي إلا إذا فتحتُ نوافذي له. امنحني هي يشبه هذا اللهيب، لا يحترق إلا ليضيء من حوله.

ثم ابتسمت. ابتسامة لم تكن انتصارًا كاملًا، لكنها كانت علامة حياة، علامة بداية، علامة ولادة هادئة تحت وطأة الريح.

تذكرت جدتها التي كانت تقول لها: يا ابنتي، القلب القوي لا ينكسر، بل ينحني للعاصفة ثم ينهض، مثل شجرة الزيتون. نظرت إلى أصيص الريحان العجوز في زاوية المطبخ، تلك النبتة التي لم تمت رغم أنها نسيت مرات كثيرة أن تسقيها. حتى الريحان يعرف أن يصبر عليّ، فكرت. ربما الصبر هو اسم بيتها الحقيقي، وربما هي وحدها كانت الضيفة التي تأخرت لتجلس في حضرته.

أغلقت دفترها، وضعت رأسها على ذراعها، وتركت المطر يكمل حديثه معها. لم تعد تخشاه، لم تعد ترى فيه تهديدًا أو وحشة. صار المطر صديقها، صار المعلم الذي يطرق نافذتها كل شتاء ليقول لها: أنا هنا لأذكّرك أن قلبك الذي بلّلته العواصف، سيزهر من جديد.

مدّت يدها إلى الشمعة وأطفأتها، لكن الضوء لم ينطفئ بداخلها. كان هناك بصيصٌ دافئٌ يتوهّج، يقول لها: لا بأس. كل شيء سيكون بخير، حتى لو تأخر الخير قليلًا.

جلست في العتمة. ابتسمت للظلال. مسحت دمعة وحيدة تسللت من عينها، ثم ضحكت منها: حتى الدموع تحتاج إلى رفيق في وحدتها.

وفي الخارج، كان المطر لا يزال يطرق الزجاج برفق، كأنه يُصفق لها: هكذا تكونين. هكذا فقط.

وفي ذلك الهدوء المجبول بارتعاشٍ خفيّ، وجدتْ نفسَها كما لم تجدها من قبل. وقفتْ هناك، تلمسُ أطراف ذاتها كمن يعثر على كنزٍ في أعماق النسيان. قويّةٌ كشرارةٍ تُشعلُ اليباس، رقيقةٌ كسِرٍّ يمرّ في قلب الريح، حرّةٌ كفكرةٍ تأبى أن تُقيَّد، كروحٍ تعلّمت الطيرانَ خارج سياجِ العالم.

كانت وحدتها مرآتها القديمة، رفيقة الدربِ الذي لا يدلُّ إلا عليها. وحدها تعرف كيف تغسلُ من شوارع ذاكرتها كلّ خطواتٍ ثقيلةٍ عبرتْها يومًا. لم يكن انعتاقُها لحظةً عابرةً، بل كان شهقةَ الكون حين يتذكّر أول خفقةٍ في صدر الأرض.

هناك، في هدأةٍ لا تحفلُ بصراخِ الساعات، لمستْ حقيقتها: أن العمرَ يركضُ مهما أثقلته عقارب الانتظار، وأن الحياةَ لا تنتظرُ

من يتعثّرُ بها، بل تمضي... تمضي كأنها لا تعرف الالتفات، تاركةً للقلوب الشجاعة أن تخترعَ لها جناحين، ولو من رمادِ الأمس.

هي... تلك التي أودعها القدر اسمًا أرادوا به وأدها حيّة «عانس» ـ كلمةٌ ثقيلة كجرسٍ صدئ، أرادوا بها أن يحفروا قبرًا في صدرها وهي تمشي بين الناس. لم يكن في الاسم سوى قيدٍ من خيوطٍ هشّة، خيوطٌ نسجها الخوف على مقاس عيونٍ لا ترى إلا ما يليق بها أن تراه. أما هي، ففي عزلةٍ تشبه صلاةً صامتة، أدركت أن الألقاب تُلقى على الأرواح كالأثقال، لكن الأرواح التي تعتاد التحليق لا تأبه بثقل الحجارة.

لم تكن سجينة انتظارٍ لعريسٍ يتأبط ذراعها إلى فردوسٍ مصنوع من ورق، بل ناسكةٌ اختارت محراب وحدتها لتعيد ولادة نفسها من رمادها، امرأةٌ أغلقت أبوابًا كثيرة لتفتح بابًا واحدًا: بابها هي.

قويةٌ... نعم، قوية كنارٍ تسكن رمادًا هادئًا، تختبئ بين الحطام حتى يحين موعد الاشتعال. نارٌ لا تأكل إلا ما لا تستحقه، وما زاد عن حاجتها من خيبةٍ ويأسٍ ووجع. لم تولد شرارتها من غضبٍ عابرٍ، بل من سكونٍ طويل، من صبرٍ جلَدٍ حجّامٍ على جراحٍ تعلّمت أن تداويها وحدها. قوّةٌ لا تُرى، تتّقد تحت ضلوعها، تسقي لياليها دفئًا وتوقدًا، تُشعل في صدرها قنديل الرجاء أن الغد لا يموت،

وإن جاء عاريًا من رفقةٍ كاذبة. صارت تعرف كيف تصنع من شمعٍ ذائبٍ شمسًا لا تنطفئ بدمعةٍ سريعة.

هادئةٌ... كنسمةٍ تسري في ليلٍ متعب. هدوؤها لم يكن استسلامًا، بل حيلة الحكمة حين تخطو على حواف الهاوية. صمتٌ يشبه صلاةً طويلة، يرمّم ما كسرته ضوضاء الألسنة والأحكام. نسيمٌ يمسّد شجرةً هرِمةً فتخضرّ من جديد، يسكن تجاعيد قلبها كبلسمٍ خفيّ. لم تعد تُطارد أطياف فرحٍ باهتٍ رسموه لها، بل أخذت بيد فرحها الخاص، صاغته على مهلٍ، ملأته من رحيق الوحدة ورضا القلب.

أدركت أن السعادة لا ضجيج لها. لا تلبس ثوب العرس وحده، ولا تختبئ خلف زينة البيوت المعلّقة. السعادة قد تكمن في رشفة قهوةٍ داكنةٍ تشربها على شرفتها، في حوارٍ خافتٍ بين صفحات كتابٍ غابرٍ، في همسٍ بين قلبٍ وروحٍ تعلّما كيف يبوحان لبعضهما بلا شهود. صار صمتها مرآةً نقيةً تردُّ إليها جمالها الأصيل، وسلامًا عنيدًا عصيًّا على ضجيج الناس، وكأنها تقول لهم جميعًا: هكذا أكون... وهكذا يكفيني أن أكون.

حرّةٌ... كعاصفةٍ تُمعن في خرقِ الحدود، ولا تأبهُ بما تُسقطه خلفها من جدرانٍ وأسوارٍ وأقنعةٍ بائدة. لم تعد أسيرةً لذلك السقفِ الذي زيّنوه بعبارةٍ ركيكةٍ: بيتنا في حضرة الصبر. فما كان بيتًا لم

يكن سوى قوقعةٍ من خوفٍ مستتر، جدرانُهُ لم تُبنَ من حجرٍ، بل من عيونٍ تلوكُ الشفقةَ كطَعمٍ مُرّ، وأسئلةٍ ضيّقةٍ تنحتُ في روحِها ثقوبًا صامتةً.

اليوم، خلعت عنها تلك الأغلالَ الشفّافة، تحرّرتْ من ضرورةِ أن تُفسّرَ حضورها لأحد، أو تشرحَ وحدتَها لمن لا يفهم أن الوحدةَ أحيانًا وطنٌ وعتقٌ وولادةٌ ثانية. صارت عاصفةً... عاصفةٌ لا تجتاحُ إلا داخلها، تكنسُ بقايا حزنٍ يابس، وتقتلعُ جذورَ خيباتٍ قديمةٍ تركتها الأيام كألغامٍ تحت جلدِ القلب. تركت وراءها أرضًا بكرًا، تتهيأ لزرعِ حلمٍ جديدٍ يُزهرُ كلّما مشت فيه وحدها.

حرّةٌ... كروحٍ نسيتْ شكلَ الأقفاص. أجنحتُها ليست من ريشٍ هشّ، بل من يقينٍ صلبٍ بأنّ السماء لا تعرف ضيقَ البيوت ولا سقوفَ التقاليد. روحٌ تمرّدتْ على معجمِ التوقّعات، وغادرتْ قاعةَ الانتظار التي جلستْ فيها طويلًا تنتظرُ فارسًا لا يأتي، لتكتشف أنّها هي الفارسُ والفرسُ والسِياجُ والحقلُ معًا. لم تعد تستعيرُ ضوءَها من أحد، صارت هي الضوءُ والطريقُ في آنٍ واحد.

ها هي تحلّقُ أبعد من فِخاخِ العيونِ الصغيرة، أبعد من أحاديثٍ صدئةٍ لا ترى في المرأة سوى جسدٍ يُقتنى أو رحمٍ يُحصى عليه العمرُ والجدوى. صارت روحُها تتغذّى على الفكرة الحرّة، على جمالٍ لا يُراد له ثمنٌ، على التفلّت من كل خيطٍ يشدُّها إلى قاعٍ لا

يُشبعُ غير العيونِ الفضولية.

أمّا الصبر... هذا الرفيقُ الأوحدُ حين تفرُّ الوجوهُ جميعًا، فقد صنع لها بيتًا بلا جدرانٍ، سقفُه فضاءٌ صافٍ، وأرضُهُ يقينٌ لا يتزعزع. في حضرةِ الصبرِ فهمتْ أنّ الانتظار ليس خمولًا، بل يقظةٌ خفيّةٌ، ثورةٌ تحت جلدِ الصمت. الانتظارُ لم يكن سجنًا، بل بوابةً إلى زوايا فيها من نفسها ما لم ترهُ من قبل.

علّمها الصبرُ أن البقاء واقفةً، رغم انكساراتٍ متراكمةٍ، بطولةٌ صامتةٌ لا يُجيدها إلّا من خَبِرَ ظلالَهُ العميقة. لم تعد كلمةً تتردّدُ بملل على ألسنةٍ متعبة، بل صار فنًّا سريًّا للبقاء ناصعةً، واقفةً، حتّى لو سقطتِ الدروبُ كلُّها من تحت قدميها.

الزمن... ذاك الذي ظنّت يومًا أنه عدوٌّ متربّص، يسرق من وجهها وهج الفتوة، صار اليوم رفيقًا خفيًّا، يربّت على كتف وحدتها ويعلّمها سرّ التحوّل. أدركت أنّ الزمن ليس خطًّا يمتدُّ ليقودنا إلى الشيخوخة كقطيعٍ خاضع، بل دائرةٌ تتّسع مع كل شروقٍ جديد، تُضيفُ إلى روحها ندبةً أعمق، حكمةً أوضح، قلبًا أرحب. لم تعد تُحصي ما انقضى من أعوامٍ بوجع الخسارات، بل صارت تعدُّ اللحظات النادرة التي سكنت فيها حاضرها بكامل يقظتها، بكامل نبضها.

أصبحت تحسب أنفاسها كما يحسب ناسكٌ ركعاتِه، تؤمن أن كل ثانيةٍ تمرُّ هي معراجٌ صغيرٌ إلى فهمٍ أكبر. كل ثانيةٍ تقول لها: «ما زلتِ هنا، وما دام فيكِ رمقٌ، ففيكِ متّسعٌ لنموٍّ آخر.»

كانت تطلّ على الحياة لا بعينيها وحدهما، بل من شرفةٍ أعلى: شرفة الروح. لم تعد ترى المشهد كما يراه العابرون، بل كما يراه من تعلّم أن الجمال لا يصرخ، بل يهمس. ترى الزوايا المنسيّة، التفاصيل المهملة، التجاعيد الدقيقة في ورقة شجرٍ لفظها الخريف، ولمسة الضوء وهي تتسلّل إلى عتمة غرفةٍ وحيدة.

امتنانها الذي نما مثل شجرةٍ بطيئةٍ في قلبها، صار ظلًّا تستظلُّ به حين يشتدُّ وهج الغياب. عرفت أن الفراغ الذي كانوا يهابونه، لم يكن خواءً قط، بل كان حقلًا واسعًا، كلّما خطت فيه خطوةً، نبتت لها فكرةٌ جديدة، زهرةٌ من صمتٍ جميل، شجرةٌ من تأملٍ طويل.

ما عادت تنتظر من يطرق باب وحدتها ليملأها بهتافاتٍ عابرة، صارت تعرف أن الروح التي اعتادت سكينة الفراغ لا تجوع إلى ضجيجٍ مستعار، بل تكتفي بأن تكبر بصمت، وتخترع في فضاء وحدتها قصصًا أخرى للحياة... حياةٌ تُكتب من الداخل، وتفيض بلا ضجيج.

كم مرةٍ حاولت أن تُذيب روحها في قوالبٍ صنعوها ببرود، أن تنحت ملامحها على مقاسهم، لتُشبه نساءً يتباهين بخواتمٍ

تُقيد أصابعهنّ، وأجنحةٍ قصقصوها باسم «الحياة الطبيعية». لكن روحها كانت أوسع من أي قفصٍ مذهب. كانت تهفو إلى فضاءٍ بلا أسوار، إلى مدىً لا تحدّه عناوينُ عائلةٍ أو لقبُ زوجةٍ يُطوِّق رقبتها كعقدٍ ثقيل.

كانت تراهم يُحكمون إغلاق الأبواب خلف ابتساماتهم، يضعون مفاتيح حريتهم في جيوب رجالٍ ينادونهم بأسماء لا تشبههم. وكانت تعرف أن بعض البيوتِ أقفاصٌ فاخرة، وأن وحدتها، تلك التي أخافوها بها، هي سماؤها المفتوحة على أسرارها.

اليوم صارت الوحدة حليفتها. لم تعد ظلًّا ثقيلًا أو عدوًّا متربّصًا خلف الأبواب الموصدة. صارت صديقتها السرّية، مرآتها التي تُريك وجهك عاريًا من زيف المجاملات. لم تعد تحتاج نصفًا يكملها، بعدما وجدت نصفها الضائع في زواياٍ داخلها كانت تخشاها أكثر من خوفها من الفقد. هناك، في عمق صمتها، اكتشفت أنها كانت كاملةً منذ خُلقت، وأن الوحدة ليست فراغًا، بل فضاءٌ يكشف للروح حقيقة شكلها حين تُغلق النوافذ ويُسدل الستار.

هي امرأةٌ صارت عاصفة. لم تنحنِ لرياح العتب، ولا لأنينِ السؤال الثقيل. لم تكن «عانسًا» كما وضعوها في قائمة الخسائر،

بل كانت قصةً تُكتَب، لا صفحةً تُطوى. كانت معزوفةً تنتظر أنامِلها لتكتمل، قصيدةً لم تُقل، وصدىً يتردّد في صدر الزمن.

تنفست بعمقٍ يشبه إعلان الحريّة. لا ندم يقيّد خطوتها، لا حسرةٍ تشدُّ ثوبها إلى الوراء. صار في داخلها متّسعٌ لأغنيتها وحدها، تلك التي لا تُعزف إلا حين تصمت الضوضاء من حولها.

هكذا اختارت أن تكون: امرأةً خارجةً من رحم الصبر، لا توقّع اسمها في دفتر الزواج كأنّه تأشيرة نجاة، بل تحفر اسمها في ذاكرة الأيام كأسطورةٍ من حريةٍ وعناد. ولأنها أدركت سرّها، صارت تعرف أن وجهها الجديد لا يراه أحدٌ إلا من يشبهها: قلبٌ عرف أن الصمت ليس موتًا، وأن الوحدة ليست لعنة، بل ولادة ثانية... لمن لم يكتفِ بأن يكون عددًا في طابورٍ طويلٍ من القصص المعلّبة.

وقَفت هناك، وجهًا لوجه، في حضرة ليلٍ يتدثّر بالصمت كوشاحٍ حريريٍّ ثقيل. لا كلام يليق بتلك اللحظة التي اختلطت فيها ظلال الوجود بالغياب، رقصةٌ بطيئة تؤديها الأرواح حين لا تعود الألسنة قادرةً على الكذب، ولا على قول الحقيقة كاملة. بينهما صمتٌ أبلغ من أي نطق، صمتٌ ينسدل مثل ستارةٍ على مسرحٍ مهجورٍ ظلّ يحتفظ بأصداء الحكاية القديمة.

ما بين الشهيق والزفير، كانت أنفاسها تحاول أن تُرمّم ذلك الإيقاع الذي نسيه الزمن في زوايا القلب، الإيقاع الذي كان يومًا

كل ما يجمعها قبل أن يتواطأ عليها ثقل الشكوك وفتور الخيبات. ما أثقل هذا الصمت حين يتحوّل إلى شاهدٍ صامت على انكساراتٍ لم نجد لها اسمًا، على حكايةٍ اكتملت بلا خاتمة، أو ربما اكتملت بخاتمةٍ لم نعترف بها.

عيناي غارقتان في عينيه، كمن يُنقّب في أنقاض حريقٍ قديم عن جمرةٍ لم تنطفئ بعد. أبحث عن شرارةٍ كانت توقظ فيّ شغب الحياة، عن ذلك الجنون النديّ الذي كان يغسل أيامي من صدأ الرتابة. هل بقي منه شيء؟ أم أنّ ما بيننا صار رمادًا أنيقًا نربّت عليه كي لا يثير غبار الذاكرة؟

آهٍ من هذا الحنين الذي يتسلل خلسةً كجاسوسٍ إلى روحي! ليس حنينًا إليه بقدر ما هو حنينٌ لتلك التي كنتها معه: فتاةٌ لم تكن ترى من الحياة سوى انبهارٍ طازج، تقرأ في صوته قصائد لا تُكتَب، وترى في يديه نبوءة الفرح. تلك الفتاة التي لم تذق بَعْدُ مرارة الخذلان، ولم يسكُن عظامها ثقلُ الانتظار.

أي سخريةٍ هذه أن نلتقي الآن، بعدما نضج الصمت فينا حتى صار بيتًا نقيم فيه، بيتًا من صبرٍ له جدرانٌ شفّافة لا تخفي هشاشتنا، بل تكشفها كجرحٍ قديمٍ يُصرّ على النزف بصمت. هكذا نقف: شاهديْن على ما كنا عليه، وعلى ما صرنا إليه... غرباءَ يتبادلون نظراتٍ لا تبحث عن عودةٍ، بل عن عزاءٍ مؤقتٍ قبل أن ينطفئ الليل

ويصعد كلٌّ منّا إلى عزلتهِ التي اختارها، عزلته التي لم يعد يهددها الوعد ولا يربكها الأمل.

الصمت بيننا الآن ليس فراغًا بلا معنى، بل هو سفرٌ مُدوَّن بخطوط الأنفاس وإشارات الأجساد. كل تنهيدةٍ تنبع من أعماقي تحوي ألف حكايةٍ لم تُروَ، وكل نبضةٍ في قلبي تحكي عن عمرٍ مضى مع آخرين، عن زمنٍ لم يكتب له أن يكون معنا. كم هو قاسٍ هذا الصمت حين يتحول إلى لسان الروح المتألّمة، إلى شاهِدٍ صامت على أحلامٍ ضاعت في زوايا الغياب، وعلى فرصٍ ما كانت لتأتي أبدًا.

أتذكّر جيدًا إيقاعنا القديم، ذاك الرقص الذي كان يتنقل بين سرعةٍ تلهب الأفق، وهدوءٍ يلامس أطراف القلب. كان إيقاعًا يُنير ظلمة الوحدة، ويغمر الأيام ببريق لا يُنسى. كنا نرقص على أنغام حبٍ بلا قواعد، وعلى أحلامٍ لم تكن تعرف بعد قيود الواقع. لكن أين ذهبت تلك الألحان؟ هل اختبأت في عمق الذاكرة، تنتظر لحظةً كهذه لتعود وتُعلن عن وجودها المريب؟ أم أنها تبخرت، كأنها دخان يذوب في ضوء الفجر، تاركةً وراءها أطلالًا من روحٍ باتت تائهة؟

كم مرة حاولتُ جمع شظايا ذاك الإيقاع المتكسّر، أن أعيد تركيب قطعةٍ واحدةٍ منه، لأستعيد لمحةً من فرح الأمس المشتّت؟

لكن الزمن، ذلك السارق الماكر، كان دومًا في الانتظار، يسرق من بين يدي أعمارًا بهدوء، ويترك لي ندوبًا وذكرياتٍ مقلقة. والشكوك، تلك السموم البطيئة التي تسري في عروق العلاقة، تقتل الثقة وتدفن اليقين. والخيبات، يا لسلسلة الخيبات التي تتكدس فوق بعضها كطبقات جليدية، تمنع أي زهرة من النمو في حديقة القلب.

لم أؤمن يومًا بأن الصدفة تصنع لنا مصائرنا. بل أومن بالقدر الذي يضعنا في زوايا لا نتوقعها، لنواجه ذواتنا القديمة، ولنرى في عيون من كانوا يومًا جزءًا لا ينفصل من أرواحنا. لكن لماذا الآن؟ لماذا في هذه اللحظة من حياتي، حين صارت مرآتي تعكس صورة امرأة لم تعد تنتظر فارس الأحلام، بل أصبحت هي الفرس والفارس، البطولة والحكاية؟ امرأة رضيت أن تعيش في «حضرة الصبر»، حيث الهدوء أغلى ما تملك، والوحدة أصدق الرفاق.

وهل تراه الآن يلمح كل هذا الثقل المستتر خلف هدوئي؟ هل تخونه عيناه فتقرآن في عينيّ ما لم أكتبه يومًا؟ ترى، هل يرى في خطوط وجهي تلك الخريطة السرية، التي حفرتها خطواتي على دروب لم أترك فيها سوى بصمات صامتة؟ هل يفهم أنني عبرت صحارى من الخيبات وحدي، وأنفقت من عمري محطاتٍ من الانكسار كي أجمع فتات قلبي وأصقله من جديد؟ أشكُّ في ذلك،

فالرجال غالبًا لا يتقنون الغوص في الأعماق، بل يكتفون بملامسة السطح اللامع، يظنون أنهم يعرفون، وما دروا أن امرأةً مثلي تخبئ في قلبها ألف كونٍ لم يخلق بعد.

يقولون عني «عانس». يا لوطأة هذا اللفظ الجاف، كأن العمر جريمة يجب أن تُقيد بسنواتٍ معدودة. لقبٌ يظنون أنه عارٌ يجب ستره، وما دروا أنهم يعلقون على صدري وسام حرية. لم أكن يومًا مجرد رقمٍ في دفتر أنسابهم، بل كنت بركانًا يرفض أن يطفأ تحت رماد التقاليد. كنت نارًا لا تستكين، صخرةً لا تنحتها ريح الكلام، نسمةً تعبر الأغصان فلا تكسرها، عاصفةً تهدم قلاع الزيف داخلي، وتبني لي فضاءً لا سقف له سوى قلبي.

هكذا أنا، امرأةٌ كلما طال بها الانتظار، انكشفت لها أسرار ذاتها أكثر. كل يومٍ في حضرة هذا الصبر أكتشف رُكنًا من نفسي كنت أجهله. تعلّمت أن الانتظار ليس خنوعًا، بل بطولة خفيّة. بطولة أن تبقى واقفًا في وجه الزمن، أن تحتفظ بضوئك حين تنطفئ كل المصابيح من حولك. الصبر لم يكن يومًا يأسًا يقتل النبض، بل رفيق دربٍ واثق، يمسك بيدك كلما أوشكت على السقوط، ويهمس في أذنك: «انهضي، فما زال فيكِ فجرٌ لم يُولد».

تلك الأنفاس العالقة بين شفاه الصمت، أهي ارتعاشةُ تردّدٍ قديم، تأخرنا في خنقه ذات صدقٍ مباغت؟ أم هي رجةُ لحظةٍ

ضاقت بما حملت من ماضٍ ثقيلٍ وحاضرٍ مأزومٍ بفرصٍ فاتت؟ كأن الزمن استعار منا أنفاسنا، وأوقف دقاته، ليمدّ لنا خيطًا واهيًا نسترجع به ذلك الإيقاع البعيد... الإيقاع الذي خذلناه حين توهّمنا أن الحب وحده يجرؤ على هدم الأسوار.

لكن يا لسخرية الذاكرة، ما جدوى أن نُفرِد صفحات القلب الآن لحكايةٍ نزفناها حتى جفّت؟ من يعيد للينبوع ماءه بعد أن جفّت ضفافه؟ من يوقظ مدينةً هجرتها قلوبها؟ ما مضى قد صار رمادًا في كف الريح، وما بقي لنا سوى هذا السكون، وقوفًا يشبه الحداد على خيبةٍ اخترناها، وخيارٍ دفعنا إليه العمر دفعًا.

وربما لم يكن هذا اللقاء سوى خديعة أخرى من حيل الحنين، صورةٍ استدرجتها الروح لتغلق بابًا ظل مواربًا طويلًا. أغمضتُ عيني لأطمئن أني هنا، أني وحدي، أن هذا الوجه الذي لمحته في الظل لم يكن إلا طيفًا أرسله الفقد ليختبر هشاشتي. وحين فتحتُ عينيّ ثانيةً، لم يكن سواه الصمت، وحضور روحي بيني وبين نفسي.

بقيتُ في حضرة الليل، أعدو داخلي كعصفورةٍ تحررت من قفص الأسئلة. أُنصتُ إلى قلبي وهو يخطُّ نغمةً جديدةً تخصّني وحدي: نغمةٌ من صلابة النار، ورفق النسيم، وعنفوان الريح التي لا تعترف بسياجٍ أو قيد. بيتي صار أوسع من جدرانٍ ربّاني عليها

الخوف، صار حديقةً تنبت فيها أزهار لم يزرعها غير صبري، ولم يرويها غير وحدتي.

ها أنا الآن، أتنفس حريةً لا يعرفها إلا من عاش يكتب حكايته وحده. لا يهم ما غاب، ولا ما انتظر. فحين اخترتُ الصبر بيتًا، والوحدة رفيقًا، صرتُ مني وإليّ. وهذه حكايتي، أُتمّها كل يوم، أخطّ سطورها بكامل يقيني: أنني باقية، أُنبت من روحي ربيعًا في حضرة الصبر.

في هذا الصمت، كان ثمّة ما هو أثقل من أي اعتراف، أعمق من أي بوحٍ قد يجرؤ اللسان على حمله. شيء يشبه عهدًا عتيقًا، خُطَّ بالحضور قبل أن يُخطّ بالكلمات، عهدًا لا يحتاج توقيعًا ولا شهودًا، يكفيه أن يستقر في فسيفساء الروح، في رعشة نظرةٍ صادقة، في ارتعاشة صوتٍ انكسر قبل أن يكتمل، في صمتٍ يُنطق ما عجزت عنه الحروف.

يا لهذا الصمت... كم يشبه عباءةً نسجها الزمن من خيوط الانتظار! ليس فراغًا، بل حديقةٌ سرّية، أتنزه فيها وحدي، أُحادث فيها ذاتي التي لم يخنها إلا الذين مرّوا عابرين. في هذا الصمت، أُرمم نفسي بندوبها، أُربّت على انكساراتي كمن يربّت على جناح طيرٍ عائدٍ من عاصفة. هنا أُعاهد روحي بألا تنكسر ثانيةً، وألا تبوح إلا لها، وألا تنسج خيوطها إلا من ضوءٍ صادقٍ لم يطأه زيف البشر.

هو ذاك العهد الذي لا تكتبه الأقلام، بل تنقشه الدموع في خفاء الليالي، وتثبته تنهيدةٌ تحبس كل مالم يُقل. عهد الصبر... اسمه السرّي الذي أردده بيني وبيني. عهدٌ أن أبقى واقفةً، مهما اختبرني العمر بما سمّوه «العنوسة»، وكأن العمر يتجمّد إن لم يُقترن بخاتمٍ وولادة. لم يعلموا أنّي أنا وحدي كافية لي. أنّ وحدتي ليست منفى، بل مملكة. أنّني امرأةٌ من نارٍ ونسيم، من عاصفةٍ ومحراب، خُلِقَت لتكمل نفسها بنفسها، ولتقول للعمر: كن شاهدًا، فأنا شاهدةٌ عليّ... وكفى.

أين كانت الكلمات حين كان القلبُ يضمدُ نزفه بالصمت؟ أين كانت الحروفُ حين كانت الروحُ تُقصِّ حوافَّها كي تظل واقفةً رغم الريح؟ علّمني الزمنُ، وهذا الصبرُ الذي صار جدار بيتي وسقفه، أنّ أصدقَ الكلامِ ذاك الذي لا يُسمع، وأثقلَ الاعترافاتِ تلك التي لا تُنطق. أن بعض الحقائق تُدفن في حدقات العيون، في رجفةٍ تمرُّ بلا انتباه، في شهيقٍ عميقٍ يحتال على القلب كي لا ينفجر. هكذا تتهجّى الأرواحُ المجروحة حروفها: بصمتٍ له صوتٌ لا تلتقطه إلا روحٌ مجروحةٌ مثلها.

هاتان العينان... كم من مرةٍ صارتا كتابي المفتوح حين خذلتني اللغة؟ كم من مرةٍ بحتا بما عجز عنه اللسان؟ إنّ فيهما أرشيفًا لكل انكسارٍ وترميمٍ، لكل قِطعةِ حلمٍ ذبل قبل أن يزهر. وحدهما لا

تكذبان. فالعين لا تعرف المجاملة حين يثقلها التعب، ولا تُجيد التزوير حين تزدحم فيها بقايا الوداع. كم ودّعتُ من أمنيةٍ دون نعشٍ أو تأبين؟ كم تركتُ خلف ظهري من تفاصيلَ صغيرةٍ كانت لي وطنًا قبل أن تصير لي منفى؟

ها أنا، أتعلم من وحدتي أن أُربّي في داخلي شجرةً لا تحتاج مطرًا، وأن أصنع من نظراتي جناحين يحومان حول ما تبقى من الحلم. لأنّ الكلمات، حين تخذلها الأصوات، تولد من جديدٍ في النظرات، تعبرنا صامتةً، وتتركنا أكبر مما كنا عليه قبل أن نصمت.

أما صوتي، هذا الهمس الذي يخنقه الحذر كلما همَّ بالعبور، فليس عجزًا كما يتوهم العابرون. إنه شرفةٌ صغيرةٌ تطلُّ على قلبي، لا أفتحها إلا لمن يليق به أن يرى الداخل كما هو، دون زينة ولا التواء. أُفضّل أن أُبقِي حزني حبيسًا في صندوقٍ من صمتٍ مخملي، على أن أُشرِّعه لأعينٍ لا ترى إلا ما يروق لها، وتسمع من الكلام نصفه، وتلوِّن نصفه الآخر بأوهامها. الصمت عندي ليس هزيمة، بل حراسةٌ للنقاء، ووصايةٌ على بقايا الدهشة فيَّ. هو حصني الذي لم تهدمه رياح الفضول ولا أسئلة المارة.

وهذه النبرة التي لا تُسمع، إنما تُحَسُّ كحرارةٍ خفيّة، هي وحدها لغتي حين تخونني الحروف. هي بوحٌ ليس له فمٌ ولا ورقٌ ولا شهود، بوحٌ يفهمه من يعرف كيف ينصت إلى ما وراء الكلام،

من يقرأ ما تخطه رعشة اليد، وما تهمس به نظرةٌ قصيرة. في صمتي موسيقى كاملةٌ لم يُسمح لها أن تُعزَف، قصيدةٌ خجلت من الورق، ونجمةٌ ظلّت معلّقةً في سماء لم تُولد لها قصيدةُ عشق.

كم من الأسرار صارت ضريحًا في مقبرة صمتي؟ كم من الأماني تركتها تتلاشى دون مأتمٍ أو عزاء؟ حياتي كلّها أوراقٌ غير مكتوبة، مواثيقُ صامتة بيني وبين قدرٍ لا يُجيد التفاوض. ميثاقٌ عاهدتُ فيه نفسي على أن أظل واقفةً رغم الريح، أن أظل شاعرةً رغم اليباس، أن أظل أبحث عن معنىً لهذا الوجود الذي قد لا يراه أحد، لكنه في أعماقي بوصلةٌ وحيدةٌ نحو نجاتي.

لقد أسلمتني الوحدة إلى حكمةٍ لم أجدها في زحام الأكتاف والأصوات. فتحت لي بابًا سرّيًا إلى صوتي العميق، ذلك الصدى الذي يهتف في قاع نفسي كلما حاولت الضجيج أن يخرس يقظتي. هذا الصوت وحده من يجيد فك شيفرة صمتي، وحده من يقرأ تراتيل قلبي حين يعجز لساني عن البوح. لم أعد أمد يدي لعابرٍ يملأ فراغي؛ أدركتُ أن الفراغ ليس عطبًا كما أوهموني، بل فضاءٌ شاسعٌ أمدد فيه جناحيَّ كيف أشاء، بلا قيدٍ ولا سقفٍ منخفض.

علّمني هذا الميثاق الصامت الذي وقّعته مع صبري أن الزمن لا يشيخني، بل يُربّيني كأمٍ صبورةٍ تُعيدني إلى ذاتي كل صباح. كل يومٍ يمرّ هو طعنةٌ صغيرة تُقوّي مناعتي ضد الخيبة، ودرسٌ جديدٌ

في فن البقاء واقفةً كجذع شجرةٍ أكلته الريح ولم تأكله. كل تجعيدة على جبيني قصيدةٌ كتبتها الحياة على جسدي، وكل خصلةٍ بيضاء على رأسي آيةٌ شاهدةٌ أن الحكمة لا تولد إلا حين تذوب الزينة.

قالوا: «عانس»! يا لضيق رؤيتهم! كيف يُقاس النقص بروحٍ تسع مجرّةً كاملةً من الأحلام والأفكار والصمت الفاتن؟ كيف تكون ناقصةً من صارت وطنًا لنفسها، لا يهدّدها غيابٌ ولا يُغريها حضورٌ مزيف؟ أنا اكتمالٌ لا يحتاج شاهدًا، نصٌّ لم يقرأه أحد بعد، قصيدةٌ أحتفظ بنسختها الأصلية في درج صدري، لا تسقط منها كلمةٌ إلا حين أشاء. وهذا الصمت الذي يغلّفني ليس فراغًا، بل امتلاءٌ يفيض عمّن حسبوني وحيدةً. هو لغتي حين صمت العالم، وهو دليلٌ أنني لم أعد أعطي لأحدٍ مفاتيح روحي.

ليست وحدتي قيدًا يطوّق جناحيّ، بل هي الجناح الذي يعلو بي فوق ضجيجهم، فوق الألسنة المسمومة التي تحترف إصدار الأحكام. بها أُحلق بعيدًا عن أفواهٍ لا تعرف إلا أن تلوكك حين تكون حاضرًا، وتنسج حولك أسلاكًا شائكة من شفقةٍ تُدمي كبرياءك. وحدتي نسمةٌ حُرّة، عاصفةٌ لا تلتفت للخريطة، ميثاقي معها سرٌ قديمٌ بيني وبين حريتي، لا يلوثه توقيع ولا يشترطه شاهد.

كم من الأحلام شُيّدت فوق شفاهٍ هشةٍ ثم هوت عند أول هبة ريح؟ كم من العهود كانت زينةً مؤقتة، تتبخر إذا ما اصطدمت

بحرارة الحقيقة؟ تعلّمتُ أن لا أثق إلا بصمتٍ لا يخون، وبنظرةٍ لا تتلعثم، وبإيماءةٍ تقول ما تعجز عنه حشود الحروف. الصمت مرآتي الأصدق، ركني الذي أكنس فيه شوائب اللغة، وأعيد فيه طلاء روحي بلونها الأصلي، دون رتوشٍ مستعارة.

هذا الميثاق، الذي خُطّ بحبرٍ غير مرئي في تجاويف نفسي، هو دليلي حين تضلّني خرائط الآخرين. هو قنديلي حين يخفت بريق الكلام. وحده يأخذ بيدي إلى حيث أكون أنا فقط، بلا زوائد ولا أقنعة ولا أكتاف أستند إليها كي لا أسقط. لا يعنيني إن رأوا طريقي يقودني إلى «لا مكان»؛ فأنا وحدي أعرف أنه يقودني إلى تلك المساحة المقدّسة في صدري، حيث أنا حقيقية، ونقية، وحيث كل شيء آخر يتلاشى عند أعتاب ذاتٍ قررت أن تكتفي بذاتها.

نظرات عينيّ الآن تشعّ بيقينٍ لا يقبل المساومة؛ يقين امرأةٍ اكتشفت أن خلاصها ليس في يد أحد، بل في يدها وحدها، في قدرتها على أن تصمد حين ينهار كل شيء، على أن تهدهد وحدتها كطفلٍ يتيمٍ وتمنحه صدرًا دافئًا من الرضا. ذلك الصوت الذي كان يتردّد في حنجرتي ويختنق قبل أن يولد، صار الآن يتنفّس في أعماقي، صار صداه أصدق من الكلام، صار همسي عقدًا أبديًّا مع نفسي، مع حقيقتي التي لم يعترف بها أحد سواي.

في نبرة الصمت تلك، في فراغٍ يفيض بالكلمات المؤجلة، أجد دفاتري السرّية: القصص التي خبّأتها في صدري، الأغنيات التي لم تجد لحنها بعد، الأحلام التي ظلّت ترتعد خلف ستائر الخوف. كلّها تنبض الآن في جوفي، تتآلف في سكوني، تنتظر أن أُخرجها يومًا على شكل نصٍّ أو لوحةٍ أو حتى ضحكةٍ صافيةٍ أسكبها على وجه هذا العالم القاسي.

هذا الميثاق الذي أبرمته في خفاء الروح، هو جُنّتي التي لا يطرقها فضول، ولا تخدشها ألسنة الناس. أنا امرأةٌ نفضت عن كاهلها تهمة «العنوسة»، امرأةٌ صنعت من وحدتها وطنًا لها وحدها، وكتبت بدمعها معاهدة حرية لا توقيع عليها إلا نبضها. وما أوسع صدر من أدرك أن الكفاية في الذات أعظم كنزٍ يُخبّأ في تجاويف الصمت.

أما تلك اللحظة التي ظنّها البعض عابرة، فلم تكن سوى فجوةٍ مقدّسةٍ في شريط الوقت؛ لحظةٌ خالفت قوانين الجاذبية والأقدار، تجرّدت من جاذبية أرضٍ تشدّها إلى واقعٍ جافٍّ، ومن سماءٍ تهبط عليها بأحكامٍ لا تقبل الاستئناف. هناك، في ذلك الفراغ المعلّق، تجرّأت روحها على أن تعترف بما كتمته دهورًا: أحلامٌ خُطّت بالحبر الخفيّ على جدار صدرها، أوهامٌ حيكت بخيوطٍ من الانتظار المالح، من خيباتٍ خاطبتها كأصدقاءٍ عتيقين. كانت تلك

الأوهام قوارب ورقيةً هشّةً تطلقها روحها اليقظة في محيطٍ بلا ضفاف، فقط لتُثبت أن اليأس أحيانًا يُنبت جناحين للنجاة، حتى لو لم يُكتب لتلك القوارب أن تصل أبدًا.

كان الهواء في تلك اللحظة أثقل من أن يُستوعَب: ثِقله ليس في رطوبةٍ خانقةٍ، ولا في غبارٍ يستوطن الأركان، بل في تراكم الأعوام في صدرها كسعالٍ مؤجل، كأنفاسٍ حُبست في تجاعيد القلب ولم تجد سبيلها للبوح. كلّ نغمةٍ مبتورةٍ من ماضيها، كلّ حُلمٍ اختنق في رحم السنين، كانت تعزف نشيدًا مكتومًا في فراغها، نشيدًا لم يكتمل... لكنه كان كافيًا ليذكّرها أنها ما زالت على قيد الحلم، وأنها وحدها صاحبة الخاتمة.

كانا يتنفسان معًا النسمة ذاتها، أنا وهذا الظلّ الذي يسكنني، ذلك «أنا» الخفيّ الذي يقرأني قبل أن أنطق، ويفكّ طلاسم صمتي قبل أن أفكّها بنفسي. لكن ذلك النفس لم يكن مجرّد هواءٍ عابر، بل كان محمّلًا بأصداءٍ لم نبح بها قط، برائحة رسائلٍ لم تصل، وببقايا خطواتٍ خفيّةٍ مرّت فوق ذاكرةٍ تحترف التمويه، لكنها تخبئ تحت رمادها جمرًا لا يخمد. أشياء تشبه كنوزًا دفنتها الحياة على عجلٍ تحت رمال الغفلة، ثم سمحت لها أن تلمع أحيانًا كبريقٍ خاطف، كفكرةٍ مباغتةٍ تذكّر القلب بما توهّم أنه ضاع إلى غير رجعة.

من دفاتر القلب التي تحوّلت صفحاتها إلى أوراقٍ باهتةٍ، تساقطت كأجنحة خريفٍ ذابلٍ، من كلماتٍ كتبت على عجلٍ ذات لهفةٍ ثم طويت إلى الأبدٍ، من خطوط الوجع المحفورة بحبرٍ صامتٍ يستعصي على الممحاة، وجعٍ يقف عالقًا بين مرارة البارحة وهمس الغد، كوشمٍ يزيد وضوحًا كلما شاخت السنوات. من أفراحٍ خاطفةٍ لم تترك وراءها إلا صدىً يتلاشى على حواف الذاكرة، كضحكةٍ خطفها الغياب من فمِ طفلٍ، وبقي طيفها معلّقًا في الأفق كأملٍ لا يعرف كيف يموت. من رجاءٍ يرفض أن ينطفئ، يتجدد مع كل فجرٍ جديدٍ، وكأنه وعدٌ أبديٌّ مع شمسٍ قد لا تشرق أبدًا، ومع ذلك نبقى، نربط أحلامنا بخيوطها الرفيعة، كمن يربط قلبه بوردةٍ على حافة العاصفة.

كم مرةً شاركته هذا النفس؟ وكم مرةً تلوّنت الحكايات في كل شهيقٍ وزفير؟ حكاياتٌ لم تنطق بها الشفاه يومًا، وأخرى لفظتها الحقيقة قبل أن تولد مكتملةً، كأجنةٍ اختنقت في رحم الانتظار، لم تأتِ إلى الحياة إلا لتثبت أن بعض الأحلام لا يليق بها أن ترى النور. لحظةٌ واحدةٌ فقط، لحظةٌ تُكسر فيها كل الحواجز بين جسدٍ متعبٍ وروحٍ تعبت من الأصفاد، لحظةٌ تتجاوز الزمان بأحقاده، والفصول بأرقامها العقيمة، والوجوه بأقنعتها الهشّة التي تدّعي الضحك لتخفي محيطًا من الدموع.

أنا، التي أقامت مملكة صبرٍ لا يقترب منها أحد، أعلم جيّدًا أن اللحظات العابرة وحدها هي التي تفضح المطمور، وتجرّد الروح من زينتها الكاذبة. لحظاتٌ لا أرتدي فيها عباءة الشجاعة الزائفة، ولا أختبئ خلف حائط اللامبالاة الذي أشيده كل صباحٍ لأبدو قويةً أمام العيون التي تراقبني كذئابٍ متربصة. هنا، في فراغٍ معزولٍ عن ضجيج الأقدام ولهاث الكلام، ألتقي بفتاتي الأولى، تلك الصغيرة التي لم تتلوث بمرارة التجربة، ولم تخنها الأحلام، تلك التي ما زالت تؤمن أن الخواتيم السعيدة ليست حكرًا على القصص المزوّقة، وأن الزمن مهما قسا، لا يملك أن ينتزع منها معجزتها الأخيرة: أن تبقى حيّةً، تحلم، رغم كل ما كان.

لكن ما المعجزة التي أرجوها الآن؟ أهي يدٌ خفيّةٌ تنتشلني من قاع هذا الانتظار الذي صار أعمق من البحر؟ أم همسةٌ واحدةٌ توقظ في قلبي ما خدرته الوحدة حين نصبت خيامها داخلي؟ أم لعلّ المعجزة كلّها تختبئ في لحظة يقظةٍ مفاجئة، أُدرك فيها أن الأمل ليس وعدًا خارجًا عني، بل شُعلةٌ صغيرةٌ ترفض أن تنطفئ في صدري، مهما ضاق حولها الفضاء؟

الأمل... هذا الكائن الشرس الذي يتغذّى على بقايا الأحلام المهجورة، ويرتوي من دموعٍ قديمةٍ جفّت قبل أن تجد من يمسحها. ينام على سرير من الخيبات ولا يموت، بل ينبعث في كل

شهيقٍ أختطفه من فمِ الوحدة، في كل زفرةٍ أُطلقها مثقلةً بأسئلتي المؤجلة، وكأن روحي تتلو على نفسها قصائد النجاة في عتمةٍ لا يسمع صداها سواها.

هنا، في هذا الركن الذي اخترته أو اختارني، تعلّمت أن أكون تلميذةً مطيعةً للصمت، أن أصغي لصوتي الداخلي حين يخبرني أن للكلمات ضرائب لا تُدفع إلا بقلوبٍ مهشّمة. تعلّمت أن الصمت أحيانًا أصدق من ألف جملةٍ مشتهاة، وأن الكلام حين يأتي متأخرًا لا يرمّم شيئًا.

أراقب العالم من نافذةٍ معتمةٍ، كلما مررت بكفٍّ روحي على زجاجها زاد البخار عنادًا، وكأنها نافذةٌ لا تُفتح إلا على داخلي. داخلي الذي صار متاهةً من الأسئلة والظنون، من الأفكار التي تتناسل ولا تموت، من المشاعر التي تتقاتل مثل أمواجٍ فقدت شطآنها.

وحدتي لم تكن فراغًا يومًا، بل كانت ازدحامًا خانقًا لكل ما عشته وما لم أعشه. حضورٌ ثقيلٌ يُقيم معي في كل زاويةٍ من زوايا هذا البيت الذي صار مقبرةً صغيرةً لحكاياتٍ لم تولد. أنظر حولي؛ فأرى ذاكرةً مُبعثرةً في الأشياء البسيطة: في الكنبة العتيقة التي شبعت من همساتي، ومن ارتعاش أصابعي حين أُعيد ترتيب فوضاها لأوهم نفسي بأنني ما زلت أسيطر على شيء. في هذا

الكوب الفخاري الذي صار شاهدًا على مئات الأكواب المرّة، التي صبغت أيامي بطعمٍ يشبه نكهتي: مرةٌ كقهوةٍ تُترَك لتبرد فوق طاولةٍ لا ينتظر أحدٌ سواي أن يمدّ يده إليها.

هذه أنا... سيّدة الصبر التي علّمتها الوحدة كيف تحبّ صمتها أكثر من ضجيجٍ لا يسمعه أحد.

صار الصبر رفيقي الأبدي، صديقي الذي لم يخذلني رغم ثقل الأعباء التي وضعها على كتفيّ. كثيرًا ما أتساءل: هل هو فعلًا فضيلة تستحق الاحتفاء، أم هو مجرد عادةٍ قاتمة أُجبرت عليها، طريقةٌ للعيش مع ألمٍ لا مفر منه؟ هل هو المفتاح الذي يفتح أبواب الفرج المحتملة، أم أنه القيد الذي يحكم إغلاق روحي، ويغلق كل نوافذ الحياة أمامي؟

أنظر إلى مرآتي فلا أجد فيها تجاعيد الزمن وحدها، بل أرى خطوط حكاياتي، خطوطًا كأنها جغرافيا قلبٍ عاش الهزائم والصمود، كل واحدة منها تروي قصة خيبةٍ دفنتها في صمت، وأملٍ تبخر قبل أن يزهر، ودمعةٍ لم تنزل يومًا لكنها غمرت داخلي سرًا. عيناي، تلك النوافذ المتعبة، تحكي ترقبًا بلا نهاية، أحلامًا معلقةً في فضاءٍ لا يعرف الرحمة، كروحٍ هائمةٍ توقفت عند محطة لا رجوع منها.

رسمتُ في خيالي آلاف السيناريوهات، نسجتُ قصصًا من حياةٍ لم أَعِشها: امرأة تزوجت، وأنجبت، وعاشت بسعادة عادية، وناعمة، وبلا مآسٍ. لكنّ قدري كتب لي مسارًا متعرجًا، بلا قواعد أو منطق، فهل كان ذلك نصيبي المكتوب منذ البداية؟ أم أنني بصماتي المترددة، وخوفي الصامت، كنت أرسم لنفسي هذه الرحلة الملتوية؟

يقولون إن العمر أرقام لا أكثر، لكنني أعرف أن سنواتي كانت حكايات من الانكسارات، ودروسًا قاسية، أثقلت روحي أكثر مما أثقلت جلدي. نعم، اكتسبت حكمة، لكن بثمنٍ غالٍ: الوحدة التي تملأ تفاصيل حياتي، تغلفها برقة حزنٍ شفافٍ لا يراه سوى قلبي، ذلك الحارس الوحيد لأسراري.

أحلم أحيانًا بالرحيل، ليس كخروجٍ من مكانٍ إلى آخر، بل كميلادٍ جديد لنفسي في فضاءٍ لا يعرفني فيه أحد، حيث لا تاريخ يلاحقني ولا وجوه تذكّرني بما كنتُ. هناك، أُحرر روحي من ثقل الماضي، وأغوص في حياةٍ لم تخطها خطواتي بعد، حياة تتنفس الحرية وتنسى قيود الألم القديم. لكنني أعلم أن هذا الحلم ما هو إلا وهمٌ آخر يُضاف إلى قائمة أحلامي المؤجلة، فالرحيل الحقيقي ليس تغيير العنوان، بل هروب من ذاتٍ تلتصق بها جلودها القديمة كوشاح لا يُنزع.

وإذا ما توقفت هذه اللحظة عن الرحيل، إذا ظلّ الهواء محملًا بحكاياتنا، تدور عقارب الساعة دون توقف في حلقة أبدية من اللازمان، في تلك الأبدية، حيث لا تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل جدران، قد نجد السلوى، حيث تختفي كلمات الألم: «عانس»، «انتظار»، «خيبة». هناك، ألتقي بنسخة أخرى مني، نسخة بلا جراح، بلا نكبات، نسخة عاشت أحلامها حتى النهاية، ولم تعرف مرارة الصبر.

لكن الحياة لا تنتظر، واللحظات تتسرب من بين أصابعنا كحبات رمل دافئة، تترك خلفها بصمة لا تمحوها أي ريح أو زمن. وهكذا تبقى روحي في حضرة الصبر، تتنفس هواءً مُشحونًا بأمسٍ واليوم وغدٍ، تتأمل اللحظات المنفردة التي صارت ملاذي الأخير، حصني المنيع، قبر أحلامي ومهد أوهامي. أدركت أن هذا البيت ليس إلا حضرة الصبر، وقلبي الذي لا يزال ينبض، وإن خفتت نبضاته وصارت كهمسات الذكريات التي تبتعد ولا تزول.

وحدي أنا، أحصي أنفاس السنوات التي انسابت من كفي كالرمل، كل حبة منها تحمل خيبةً مؤجلة، لحنًا ظلّ معلقًا في حنجرة الصمت، وربيعًا وُعدتُ به ولم يأتِ. هناك، في ركنٍ منسيٍّ من ذاكرتي، يتكئ الغياب على حائطٍ باردٍ من الصمت، وتتمايل صورٌ باهتةٌ لأرواحٍ عبرتني كأطيافٍ عابرة، وكلماتٍ وُلدت همسًا

في أذن القدر ثم اندثرت قبل أن تنضج. أنا هنا، في بيتٍ من صبرٍ وحجر، حيث الجدران تحفظ أسرار وحدتي، والنوافذ تحدق في أفقٍ يخبئ خلفه فصولًا لم يُكتب لها اسم. أيُّ قدرٍ هذا الذي يقودني على ممرٍّ من انتظارٍ طويلٍ، على حافة عزلةٍ يتراقص فيها رفات أحلامٍ وئِدت قبل ميلادها؟

كم سُحقتُ تحت حجر تلك الكلمة: «العانس». تُلقى ببرودٍ كحجرٍ في بئرٍ ساكنةٍ، فتوقظ في الروح دوائر ألمٍ لا تنتهي. أجهل، أهو عيبٌ فيَّ أم قدرٌ نقشوه على جبين امرأةٍ لم تقبل أن تكون نصفَ حلّ، امرأةٍ آمنت بأن الحب لا يُعقد كصفقةٍ في أسواق المساومة، ولا يُرهن برباطٍ يبرّده الصمت. كم من مرةٍ جلستُ قبالة مرآتي، أتفحص خرائط الزمن التي ارتسمت على ملامحي، أسأل نفسي: أكان هذا العمر سرابًا؟ أم أن الوحدة كانت ضريبة الحلم الكبير؟ أكانت كل تلك الأمنيات أضغاث يقظةٍ تسكن ضميرًا عطشًا في صحراء القلب؟

ما زلتُ أذكر الليالي حين كانت بيوت الجيران تعمر بالأهازيج، حين كانت أصوات الزغاريد تتسلل إلى وحدتي كخناجر تُدمي صمتي. أرى الفتيات يتراقصن بين ضحكاتٍ ودبكاتٍ ونذورٍ من الأمنيات المنسوجة على أوتار الأغاني. أراقب من بعيد، كشاهدةٍ على حفلٍ كُتب أن أكون خارج مواعيده. هل هذا قدري؟ أن أكون

متفرجةً على مسرحٍ يعجّ بالفرح والحب والدفء؟ أم أنني اخترتُ هذا الممر وحدي، درب الانفراد الذي لا يشبه أحدًا، لأنني لم أجد في زحام الأجساد روحًا لها نفس تردد نبضي، روحًا تقرأ في صمتي قصيدتها الخاصة؟

ربما كان هذا البيت الذي أسميته بيت الصبر امتدادًا آخر لجسدي العاري من الأوهام. هنا، لا يسكنني بشر، بل تسكنني ذكرياتٌ تتوارى في الزوايا مثل أطيافٍ تخشى الضوء. كل قطعةٍ في هذا المكان تحفظ سرًّا، كل جدارٍ يُخفي حكايةً لم يُكملها أحد. تلك الأريكة البالية كانت شاهدةً على بكائي الطويل، على صمتي الثقيل، على لحظاتٍ تقشّر فيها قلبي كقشرةِ برتقالةٍ جافة. وذلك الكتابُ المفتوح على صفحةٍ نائمةٍ منذ أعوام، يحمل كلماتٍ لم يجرؤ أحدٌ أن يفكّ طلاسمها. حياتي كلها باتت تشبه كتابًا مغبرًّا تتصفحه الريح وحدها، بلا قارئٍ يليق بوجع حروفه.

كثيرًا ما سألتني نفسي: ما الحب؟ أهو تلك الخدعة التي نسجتها الروايات وألصقتها بأحلام الفتيات؟ أهو عصفورٌ يحطّ على غصن القلب، فيجعله يرفرف كأن لا جاذبية له؟ أم هو حاجةٌ بدائيةٌ، غريزةٌ تتستّر بلبوس الشعر لتُخفي بُعدها الحيواني؟ وإن كان كذلك، فلماذا إذن كل هذا الوجع حين يغيب؟ لماذا نشعر أننا نُنتزع من أطراف الروح إن فشلنا في القبض عليه؟ لعل الحب،

كما أفهمه، ليس سوى ميثاقٍ غير مكتوبٍ بين روحين هاربتين من ضجيج الدنيا، تتفقان سرًّا على أن تتنفّسا نفس النَفَس، وأن تحلما الحلم ذاته دون أن يوقظهما أحد.

وكم حلمتُ بذلك الميثاق: أن تلامس روحي روحًا أخرى، تفهم صمتي، وتحسن قراءة ما لم أقله قط، فتفتّش في داخلي عن نفسي التي أجهلها. هل هي أمنيةٌ متأخرةٌ، باهظة الثمن؟ ربما. أرى الفصول تمرّ عليّ كضيوفٍ غرباء، الربيع يجيء ويترك خلفه رائحة زهرٍ لم ألمسه، والصيف يُشعل حرارةً لا تطفئها شرفات البيت، والخريف يبعثر أوراق الشجر كأحلامٍ متعبةٍ تتساقط صامتة، ثم يأتي الشتاء ببرودته ليذكّرني ببرودة الوحدة حين تتوسّد قلبي.

في هذا الفضاء الخاص، حيث الصمت يُعيد لي صوتي، أسأل نفسي: هل حقًا لهذا الصبر معنى؟ هل من غايةٍ لانتظارٍ يطول حتى يذوب في جلدي؟ أم أنني دميةٌ في يد زمنٍ أعمي، يشدّ خيوطي كيفما شاء؟ ربما... ربما يكون الصبر هو الميثاق الحقيقي. عهدٌ سريٌّ بيني وبين تلك التي تسكنني. عهدٌ أن أبقى واقفةً في وجه الريح، أن أُمسك بآخر خيطٍ من أملٍ صغير، كشعلةٍ خافتةٍ تحرس عتمتي من أن تبتلعني كلّها.

أحيانًا، أجدني أُحادث الجدران كما لو كانت صدرًا آخر يحتويني. أبثُّها خيباتي الصغيرة وأسراري التي ضاقت بها روحي.

هذه الجدران وحدها لم تمنحني لقبًا مشؤومًا، لم تسألني في خجلٍ خبيث: لماذا لم تأتي بكَفَنِ الزفاف؟ لم تُدلِ عليَّ بأصابع الاتهام، ولم تلوك سيرتي في مجالس النساء. هي الوحيدة التي تسمعني حتى النهاية، تصغي لأنين الوحدة، وتردّد صدى حزني بصمتٍ كريم، كأنها تعاهدني ألا تبوح. ربما يكون هذا شكلًا من أشكال الحب: حبٌّ لا يحتاج إلى جسدين، بل إلى روحٍ تبحث عن كتفٍ ولو كان جدارًا.

أُفكر في صديقتي، تلك التي حوّلت الكلمات إلى خناجر من حرير. كيف نثرت حروفها على جسد اللغة، وكيف جعلت من المرأة أسطورةً تمشي في شوارع الخيبة ولا تنكسر. كم تمنيتُ لو كان لي من لغتها ما يشبه جناحًا يرفعني عن هذا الأرض الباردة، عن أرضٍ تزنُ المرأة بوزن خاتم في يد رجل. ليتها تعلم أن كلماتها صارت لنا وطنًا بديلًا، ومرآةً نرى فيها نساءً يشبهننا، لا يعاب عليهن أنهن أحببن وحدتهن أكثر من حبٍّ ملوثٍ بالشفقة.

وهذا النص، هذا البوح المسكوب كدمعٍ حبيس، ليس إلا محاولةً لفك أقفال صمتي الطويل. هو نقرٌ خفيفٌ على بابٍ موصدٍ في الداخل، بابٍ أخشى إن فتحته أن أتهشم. كل جملةٍ هنا نثرتها كأني أنثر ملحًا على جرحٍ قديمٍ لأتأكد أنه ما زال يؤلمني كي لا أنسى أنني حية. كل كلمةٍ هي رجاءٌ صامتٌ بأن يطرق بابي يومًا

ذاك الميثاق الذي لا يشبه صفقات الزواج الباردة. ميثاقٌ ينفض الغبار عن روحي، ويعيد ترتيب شتات الأمل في قلبي.

أتساءل: أهذا البيت هو بيتنا في حضرة الصبر؟ أم أن الصبر هو الذي شيد هذا البيت حولي كحصنٍ من عزلة؟ لا أملك يقينًا سوى أنني هنا، معلّقةٌ كنجمةٍ كسولةٍ على حافة الفجر، أراهن على بصيصٍ خافتٍ في آخر النفق. أنتظر يدًا تمتدّ من غيمةٍ عابرة، أو همسًا يوقظ قلبًا أرهقه السهر. فالحياة، ما هي إلا طابورٌ من الانتظارات المؤجلة، سلسلةُ أبوابٍ نطرقها بقبضةٍ من أمل، ونحلم أن تفتح لنا في يومٍ من الأيام سماءً لا سقف لها.

«تلك اللحظة لم تكن مجرد زمنٍ عابرٍ توقّف فيه عقرب الساعة عن عدّ الدقائق، بل كانت دهشةً كبرى تجرّدت فيها الأشياء من معناها، وتلاشت فيها الأحكام كغبارٍ عصيٍّ على الثبات. كل الأثقال التي خَبأتها الأيام تحت جلدي، كل ما أُغلق عليَّ من خيباتٍ ونهاياتٍ معلّقة، صار في تلك اللحظة شفافا، وهشًّا كأنفاسٍ تتبدّد قبل أن يدركها النطق. ذلك الحضور الذي لا يستعير لغته من الأفواه، ولا يستعير يقينه من التصفيق، حضورٌ يكفي نفسه بنفسه، صامتٌ كيقينٍ لا يحتاج برهانًا.

أُعيد قراءة هذه الاعترافات المخبّأة بين السطور، أضع أذني على صدر النص كمن يصغي لنبضٍ يخصّه وحده. أيّ سكوتٍ

ذاك الذي يقدر أن يُسكِتَ العالَم ليُبقي على همس الروح يقِظًا؟ هنا، في هذا البيت الذي أسميته بيت الصبر، لا جدرانَ لي ولا سقفٌ يحدُّ أمنياتي. هنا، يذوب الإسمنت في دمي، يصبح الحائط رئةً أتنفّس منها وحدتي. أحصي تسرب العمر من بين أصابعي كقطراتِ زيتٍ مُعتّقٍ تحتفظ بعبق حكاياتٍ لم تكتمل، بأنغامٍ لم تجد عازفها، ويقينٍ تاه بين سؤالٍ وجواب.

«عانس»... كلمةٌ أُطلقت كرصاصةٍ طائشةٍ لا تعرف من تقتل. كم مرةً دوّت في رأسي كطنين دبورٍ لا يعرف طريقًا للخروج؟ قالوها وكأنها تهمةٌ لا تسقطها دموعُ التبرير. لكنّي أنا، هذه المرأة التي ترى تجاعيدها خرائطَ لأرضٍ لم تطأها قدمٌ سواها، لا تخجل من فراغ خاتمٍ لم يلتفّ حول إصبعها. رفضت أن أكون شاهدة زورٍ على جسدٍ يباع ويُشرى في سوقٍ تُديره أعرافٌ بائسة. أردتُ روحًا تبرم معي عهدًا، لا ورقةً تنتهي بتوقيعٍ وشهودٍ غرباء.

أتذكّر ليالي الوحدة التي كانت تطول حدّ التماهي مع الليل نفسه. كان القمر جليسي الوحيد، أقتسم معه أسراري وأُلقّنه أحلامًا لم تجد رحمًا يولدها. كنت أسمع ضجيج الأفراح يثقب جدار غرفتي، كأن الزغاريد سهامٌ صغيرةٌ تستقر في صدري بلا رحمة. كنت أرى الفتيات ينذرن قلوبهن لأقدارٍ جاهزة، يتبادلن خواتم من ذهبٍ ووعودًا من دخان، بينما أنا شاهدةٌ من مقعدٍ بعيد، لا نصيب لي من هذه المسرحية سوى أن أُصفّق بصمتٍ للبطلات.

أُسائل نفسي الآن: هل كان عُزوفي هذا شغبًا منّي أم امتحانًا كُتب عليّ؟ أكان عنادي لعنةً أم هبةً؟ أكان صمتي قيدًا أم حريةً لم أعلم كيف أروضها؟ كل ما أدركه أنني ظللت هنا، في بيت الصبر هذا، شاهدةً على نفسي، مؤمنةً أن ما يُسمّى نصيبًا لا يُشترى ولا يُورَّث، بل يُولد من روحٍ تلتقي بروحٍ أخرى في غفلةٍ من عيونِ العالَم.

كم من مرةٍ تمنيّتُ أن أخلع عن قلبي عباءة التوقّع، أن أترك للأشياء حرية أن تكون بلا حكمٍ مسبق، بلا قيدٍ يُحاصر ما تبقّى من دهشتي. لطالما حلمتُ بلحظةٍ ينسحب فيها الضجيج من رأسي، وتذوب فيها خيباتي القديمة كشمعةٍ في ركنٍ معتمٍ من الذاكرة، وتنسدل على روحي سكينةٌ لا تُفسَّر. حضورٌ يجيء بلا مقدّمات، لا يسألني عن ماضيَّ ولا عن خطايا صمتي الطويل، حضورٌ يرمّم ما أفسده الغياب، ويُعيد ترتيب فوضاي بيدين خفيّتين.

أتساءل أحيانًا: أهو ظلّ حبٍّ تاه عنّي في دربٍ مزدحم؟ أم ظلّ نفسي التي أضعتها بين الوجوه بحثًا عن مأوى؟ لعلها تلك اللحظة الوحيدة التي لا تسعها الأيّام ولا يطالها النسيان، لحظةٌ تتوق فيها الروح إلى شمسٍ لم تعتدها النوافذ المغلقة.

في بيتي هذا الذي أسميته— ساخرًا ومؤمنًا في آنٍ واحد — «بيتنا في حضرة الصبر»، كل ركنٍ يشهد عليَّ: هنا تركتُ أمنيةً على مقعدٍ خاوٍ، وهناك خبأتُ دمعةً في وسادةٍ تعرف اسمي أكثر من كل

الذين مرّوا. حتى المرآة العتيقة على الجدار، تلك التي أعادت إليّ وجهي في كل الفصول، لم تجرؤ مرةً على أن تعكس لي روحي. روحي التي طالما ظننتُها هناك، معلّقةً كقصيدةٍ على حبل الغياب، تنتظر من يفكّ طلاسمها ويعلّقها في صدره كتعويذةٍ ضدّ النسيان.

كثيرًا ما أهرب إلى كتبٍ تفتح لي أبواب الأسئلة، كمن ينقّب عن ماءٍ في صحراءٍ مأهولةٍ بالظمأ. أبحث عن معنى للسعادة، عن جملةٍ تُطمئن قلبي بأن ما أعيشه ليس عبثًا. أبحث عن قناعةٍ تحيل الوحدة إلى وطن، وعن حكمةٍ تقول إن الرضا حصنُ الأرواح العالية. لكنني في آخر الليل، أظلُّ تلك المرأة التي ما زال قلبها يراهن على غيمةٍ لم تولد، على يدٍ تمتدّ فجأةً لتوقظ أصابعي من رعشة الانتظار.

أحيانًا أسأل نفسي: هل الحبُّ قدرٌ مكتوبٌ منذ الأزل، أم قرارٌ نركض إليه بكامل هشاشتنا؟ هل يولد كعاصفةٍ، أم يُربّى كطفلٍ نخاف عليه من الريح؟ في الروايات التي قرأتها، الحبُّ ليس مجرّد قلبين يلتقيان صدفةً في شارعٍ مزدحم، بل هو زلزالٌ يُعيد بناء الخرائط في داخلنا، ويمنحنا اسمًا جديدًا في دفتر العمر. وكم تمنّيتُ حبًّا لا يُلزمنا بتبريرٍ ولا بعباراتٍ محفوظةٍ. حبًّا لا يُفتّش في جيوبنا عن تراخيص ولا عن خطايا، حبًّا يأتي عاريًا من الخوف.

وحده هذا البيت، حصنٌ وسجنٌ في آنٍ معًا. جدرانه تحرسني من فوضى الخارج، لكنها تحبسني في صمتي. أطلُّ أحيانًا من شرفةٍ لا وجود لها، أتسلل ببصري إلى مدينةٍ غافيةٍ في العتمة، أراها تنبض بأصواتٍ لا تصلني: ضحكاتٌ، وشجاراتٌ، واعترافاتٌ خافتةٌ على وسائد دافئة. وأنا، هنا، ظلٌّ على حافة الستار، أراقب العرض دون أن يُمنح لي مقعدٌ على الخشبة. وكأن دوري في هذه الحياة أن أبقى شاهدةً فقط، شاهدةً على كل شيءٍ إلا نفسي.

كم هو ثقيلٌ هذا العبء الذي يضعه المجتمع فوق كتفي امرأةٍ خُلقت لتكون حرّةً كنسمةٍ عصيّةٍ على الترويض. أن تُقاس حياتي بعدد خواتم الزواج في أصابعي، بعدد الأسماء التي تُنادى بها أمًّا، بعدد الصلوات التي يرفعها آخرون كي أُعلن انتصاري وفق مقاييسهم وحدهم. أيُعقل أن تختزل روحٌ في عقدٍ وخاتمٍ وصرخة مولودٍ جديد؟ كأننا لا نُمنح حقّ أن نكون ذاتًا تمشي على الأرض بلا شروطٍ مسبقةٍ ولا تعاريف تقيّد خطانا.

ها أنا هنا، في حضرة الصبر، أتعلّم كيف أصادق هذا الانتظار الذي لا اسم له. أنتظر اللاشيء، وأزرع في ظلال روحي ألف احتمالٍ لكل شيء. أُشيّد داخلي نوافذ تُطلُّ على حدائق لم تأتِ بعد، أُربّي عصافير تغرّد في صدري رغم الصمت. لحظةٌ أرجوها: لحظةٌ تُسقط عنّي أسئلةً طال أمدها، تُخرس ذلك الصوت الخفيّ

الذي يحثّني على أن أُبرّر اختياراتي أمام محكمةٍ وهميةٍ لا وجود لها إلا في عيون من يراقبونني عن بعد.

أكتبُ لأُعيد ترتيب وحدتي على الورق، لأجعل من الصمت فلسفةً لا تُخيفني، بل تحتويني. أكتب كي أخلع عن اسمي كل لقبٍ ثقيل، وأُعرّفني بنفسي لنفسي. بين حروفٍ تتسلّل من روحي كجدائل ضوءٍ خجولة، أُعلن أنني أنثى لم تُهزم بعد، لم يروِها زمنٌ عابرٌ ولا وصايةٌ باردة. هنا، حيث يتّسع البحر في صدري، أُخبّئ حكاياتٍ لم تجد من يصغي لها بعد، وأغنياتٍ تنتظر أوتارًا لا تخشى العزف على وترٍ منفرد.

كل انكسارٍ انحنى بي، كل دمعةٍ صعدت من أعماقي لتسقي عطش وحدتي، كل وجعٍ اخترته حجابًا بيني وبين سذاجة الأحلام... كان درسي الأجمل في أبجدية الصبر. ليس الصبر عندي حبلًا مشدودًا بين شرفةِ أملٍ ووعدٍ بعيد، بل هو فنٌ خفيٌّ يصقل أرواحنا حتى وهي تتشقق، ويعلّمنا كيف نواصل الوقوف حين تُغلق في وجوهنا الأبواب. هو يقينٌ يزهر في حقلٍ قاحل، يذكّرني أن العسر ليس سدًّا بل ممرّ، وأن العتمة، مهما طالت، تنحني أمام ضوءٍ لا يرى إلا بعين القلب.

أتساءل بيني وبين صفحاتي: هل سيأتيني ذاك الحضور الذي لا يحتاج إلى إثبات؟ ذاك النبض الهادئ الذي يُسكت فوضى

الأسئلة، ويعلّق الزمن بين يديه كساعةٍ عاطلة؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أنني هنا، على هذه العتبة بين الأمل والغياب، أعيش لأن الكتابة وحدها تضمن لي ألا أُمحى، أبحث لأن روحي خلقت لتتوق، وأتنفس لأن الحياة -مهما ضاقت- جديرة بأن تُعاش كقصيدةٍ لا تكتمل أبدًا.

وفي النهاية، أعود إلى تلك الجملة الأولى التي كتبتها يومًا لأطمئن نفسي بها: أن هناك لحظةً ينتفي فيها المعنى من كل ما ظنناه مهمًا، لحظةً يُغسل فيها القلب من أثقال الخيبات، ويغدو الحضور فيها أعظم من أي كلمةٍ تُقال. ربما ستأتي تلك اللحظة متأخرةً، لكنني سأظل أحرس شعلتها كشمعةٍ في قلب عاصف. سأظل أكتبها، أرتّقها من خيالي، وأعلقها فوق سريري كأيقونةٍ سريةٍ لا يراها سواي.

وحين يلتقي اثنان في صمتٍ كامل، حين تصمت الألسنة لتتكلم العيون، يصبح النظر لغةً أصدق من أي اعترافٍ مكتوب. نظرةٌ تتجاوز حدود الوجه، تتسلل إلى أرواحٍ أنهكها الانتظار لكنها ما زالت تعرف كيف تُسامح وكيف تُحب بلا توقيعٍ ولا شهود. في ذلك التماس، يكتب القلب ألف حكايةٍ من دون حبر، ألف غفرانٍ من دون شروط، وكل قصةٍ تفتح بابًا لحياةٍ لم تولد بعد.

كان في تلك اللحظة شيء يشبه الولادة الجديدة، بداية لفصل آخر من قصة لم تُكتب نهايتها بعد، قصة تجمع بين الجرح والشفاء، بين الخوف والجرأة، بين الفقد والعودة. كانا واقفين هناك، وكأنهما يشهدان على عهدٍ جديد بينهما، عهد يتجاوز الكلمات ويعانق ما هو أبدي في النفس الإنسانية.

لم تكن نظراتهما مليئة بالندم أو الأسى، بل كانت مليئة بالأمل، بالأمل في إمكانية إعادة بناء ما تهدم، في إمكانية أن يتحول الألم إلى قوة، وأن يُصبح الصمت لغة للحب العميق.

وهكذا، حين وقف الصمت شاهدًا عليهما، وُلد في أعماقهما ميثاق لا يحتاج إلى توقيعٍ ولا إلى شهود. ميثاقٌ تشكّل من ذرات حضورٍ نادر، حضورٍ يحمل في صمته وعدًا بأن يظل، رغم كل ما يمكن أن يتبدد في عالمٍ سريع النسيان. لم يكن بينهما سوى مسافة نبضة، تلك المسافة التي تختصر العمر كلّه حين يلتقي قلبان في منتصف الطريق بين الأمل والخذلان.

كانا هناك، يواجهان بعضهما بوجهين يعرفان بعضهما أكثر مما يعرفان مرايا الذاكرة. في عينيّ كلٍّ منهما انعكست حكايات قديمة لم تُحكَ، وأسرارٌ تواطأ الصمت على تخبئتها، وكأنهما يكتبان رسائل لم تُرسل أبدًا، رسائل تحفظها الأرواح حين تعجز الألسنة عن النطق.

كان ذلك العهد الخفي الذي تسرّب إليهما مثل شذى لا يُرى، يكفيه أن يتسلل خلسةً ليزرع فيهما يقينًا بأن المحبة لا تحتاج إلى لافتةٍ تُرفع، ولا إلى صيحاتٍ تُسمع. وحده الحضور الحقيقي كفيل بأن يرمم شقوق الغياب، أن يشعل الضوء في آخر دهاليز الوحدة، أن يربط الأرواح بخيطٍ لا ينقطع مهما جرفته رياح الفراق.

كانا يعلمان، في تلك اللحظة التي عُلِّقت خارج الزمن، أن الألسنة قد تفرّقها الحيرة، لكن القلوب وحدها هي من تحفظ سرّ البقاء. وأن الحبّ الذي لم يُعلن، هو الأكثر رسوخًا، هو الذي يظلّ حيًّا؛ لأن لا أحد قتله بالكلمات الفارغة ولا بالوعود المثقوبة.

في حضرة هذا الصمت الممتلئ، كانت الحياة تنحني لهما لتمنحهما فسحةً من أبديةٍ صغيرة، لحظةٌ تلتفّ فيها الأزمنة وتستقرّ في ركنٍ من الذاكرة لا يموت. هناك، حيث تتشابك أنفاسهما كسطرين من قصيدةٍ لم تكتمل، كانا يعلمان أن كل ما تبقى من العمر لن يكون إلا امتدادًا لتلك اللحظة التي ولدت دون استئذان، وظلت حيةً في صدر الروح، تتوهج كلما خذلتهما الأيام.

قالت بصوتٍ أقرب إلى وشوشةٍ سرية، صوتٍ شقّ دربه في فضاءٍ مملوء بالصمت الذي يفيض بما لم يُقَل. لم يكن همسها يسعى لعبور المسافات التي تُقاس بالكيلومترات، بل كان يحفر نفقًا داخل ذاكرةٍ رطبةٍ بالأحلام التي خبّأها العمر تحت وسائد

النسيان. قالت كمن يعيد فتح نافذةٍ قديمة: «أتتذكر؟ تلك الشجرة، والليل، وأيدينا المرتجفة التي رغم خوفها ظلّت متشابكة؟».

لم يكن سؤالها سؤالًا. كان طقسًا لاستحضار زمنٍ تآمر معهما ذات مساءٍ ليكتب لهما حكايةً لا تشبه سواها. هناك، تحت شجرةٍ وقفت كحارسٍ عتيقٍ على حدود الحلم والواقع، شجرةٍ عرفت كيف تحتمل الريح وتكنز الضوء وتغفر ظلال الليل. كانت شاهدةً على سرٍّ صغيرٍ وكبيرٍ في آنٍ معًا، على خوفٍ تزيّن بالصدق، على خجلٍ ما عرف الخيانة.

كان الليل يمتدّ فوق رأسيهما كوشاحٍ مُطرّزٍ بالنجوم الغافية، يلفّهما بدفءٍ خفي، يحملهما بعيدًا عن أصواتٍ اعتادت أن تُحاكم القلوب على ذنب العشق. هناك، في ذلك الليل، كان الخوف يرقص بين أيديهما. أيدٍ صغيرةٌ تجهل كيف تُقاوم، لكنها عرفت كيف تتشبث ببعضها كمن يتمسّك بخيط نجاةٍ وسط محيطٍ من الصمت.

تلك الأصابع المرتعشة لم تكن خائفةً من العتمة وحدها، بل من فجرٍ قد يجيء حاملًا معه فتوى الفراق، من غدٍ قد يقطف منهما وعدًا لم ينضج بعد. ومع ذلك ظلّت الأيدي ملتفّةً حول بعضها، كعهدٍ يُبرم بلا توقيع، كوصيةٍ تُحفظ في نبضٍ مشترك.

كان في ارتعاش تلك الأيدي اعترافٌ مكتوم بأن الخوف لا يقتُل الحب كما يقولون، بل يزرع جذوره عميقًا في قلبٍ لم يعتد البوح. هناك، في انحناءة الأيادي المتشابكة، كانا يُعلنانهما دون قول: إنّ الخوف ليس سوى بوابةٍ أخرى إلى شجاعةٍ من نوعٍ آخر، شجاعة أن نحبّ رغم الخوف، أن نحلم رغم الجرح، أن نترك للأمل نافذةً ينساب منها الضوء، مهما تكالبت العواصف على أسوار الروح.

هي، وهي تهمس بتلك الكلمات المتقطّعة، كانت كمن يمدّ يده إلى قبرٍ قديم لينبش منه ذاكرةً تأبى أن تموت. في نبرتها شيء من صلاةٍ خافتة، من رجاءٍ بأن يستعيد الزمان رداءه الأوّل، أن يُرمّم شقوق الأمس، أن يعيد إليها مشهدًا ظنّت أنها دفنته تحت وسائد النسيان. كان صوتها خليطًا من حزنٍ لطيف وحنينٍ يرفض أن يهدأ، حنين إلى براءةٍ لم تُدنّس بعد، إلى زمنٍ لم يكن فيه للعمر أنياب ولا ظلالٌ ثقيلة تسطو على الأحلام.

وهو، واقفٌ أمامها، شعر بكل خليةٍ فيه ترتجف حين انسكبت تلك الذكريات فوقه كمدٍّ هادئٍ يستأذن الشاطئ. لم يكن مجرد مستمعٍ لصوتٍ يتهدّج من الماضي، بل كان شاهدًا على حنينٍ يوقظ في صدره لحنًا لم يكتمل يومًا، لحنًا لم يعرف كيف يصمت رغم جفاف الوقت. كانت الأيدي، حين تشابكت، أكبر من مشهدٍ عابرٍ التقطته ذاكرة. كانت عهدًا صغيرًا بحجم حلمٍ كبير، جسرًا من خوفٍ صادقٍ نحو نورٍ لم يكن قد تجرّأ على تسميته حبًّا بعد.

في كلمتها تلك، المفتاحُ الذي أدار أقفال قلبه، استيقظت الشجرةُ من سباتها، لم تعد مجرّد جذعٍ يختبئان خلفه، بل صارت رمزًا حيًّا لقوةٍ تنمو رغم الريح، لحياةٍ تشرئبّ برأسها من ركام الخوف. كانت الشجرة وقتها شاهدةً على يدين مرتعشتين تتعاهدان دون كلامٍ أن لا تخذل إحداهما الأخرى، مهما اشتدّت العتمة وعلت أصوات العالم.

هناك، في هدوء المساء الموشّى بأسرارٍ لا يفكّ شيفرتها سوى صمتٌ بين عاشقين، كان الماضي يزحف من بين الشقوق، يستعيد حقه في النبض. عاد كضيفٍ يعرف بيته جيّدًا، يدقّ أبواب القلب برفق، يُنفض الغبار عن ذكرى حاولت أن تهرب من نفسها ولم تستطع. جاء ليقول لهما إن اليدين اللتين ارتجفتا خوفًا يومًا، إنّما كانتا تحملان بذرة نجاةٍ من خوفٍ أكبر، وأن التشابك الذي ظنّاه لحظةً عابرةً كان في حقيقته ميثاقًا ضد الخذلان.

هناك، تحت شجرةٍ رمزيةٍ وقلبين لم يُشفيا من الدهشة، تفهّما أن ذلك الوعد الصامت لم يكن مجرّد لعبةٍ عابرةٍ بين شابين خائفين من أحكام الجدران. كان سرًّا صغيرًا حفظاه في قبضةٍ دافئة، شعلةً خفيّةً انتصرت على عتمةٍ تلبّست الزمان، وها هي تعود، ولو بعد حين، لتذكّرهما أن بعض الأحلام لا تموت حتى لو نامت طويلًا.

الليل الذي كان يومًا ستارًا خلفيًّا للأسرار العابرة، تحوّل في تلك اللحظة إلى شاهدٍ أعمى يُبصر بقلبه، يحفظ في صدره قصةً عن تمرّدٍ هادئ، عن شجاعةٍ وُلدت من رحم الخوف، عن توقٍ لأن تكون الحياة أكثر رحابة من قيدٍ يُفرض باسم العادة، وأكثر صدقًا من موروثٍ عابرٍ يُورّث العتمة ولا يُنبت هي. كان الليل هناك، يستمع إلى شهقةٍ خافتةٍ من ذاكرةٍ لم تشِخ، يحرس سرّين تعاهدا أن يكبرا معًا رغم هشاشة اليدين.

تذكّرت هي ذلك اليوم كما لو أنّه لم يغادر أبدًا. تفاصيلٌ ضئيلةٌ انتصرت على الزمن: كيف همست الريح بين أغصان الشجرة، كيف تسرّبت رائحة الأرض لتُنعش قلبًا كان يبحث عن معنى البقاء، وكيف تلاقت يدٌ مرتعشةٌ بأخرى أكثر ارتعاشًا، فتشبّثتا ببعضهما كأن الخلاص يليق فقط بمن يملك جرأة الارتجاف ولا يخجل من ضعفه. في تلك الأصابع المرتعشة، تكوّنت لغةٌ لم يعرفها الناس: لغةٌ تُترجم الخوف إلى قوةٍ صافيةٍ لا تبوح بسرّها إلا لمن لمسها بصدق.

وهي تحكي، كان في عينيها بريقٌ يلمع كجمرٍ تحت رماد الحكاية، حنانٌ يجاور وجعًا لم يفقد ملوحته رغم مرور الأعوام. كانت كلماتها أكثر من حروفٍ تُقال، كانت رنينًا يسري في صمت الغرفة، شفرةً يفكّها من يُتقن الإصغاء إلى ما بين النبضات، إلى ما لا يُحكى ولا يُكتب.

أما هو، فقد قرأ في ذلك الصمت حروفًا لم ينطقها لسان، فهم أنّ المعنى بينهما لا يُوزن بسطورٍ تُقال أو وعودٍ تُبرَم، بل يُقاس بذلك الذي يربط الأرواح حين تتخطى حدود الكلام. أدرك أن هاتين اليدين المذعورتين اللتين تشابكتا تحت شجرةٍ ذات مساءٍ بعيد، كانتا تكتبان عهدًا سرّيًا على هامش كل العهود: أن الخوف حين يُقبَل يصبح ملاذًا، وأن الرهبة حين تُعانق يدًا أُخرى تتحوّل إلى حصنٍ يحرس الحب من تعب الطريق.

وتحت سقفٍ من صمتٍ يضجّ بكل الأسئلة التي لا تُقال، مرّ السؤال خفيفًا بينهما: كيف نُبقي أيدينا مشتبكة حين يشتدّ صخب العالم؟ كيف لا نفلت الأصابع حين تهدر الريح من حولنا؟ لكن لم يكن الجواب ضروريًّا تلك الليلة. كان يكفيهما يقينٌ مُضمَرٌ، يقينٌ بأن حضورهما معًا يُؤلّف أرضًا جديدة، وأن هذا التشابك وحده يكفي ليُقيم وطنًا صغيرًا في صدر ظلامٍ كبير.

وبينما كانت الكلمات تتوارى في ظلال المسافة، تاركةً خلفها صمتًا يتكاثر في الفراغ كسرٍّ لم يكتمل، بقيت يداهما المتشابكتان كأثرٍ حيّ، كإشارةٍ خفيّة تؤكد تلك الحقيقة العنيدة: أن الحب، حتى حين يرتعش من شدّة الهشاشة، يبقى أقوى من كل خوفٍ يحاول أن يقتلع جذوره، وأوسع من أي قيدٍ قد يفرضه زمنٌ عاثر. بين شجرةٍ تحفظ ذاكرة الأرواح، وليلٍ يخبئ ما عجز النهار عن

قوله، كان هناك وعدٌ صغير ينبض في ارتعاشة الأيدي: أن البقاء مُمكن، وأن الإصرار لا يُولد في الضوء وحده، بل ينبت أحيانًا من تربة الخوف ذاتها.

كانت لا تبكي، ومع ذلك، كانت أصابعها تنقب في هدوءٍ عن ذاكرتها المعلقة في قلادةٍ تحتضن صدرها. تحرّكها كمن ينفض الغبار عن حلمٍ عتيق، حلمٍ غاب عنه البكاء لكنه احتفظ لنفسه بألمٍ لا يصدر صوتًا. تلك اليد الصغيرة المرتعشة كانت ترجمةً لنوعٍ من الوجع الذي لا يحتاج إلى الدموع ليُثبت حضوره، وجعٍ يتسلل من بين أصابع الوقت كنسمةٍ عابرة، لكنه يترك خلفه رائحة عمرٍ لم يُستكمل.

القلادة التي استقرت فوق صدرها لم تكن مجرّد زينةٍ تزيّن المساء، بل كانت مثل ذاكرةٍ ملموسة، كُتبت عليها أسرارٌ لم تجد لغتها بعد، واحتُفظ بها في صمتٍ كريمٍ كمن يخشى على نفسه من انكشافٍ كامل. قطعة معدنٍ صامدة، حبست في جوفها روحًا لم تهرم، جسدت بين حوافّها رباطًا يربط الماضي بارتعاشة الحاضر، ويحوّل الغياب إلى حضورٍ آخر، حضورٍ يُقاس بعمقٍ لا تُفسّره الكلمات.

كانت تلك القلادة، في لحظتها العابرة تلك، مرآةً خفيّة، تعكس في ومضةٍ ما لم تستطع هي أن تنطق به. لم تكن حجرًا باردًا يلمع

فحسب، بل شاهدًا على قصةٍ لا تزال تنبض في صدرها، شاهدةً أن القلب حين يحبّ، يخزّن صمته في تفاصيل صغيرة، قلادة، يدٌ خائفة، نظرةٌ تشرع أبواب الذكرى دون أن تهزمها.

في تلك اللحظة، كانت أصابعها تتحرك فوق القلادة كمن ينفض عن ذاكرته غبار العمر، وكأن لمستها تحاول بعناد أن تعيد نبضًا قديمًا إلى قلبٍ تعب من الانتظار. كانت يدها تتحسسها ببطء يشبه صلاةً صامتة، محاولةً إيقاظ شعورٍ خبأته الروح في دهاليزها السحيقة حين ضاقت بها الحياة. لم يكن ما تفعله مجرد عادةٍ عابرة، بل طقسًا خفيًّا، حوارًا صامتًا مع غائبٍ يسكن المعدن ويُقيم في تفاصيله ذكرى لم يطالها النسيان.

لم تكن الدموع حاضرة في عينيها، لكنَّ شيئًا فيها كان يتصدّع من الداخل بصمتٍ متواطئ مع الليل. كان هناك وجعٌ يشبه حجرًا صغيرًا في صدرها، يتحرّك مع كل نبضةٍ ولا يغادر، وجعٌ لا يحتاج إلى صوتٍ كي يُعلن عن نفسه. صارت القلادة في يدها شاهدًا على ذلك الألم الذي يرفض أن يذوب، قطعةً صغيرةً تحمل على ظهرها حزنًا لا يفنى، ويدٌ مُرتعشةٌ تحاول التمسّك به قبل أن ينزلق منها إلى حيث لا رجعة.

في خلوتها التي لا يشاركها فيها أحد، راحت تتساءل عن ذلك الذي يتركه العمر خلفه بلا إذن: كم من حلمٍ يتكسر ثم يعود لينبض

في قطعةٍ من معدن؟ كم من ذكرى تصير تعويذةً تردّ الغياب، وإن خذلها الحاضر؟ القلادة لم تعد زينةً تتدلّى على صدرها، بل صارت مفتاحًا سريًا لعالمٍ آخر، لعمرٍ لم يكتمل، لحبٍ لم يُكتب له أن يشيخ مع الوقت. كانت تلمسها لتتأكد أن بعض الفقد لا يموت، بل يتحوّل إلى أثرٍ ملموس، إلى تميمةٍ تحرس ما تبقّى من القلب من انطفاءٍ كامل.

داخلها، كان هناك صراعٌ خفيّ بين أن تترك كل شيءٍ يمضي وبين أن تحتفظ بشيءٍ أخيرٍ يحميها من وحشة العدم. كانت تتذكّر زمنًا كانت فيه تلمس القلادة بضحكةٍ بريئة، ترتديها كدرعٍ يقيها من خذلان العالم، تحملها كسرّ صغيرٍ لا يعرفه سواها. والآن، صار ذلك الدرع ثقيلًا، صار جزءًا من جرحٍ لا يلتئم، من ندبةٍ لا ترى ولكنها تنبض مع كل لمسةٍ جديدة.

الزمن لم يمحُ شيئًا، بل غلّف الذكرى بطبقاتٍ أعمق من الغبار، حتى صارت القلادة عالَمًا صغيرًا مليئًا بطرقٍ مسدودة وأسئلةٍ لا تجد لها بابًا. كانت تمرر أصابعها عليها كمن يطرق بابًا لا يُفتح، تلمسها فتتسع الذاكرة لأوجهٍ لم تعد تراها، لصوتٍ ما زال يهمس رغم المسافات، لوعدٍ أضاعته الأيام لكنه ما زال حيًا في خيالها. كان في تلك الإيماءة وعدٌ لم يُقال، حلمٌ يتيمٌ لم يعرف كيف يكبر، قصة حبٍ تشبّثت بهذا الرمز الصغير لتبقى حيّة رغم كل ما تهدّم حولها.

كانت تفكر، وهي تمرر يدها من جديد، كم من الأحلام يُترك بلا جنازةٍ تليق به؟ كم من القلوب تنكسر بهدوءٍ يشبه الموت ولا يملك حتى رفاهية الصراخ؟ كانت تعلم أن هذه القلادة ليست سوى تعبيرٍ عن قلوبٍ لم يُسمح لها أن تحكي، عن وجعٍ لم يجد مخرجًا إلا في حركةٍ بطيئةٍ من يدٍ تبحث في المعدن عن بقايا نفسها.

في تلك العتمة الهادئة، حيث الضوء يتسلل بخجلٍ يشبه نَفَسًا أخيرًا للحلم، كانت يدها تتحسس القلادة كما لو أنها تتحسس نبضًا آخر ظلّ حيًّا خارج حدود جسدها. أصابعها تدور حول المعدن البارد بشيءٍ من الهيبة، كأنها تخشى أن توقظ ذاكرةً نائمة منذ زمنٍ بعيد، أو أن تلمس وهمًا بقي مختبئًا كي لا ينكسر.

في تلك اللحظة، كان كل شيء يبدو ساكنًا إلا نبض قلبها الذي خذل صمته، همسًا داخليًا يعترف أن بعض الفقد لا يعلن نفسه جهارًا، بل يختبئ في تفاصيل صغيرة؛ في قلادةٍ تلتصق بالجلد كتعويذة، في لمسةٍ مرتعشةٍ تخشى الحقيقة وتستدعيها معًا.

كانت تدرك أن تلك القلادة ليست زينةً عابرة ولا حِليةً تُكمِل ثوبًا، بل شاهدٌ صامت على أشياء لم تعرف كيف تقولها بصوتٍ مسموع. هناك، بين حوافها الباردة، ينام حنينٌ ثقيل، ذكرى حياةٍ أخرى كانت ممكنة لو لم تخذلها الأيام، أو لو أن القلب لم يكن واهنًا أمام الريح.

سؤالٌ عميقٌ ظل يراودها وهي تتحسس نبض المعدن: كيف تسع لحظةٌ صغيرة كل هذا العمر؟ كيف يختبئ عمرٌ بأكمله في خيطٍ رفيعٍ يلتف حول عنقها كعهدٍ لم ينكسر رغم قسوة الانكسارات؟ كانت تدرك أن الألم لا يسكن الصرخات، بل يعيش في ما لا يُقال، في ما لا يُرى، في إيماءة يدٍ خائفةٍ من أن تفلت آخر خيطٍ يربطها بذاتها.

كانت تتلمّس القلادة كمن يتلمّس طريقًا وحيدًا في متاهةٍ غامضة، طريقٌ محفوفٌ بأشباحِ أسئلةٍ لا جواب لها، طريقٌ يحملها من بين حطام ما خسرته إلى ما تظن أنها ستجده يومًا خلف بابٍ مواربٍ للغفران. كانت تعلم أن الطريق طويل، لكن لا بدّ من لمسةٍ تعترف، من نبضٍ يهمس في العتمة: هنا تختبئ أنتِ، هنا تبدئين من جديد.

كانت تلك اللمسة البطيئة على القلادة تشبه خيطًا دقيقًا يشدّ روحها نحو بقايا لم تُدفن بعد، خيطًا يربطها بين ظلٍ يحاول أن ينقش اسمه على صدرها وبين بصيصٍ يتوارى كلما اقتربت منه. كانت الأصابع المرتعشة تقول ما عجزت عنه الشفاه: إن بعض الأشياء، مهما ثقلت على القلب، لا نملك إلا أن نحملها معنا كجزءٍ منّا. كانت تلك القلادة تُلقي بثقلها على صدرها، لا لأنها قطعة معدن، بل لأنها مفتاحٌ لأبوابٍ ما زالت مغلقة خلف ضجيج الذاكرة.

في صمت الغرفة، كانت أنفاسها تسرد حكاية من دون حروف، حكاية امرأةٍ تخشى أن يفلت منها ما بقي لها من دفء، امرأةٍ تراوغ الفقد بالإمساك بشيء صغير، كأنها تؤمن أن لمسةً واحدة قد تُعيد ترتيب الفوضى، أو قد تُقنع الحنين أن يترك صدرها قليلًا لينام.

وفي الزاوية الأخرى، كان هو يقف أمام نافذةٍ لم تفتح إلا عليه، عليه وحده، كأن زجاجها مرآةٌ تُعيد إليه ملامح خسرها ذات رحيل. لم يكن يرى الخارج، بل يرى ظلالًا معلّقة في الزوايا التي خبأ فيها أسراره من ضجيج العالم. قالها كما لو يُفرغ صدره من جمرةٍ أخفاها طويلًا: «الشجرة احترقت.» نطقها بخفةٍ توجع، وكأنه يتحدث عن شيءٍ أقل من حلم وأكبر من فقد.

أدرك، وهو يراقب طيفه في الزجاج، أن بعض الحرائق لا تُطفئها مياه الأرض كلها، وأن الشجرة التي احترقت ذات صيفٍ غادر، لم تكن سوى شجرةٍ أخرى نبتت في صدره. بقي رمادها هناك، يوشوش له كلما ظنّ أن الفصول تُشفي وحدها.

وهكذا اجتمعت حركتها البطيئة وصوته المنكسر، لتكتمل تلك الحكاية التي لا تحتاج إلى بطلٍ ولا إلى نهاية. قلادةٌ تلامس صدرًا مليئًا بالندوب، ونافذةٌ تعكس وجهًا يحاور ماضيه في ظلالٍ لا تجيد الوداع. وبينهما، ظلّ خيط خفي يربط حطامهما بفكرةٍ وحيدة: إن الذي احترق لا يموت دائمًا، أحيانًا يختبئ بين أصابعٍ

تتحسس حليةً بسيطة، أو بين عينين تبحثان عن شجرةٍ لم يعد لها وجود إلا في الروح.

وكأن كلماته لم تكن سوى وشوشة روحٍ تحاول أن تبرر للألم سبب إقامته الطويلة في صدره. لم يكن يتحدث عن شجرةٍ فقط، بل عن جذورٍ ممتدة في داخله، عن ظلٍ احتضن طفولته، عن ملاذٍ احتمى به من قسوة العالم حين كان العالم أوسع مما هو عليه الآن. لم تكن الشجرة مجرد خشبٍ وأوراق، بل كانت ملاذًا يليق بإنسانٍ تعب من ضجيج كل شيء، وكان يجد في ظلالها المعنى الذي خسره بين الناس.

حين نطقها، «احترقت الشجرة»، لم يكن يخبر أحدًا عن خبرٍ عابر، بل كان يشيع حلمًا رحل بصمت، كان يقيم مأتمًا لذاكرةٍ هزمتها النار قبل أن يهزمها النسيان. كانت عيناه على الزجاج البارد، لكن انعكاسه لم يكن سوى صورةٍ باهتة لرجلٍ لم يبقَ منه سوى حنينٍ يقاوم الرماد. في داخله، اشتعلت نيرانٌ لم تنطفئ مع الشجرة، بل صارت تتغذى من بقايا الصور والذكريات والظلال التي أبقت قلبه مستيقظًا في العتمة.

وقف هناك، في صمتٍ يشبه صلاةً بلا كلمات. كان يعرف أن بعض الحرائق تأتي كي تعلّمنا أن لا شيء يبقى على حاله، حتى الأشياء التي أحببناها حدّ الالتحام. الشجرة، التي كانت تلامس

السماء بأغصانها، تحوّلت إلى رمادٍ يعانق الأرض، لكن روحها بقيت حيّة، تتسلل إلى ذاكرته كلما حاول أن ينسى، كلما جلس أمام نافذته يتفقد أطياف الأمس في صفحة زجاجٍ بارد.

قالها لنفسه كمن يعلّم روحه كيف تصمد: إن النار تأخذ جسد الشجرة، لكنها لا تجرؤ على اقتلاع جذورها من ذاكرةٍ تعرف كيف تخبئ ما لا يُرى. ظلت القلادة التي تتحسسها أصابعها على الطرف الآخر من المشهد، دليلًا على أن الرماد أحيانًا لا يعني موتًا تامًا، بل هو حبرٌ خفيٌّ يكتب قصصًا جديدة في جوف الروح.

كانت هي، في مكانٍ آخر، تتحسس تلك القلادة وكأنها تربط بين ما كان وما لا يزال حيًّا رغم الخسارة. كان كل واحدٍ منهما يقبض بطريقته على خيطٍ واحد، خيطٍ من الضوء الممتد من ظل الشجرة إلى صدرٍ لم يتعلّم كيف يغلق بابه أمام الرياح.

هكذا ظلّ واقفًا، كأنما ينتظر أن تنبت من الرماد أغصانٌ جديدة، أغصانٌ يعرف في أعماقه أنها لن تعود كما كانت، لكنها حين تنمو ستذكره أن الحياة دائمًا تعرف كيف تبدأ من جديد، حتى بعد أن تحترق كل الأغصان القديمة.

وكأنه كان يهمس لنفسه أكثر مما يتحدث إليها، يربت على كتفيه بكلماتٍ يحاول بها أن يرمم هشاشةً أخفاها طويلًا خلف جدار الصمت. كان يدرك أن على الإنسان، مهما احترق من

الداخل، أن يعثر على بذرةٍ واحدة تبقى في تربة الحزن كعهدٍ بأن الحياة لا تنتهي مع أول حريق ولا مع آخر انكسار.

كان يعرف أن لا خلاص إلا بأن يترك خلفه رمادًا يليق بالشجرة التي علمته كيف يكون واقفًا رغم الرياح، كيف يخبئ جذوره في الأرض كي لا تسقطه العواصف كلها دفعةً واحدة. كان يستعيد صورة تلك الأغصان، المشتعلة وهي تودع سماءً لم تستطع إنقاذها، ويهمس في أعماقه أن الحريق لم يكن خيانةً من النار، بل درسًا في أن بعض الخسارات ضرورية كي نكتشف أنفسنا من جديد.

وقف أمام النافذة، حدّق في انعكاس وجهه المتعب، كأنه يراقب شخصًا غريبًا خرج منه منذ زمن ولم يعد. رأى في انعكاسه طفله القديم الذي كان يحلم تحت ظلال تلك الشجرة، سمع ضحكته البعيدة، وشعر بيدٍ صغيرة تمسك بيده الكبيرة، تذكّره أن الرماد ليس نهايةً أبدًا، بل بداية أخرى مكتوبة بخطٍ خافتٍ في الهامش الذي يتركه الألم على حواف الروح.

في تلك اللحظة، لم يكن يريد أن يسأل المزيد من الأسئلة. لم يكن يريد تفسيرًا للحريق، ولا عزاءً عن الخسارات التي ما زالت تحرق صدره كجمرٍ صامت. كان كل ما يحتاجه أن يؤمن فقط بأن الرماد يخفي تحته بذورًا تنتظر شمسًا جديدة. كان يريد أن يصدّق

أن كل شجرة احترقت ستنهض بشكلٍ آخر، في مكانٍ آخر، في روحٍ أخرى لم تخن العهد.

وفي صوته، حين نطق بكلماته الأخيرة، انكسرت الصلابة لتكشف وميض ذلك الإنسان الهشّ الذي يقف على شفا هاويةٍ داخلية، يحاول أن يخبئ انكساراته عن العالم كي لا تنهار قصته في عيون الآخرين. لم يكن بينه وبينها عتبٌ ولا سؤالٌ عن الذنب، بل كان بينهما صمتٌ يليق بشريكين ذاقا طعم الفقد واحتفظا بقليل من النور، نورٍ يكفي ليقول: ما زلنا هنا، رغم الرماد، رغم الخسارة، رغم كل شيء.

كان صوته يخرج كأنه يحاول أن يبني سورًا من الصلابة، لكنه في نبراته كان يحمل صدًى من الانكسار الخفي، ذلك الصدى الذي لا يُسمع إلا لمن يعرف كيف يقرأ بين السطور، بين الكلمات التي لم تُقل، بين الصمت المرهف الذي يتسلل إلى القلب. كان هذا الصوت شهادة صامتة على صراع داخلي، حيث يتلاقى ما يختلج في الروح وما يختاره الإنسان أن يظهره للعالم. هو صوتُ من استسلم للواقع، لكنه رفض أن يستسلم للألم، صوت يحمل بين حناياه ذاكرة قاسية، لكنه لا يريد الغرق في نهر الذكريات، بل يختار أن يواصل السير رغم الانكسار، رغم الهشاشة التي لا تُرى إلا في الظلال.

ذلك الصوت لم يكن مجرد كلمات تندفع إلى الفضاء، بل كان جسرًا يمتد بين ماضٍ كان يمكن أن يكون وحاضر صار قاسيًا، بين أحلام بدأت تتبدد وأرض الواقع التي لا تعرف الرحمة. وفي ثنايا ذلك الصوت كانت حكايات لم تُحكَ بعد، مشاعر دُفنت خلف أقنعة الحزم، وذكريات كأنها أغلالٌ تلف عنقه، تثقل روحه وتمنعه من الطيران.

لم يكن هناك لوم بينهما، فاللوم يحتاج إلى غضب، إلى رغبَة في تغيير تُولد من الاتهام. أما هما، في ذلك الصمت الممتد، فهمَا أن ما يجمعهما ليس لومًا، بل إرثٌ من الزمن، هبة من المحاولات التي نُسجت بين حبٍ وربما خوف، وبحثٍ متواصل عن معنى وسط الفوضى التي انتشرت حولهما. كان ذلك الإرث كالشجرة التي جذورها عميقة في تربة الأيام، وفروعها تتشابك في سماء الحياة، تحمل أوراق الأمل وظلال الخيبة وأزهار لحظات الفرح العابرة.

في حضن هذا الإرث، كان سكونٌ يشبه البحر الذي يهدأ بعد عاصفة طويلة، حين تُغسل الأمواج شواطئ الروح برقة، وتترك خلفها رمالًا ناعمة وذكريات تنتظر من يحنو عليها. وكان في ذلك السكون تسامحٌ غير معلن، ينبع من فهم عميق لماهية الإنسان بكل تناقضاته، بكل هشاشته وقوته في آنٍ واحد.

حين يتحدث الإنسان عن إرث المحاولات، فإنه يعترف بأن الوقت مرّ، وأن التجارب تركت مذاقًا مرًّا، لكنه يدرك أن المحاولة بذاتها ثمينة، وأن الفشل ليس نهاية الطريق، بل جزء من رحلة البحث، رحلة النضج، رحلة اكتشاف الذات والآخر معًا في مسرح الحياة.

كان بينهما ذلك الفهم العميق، ذاك السلام الذي لا يأتي إلا بعد عواصف الروح، بعد معارك الكلمات وصمتها، بعد جروحٍ تلتئم وتترك أثرها في الأبدان والقلوب. لم يكن ثمة مجال للندم أو الغضب، بل كانت هناك مساحة واسعة للحقيقة، تلك الحقيقة التي لا تتنكر لقسوتها ولا تلين بلطفها، الحقيقة التي تحمل في طياتها ألمًا وسرورًا، وتجعل من كل لحظة، مهما اشتدت، بصمة لا تُمحى في ذاكرة القلوب.

في ذلك الصمت الممتد بينهما، كانت الذكريات تحيط بهما كعبق خفي، تهمس لهم بأن الحياة مجرى لا يتوقف من المحاولات، من المحاولات التي تستمر رغم توقفات صغيرة، لأنها جزء من الوجود ذاته، من الحقيقة التي تصوغنا وتحدد ملامح وجودنا.

صوت الراوي لم يكن مجرد صوت إنسان يتحدث، بل كان نبض تاريخ يئن تحت أوزار الألم، كان صوت روح لا تُقهَر، ترفع نداءها للحياة رغم العتمات التي جاورت طريقها. كان ذلك

الصوت هو الحقيقة المختبئة خلف كل إنسان، تلك الحقيقة التي لا تُقال بالكلام وحده، بل تُحس في أعماق النفس، في تلك الزوايا التي لا تطأها سوى الصدق.

كانا واقفين أو جالسين في زاوية من زوايا الحياة الملتوية، حيث تختزل النظرات عوالم من الكلام، حيث يتشارك الصمت لغة أعمق من أي لفظ. في تلك اللحظات، يفهم الإنسان أن أصدق الروابط بين القلوب لا تحتاج إلى لسانٍ، بل إلى حضورٍ حقيقي، إلى إحساس عميق بالآخر، إلى احترام متبادل يتجاوز حدود الكلمات.

ذلك الإرث من المحاولات كان في جوهره شهادة على الإنسان، على قدرته على الحب رغم كل شيء، على صلابة المواجهة رغم كل الجراح، وعلى إصرار الاستمرار رغم كل الخيبات. كان عقدًا صامتًا بينهما، عهدًا غير مكتوب، أقوى من كل الاتفاقات، وأبلغ من كل الكلمات التي قد تكتب أو تُقال.

في ذلك الإرث، لم يكن ثمة مجال للخذلان، بل كان فضاءً واسعًا من الفهم والتسامح، من التجديد الذي ينبثق من رماد التجارب، ومن الحب الذي يصمد، لا يذبل رغم مرور الزمن، لا تنكسر قوته رغم العواصف، ولا تُقيّده القيود مهما حاولت. في صمت تلك الكلمات، في صوت بدا صلبًا لكنه يحمل خفقات

الانكسار، كانت تولد بداية جديدة، غير مرئية بعد، لكنها حاضرة بقوة، كما شجرة تعود لتشّد جذورها في الأرض بعد أن اجتاحتها الرياح.

ربما كان كل ما يحتاجانه هو ذلك الوقت الذي يطوي صفحات الألم، وربما كان يكفي أن يؤمنا بأن إرث المحاولات هذا، بكل هشاشته وقوته، هو الذي يجعل العلاقة حقيقية، هو الذي يحوّل الحب من شعور عابر إلى قصة مبنية على صخور الفهم، لا على رمال الانتظار واللوم التي تذوب مع أول نسمة.

ذلك الصوت، رغم ثقله وانكساره، كان بمثابة دعوة للصبر، للإصرار على الاستمرار، للنظر إلى الأمام، مع التمسك بالآخر، ومع الحفاظ على الذات، والوعي بأنهما معًا في رحلة ليست سهلة، لكنها، رغم كل شيء، تستحق أن تُعاش. لأن الحب الحقيقي، في نهايته، ليس سوى إرث من المحاولات التي لا تُمحى، لا تُنسى، ولا تُهدر.

في لحظةٍ خاطفة، أضاء البرق الغرفة بضوءٍ مفاجئ، كأنه يطرق باب الزمن ليكشف عن سرٍ دفين، ويُعيد إلى الذاكرة وجوهًا وأحداثًا كادت أن تذوب في نسيانها العميق. ذلك الضوء، الذي لم يدم أكثر من رمشة عين، كان كفيلًا بأن يرفع الستار عن مسرح داخلي تُقام فيه معركةٌ بين قلوبٍ متعبة، وأرواحٍ متعبة، وبين مشاعرَ

تختبئ خلف أقنعة الصمت، وبين حقائقَ تراكمت، وتكدست، وأرادت أن تُقال.

في تلك اللحظة، لم تكن هناك حاجة للكلمات، ولم يكن هناك مجال للجمل التي تُقال أو تُكتب. بل كانت العيون، عيناهما تحديدًا، تتحدثان بلغةٍ أعمق، لغة لا تحتاج إلى حروف أو قواعد. لغة المشاعر المختنقة، لغة التعب الذي يتجاوز الجسد ليصل إلى أعماق الروح، لغة الوفاء الذي يكاد أن ينفجر من كتمانه، لغة الخوف الذي يساورهما من احتمال ضياع كل ما بنياه معًا.

البرق الذي أضاء الغرفة لم يُلقِ فقط ضوءًا خارجيًا، بل أضاء أيضًا مشاعر، وأحاسيسَ مدفونة، لحظات مؤجلة، ذكريات لم تُقل بعد، وبدا كما لو أن الغرفة نفسها، بكل جدرانها وكنوزها القديمة، تشهد على هذه اللحظة الحاسمة التي تتكلم فيها العيون وحدها. إنها لحظة قبل الانفجار، قبل قرارٍ كبير، قبل تغييرٍ محتوم، أو ربما قبل قبول لما كان لا بد منه.

كان في تلك العيون ترددٌ، كأنه نهرٌ جارٍ بين ضفاف الحيرة والأمل، وبين الماضي والحاضر، وبين ما كان وما يمكن أن يكون. كانت هناك كلمات تود الخروج، لكنها اختارت أن تبقى حبيسة في بحر الصمت، وعميقة كأنهار تحت الجليد، ومتجمدة في قلبيهما اللذين لا يزالان يخشيان أن يُجرحا مرة أخرى.

لغة التعب في تلك العيون لم تكن مجرد إرهاق جسدي، بل كانت لغة الإنسان الذي حمل فوق كتفيه ثقل أزمان لم تُسَمَّ بعد. تلك العيون كانت تحمل حمولة ما حمله كل منهما من أحلام محطمة، من وعود لم تُنفذ، من لحظات ضاعت بين متاهات الحياة. لكنها كانت تحمل أيضًا بذور الوفاء، التي لا تموت رغم الظروف، بذور المحبة التي تتشبث بالحياة حتى في أقسى اللحظات.

أما الخوف، فكان ظلًا ثقيلًا يغطي تلك اللحظة، يخنقها بصمت رهيب. خوفٌ من أن تتبدد كل ما بناه قلباهما في زحمة الأيام، في دوامة القرارات التي لا يختارها الإنسان، بل تُفرض عليه. خوفٌ من أن تظل اللحظة مجرد وهجٍ عابر، وأن يعود كل منهما إلى وحدته، إلى سردياته الخاصة التي يصعب فيها تلاقٍ الحكايات، بلغة لا يفهمها إلا هو ذاته.

لكن، مع كل ذلك الخوف والتعب، كان هناك وفاء، صامت ولكنه عميق، كجذر شجرةٍ ضارب في الأرض، لا يظهر للعيان لكنه يمنح الحياة للأوراق والأغصان. وفاء كان بمثابة الجسر الذي لا يمكن أن ينهار بسهولة، جسر يربط بين ما مضى وما يبقى، بين الحلم والواقع، بين القلب الذي لا يزال ينبض رغم كل الجراح.

البرق الذي أضاء الغرفة لم يكن فقط حدثًا طبيعيًّا عابرًا، بل كان رمزًا للحظة الوعي، لحظة الحقيقة التي لا يمكن الهروب منها. في ضوئه، تأملت العيون بعضها بعضًا، تأملت قصصهما، أحلامهما، وجراحهما، ووجدت في بعضها بقايا نور، بقايا أمل رغم كل شيء. كان هذا الضوء ينير طريقًا جديدًا ربما لم يكن واضحًا تمامًا، لكنه موجود، قابل للاكتشاف، قابل لأن يُتبنى.

في تلك اللحظة، لم تعد العيون تبحث عن إجابات في الكلمات، بل في صدى الصمت الذي يلف المكان، في نبض القلب الذي يخبرهما أن هناك ما يستحق أن يُقاتل من أجله، ما يستحق أن يُحافظ عليه، ما يستحق أن يُسكن الروح من جديد. لم يكن ذلك مجرد لقاء بالعيون، بل كان تواصلًا عميقًا، لقاءً بين أرواحٍ تبحث عن ذاتها، عن حقيقة وجودها، عن معنى ما في هذا العالم المعقد.

لغة العيون تلك، رغم بساطتها الظاهرة، كانت أعقد من أي كلام، لأنها كانت لغة صادقة، لغة لا تعرف الخداع أو التزييف. كانت لغة الإنسان الذي يتجرد من كل أقنعة الحياة ليقف أمام الآخر كما هو، بكل ضعفه وقوته، وبكل آلامه وأحلامه. لغة تعرف أن الحب الحقيقي لا يُقال فقط بالكلمات، بل يُعاش، ويُشعر، يُحفظ في زوايا القلب وفي صمت اللحظات.

وفي ومضةٍ عابرة من ضوءٍ خافتٍ اخترق عتمة الغرفة، وفي صمت النظرات الذي ظل صامدًا كجدارٍ من يقين، وُلد بينهما وعدٌ لم يُكتب، ولم يُنطق، لكنه تجسّد كقَسمٍ سرّي بين روحين أتقنتا لغة الإصرار. وعدٌ بأن يبقيا رغم الخوف الذي يتربّص بهما، رغم التعب الذي يثقل خطواتهما، وعدٌ بأن لا يسمحا للخذلان أن يكون خاتمة حكايةٍ أصرّا أن تبقى حيّة.

كان ذلك العهد امتدادًا لحلمٍ يتشبّث بالحياة، لبذرةٍ تُدفن في تربةٍ أنهكها الزمن لكنها تأبى أن تيبس. لحظةٌ تشبه بداية طريقٍ لم تُعبّد بعد، لكنهما يعرفان أن عليهما أن يسلكاه معًا، أن يبنيا من فتات الذاكرة جسرًا يعبر بهما نحو ضوءٍ ما زال خافتًا لكنه لا ينطفئ.

كانت تلك الومضة، وذلك الصمت، أشبه بتذكيرٍ خفيّ بأن الرحلة الحقيقية لا تنتهي عند أول عثرة، بل تبدأ من بعدها، وتستمر ما دام في القلب مكان يتّسع للأمل، وما دام في الروح نبضٌ يعرف كيف يعاند العتمة.

كانت تلك اللحظة أشبه بمفتاحٍ سرّي، يفتح بابًا ظلّ موصدًا بين زمنين، بين ما اندثر وما يُحاك بصمتٍ في نسيج الغد، بين ندبةٍ لم تندمل بعد وجرأةٍ على الشفاء، وبين خوفٍ يهمس بالغياب وأملٍ يُصِرّ على البقاء. في تلك اللحظة، أدرك كلاهما أن أعظم حروف الحب لا تُنطق، بل تُترجم في نظرةٍ طويلةٍ تحمل ما تعجز

عنه القصائد، في صمتٍ مُشبعٍ بصدقٍ لا يحتاج إلى تبرير، وفي وعدٍ صامتٍ بأن بعض الروابط لا يهزمها الوقت، ولا يخونها الرحيل.

وهكذا، في تلك الومضة التي أضاءت فيها شرارةٌ خجولة عتمة الغرفة، وفي تلك النظرات التي تحدّثت بلغةٍ لا تعترف بالجُمل ولا تستأذن الأصوات، وُلدت حكاية أخرى بينهما، حكاية من ندوبٍ وضماداتٍ من رجاء، ومن تعبٍ يترنّح على حوافّ الوفاء، ومن خوفٍ يتكئ على حبٍّ عنيد، وحبٍّ يعرف كيف يبقى حيًّا وسط الرماد، وكيف يُخبئ في صدره نبض الحياة كلّها.

ما بينهما لم يكن غيابًا عابرًا يمرّ ويُنسى، بل كان فسيفساء رماديّة نسجتها أشباحٌ صامتة من ذكرياتٍ لم تُروَ، لا لأنّ الذاكرة خذلتها، بل لأنّ الألم الذي يُبعثرها إذا نُبِش كان أعتى من قدرة الألسنة على تحمّله. صار ذلك الغياب شراشف رقيقة تفصل بين جسدين يلمسهما الحنين، تحرّكهما الأنفاس المثقلة بغبار الأيّام الراحلة.

تلك الضّحكة... كيف لها أن تتسلّل إلى صمته الآن مثل رفيف فراشةٍ لا تموت؟ ضحكتها حين اختلّ توازنها بين شجرات الزيتون القديمة، في ظهيرةٍ صبغها الخريف بدفءٍ ذهبيٍّ سائل فوق التلال. لم تكن سقطةً عاديّة، بل سقوط قلبٍ يافع في فخّ الأرض وجمالها وفتنتها معًا. تعثّرت قدماها بجذرٍ صامتٍ يتخفّى تحت

التراب، وكادت تسقط في حضن الأرض التي تعرف كيف تخبّئ أسرار الجذور، لولا يده... يده التي انقضّت عليها كجناح حمامةٍ تحمي عشّها من ريحٍ غادرة، قويةٌ بما يكفي لتوقف السقوط، رقيقةٌ بما يكفي لتحتضن هشاشتها كزهرةٍ يلمسها الفجر.

استندت إليه، خفيفةً عليه كهمسة، ثقيلةً فيه كيقينٍ لم يقله. اقترب وجهاهما حتى صار هواءٌ واحدٌ يمرّ بين رئتَين، محمّلًا برائحة التراب الدافئ وأوراق الزيتون. ضحكت، ضحكةً من تلك التي تخلخل جذوع الأشجار وتُسكِت ضجيج القلب لحظةً ليُصغي لارتعاش الحياة داخله. ضحكةٌ شفّافة، كجدول ماءٍ يتدلّى من حجرٍ عتيق، أغرقته بسكينةٍ ودهشةٍ لم يعرف كيف يرويها بعد ذلك.

في تلك اللحظة لم تكن يدٌ تمسك بيد، بل كان العالم كلّه يحبس أنفاسه ليحفظ هشاشة لحظةٍ لم تولد لتبقى. وظلّ صدى تلك الضّحكة يطرق جدران صمته الآن كسؤالٍ بلا جواب: أين خبّأت تلك الخفّة التي كانت تحملها فوق قدميها، وتحمله بها فوق عتمته؟

وتلك الليالي... آه من تلك الليالي التي خُيّل لهما أنّ الحبّ فيها يصلح ليكون وطنًا بلا أسوار ولا حروب. ليالٍ كُتبت رسائلها بضوءٍ مسروقٍ من قمرٍ يحنو عليهما، وهمسَت أسرارها شفاهٌ

التقت في عتمةٍ اختبأت من ضجيج العالم. كانا يحلمان بأنّ قُبلةً واحدةً تكفي لتشييد حدودٍ مقدّسة، لا تتسلّل إليها ريحُ الوحدة، وبأنّ نظرةً دافئة يمكنها أن تُقيم جدارًا خفيًّا يردُّ عنهما رياح الغربة وغبار الأسئلة.

في توقهما العاري للاستقرار، أعادا رسم الوطن على مقاسات جسدين يتعانقان تحت غطاءٍ ضيّق. اختزلاه في رائحة قهوةٍ تُرتشف مع الفجر، في وشوشةٍ تتدلّى على وسادةٍ يختبئ فيها صدقهما، في لحظةٍ يتقاسمان فيها الخبز كما يتقاسمان الحلم. ظنّا أنّ غُرفتهما الصغيرة، بستائرها المنسدلة على صخب الخارج، تكفي لتكون مملكةً لا تغزوها الأسئلة ولا تخونها الخرائط.

كانت أحلامهما حينها خفيفةً كفراشاتٍ عاشقةٍ لمصباحٍ يتوهّج بنورٍ هشّ، تظنّ أنّ هذا الضوء الصغير كافٍ ليهديها درب الخلود. كان الحبّ لهما لغةً بلا أبجدية، طقسًا يوميًّا تقدّم فيه الأرواح قربانًا لحقيقةٍ وحيدة: أن يظلّا معًا رغم هشاشة الأبواب التي تفصل نعاسهما عن صراخ العالم. ألم يتقاسما الرغيف والكلمات؟ ألم يطرّزا من خيوط الوله بساطًا يغطّي عورات الحياة القاسية؟

لكنّ الوطن الحقيقيّ... ذاك الكيان الأشدّ مراوغةً من حلمٍ في منامٍ مضطرب، لم يكن ليرضى أن يُختزل في نبضتين خائفَتين. الوطن كان يغلي في الخارج كالطين حين تفتّت شكله الأقدام

العابرة، كالرمل حين ينساب من بين الأصابع مهما شدّت القبضة عليه. التغيير لم يكن شعارًا يُلوَّح به في الساحات، بل زلزالًا خفيًّا يهزّ جذور الذاكرة ذاتها.

كانت الأزقّة القديمة تُمحى من الخرائط ويُعاد خطّ أسمائها كمن يُغيّر هوية جرحه. الوجوه التي ملأت شرفات الطفولة توزّعت بين راحلٍ بصمتٍ وآتٍ بلا ملامح. حكايات الآباء تحوّلت إلى تعاويذ لا يفكّ طلاسمها سوى الحزن. كلّ حجرٍ صار شاهدًا على غيابٍ لا يُسمّى، على جرحٍ يُخبّئ تحت جلده علامة استفهامٍ لا تجيبها الرياح.

يا لها من ليالٍ ثقيلة، يا لها من أرواحٍ أنهكها التبدّل وهي تحاول أن تتمسّك ببقايا حكايةٍ شُيّدت مرّةً من ضوء الأمل. بلغا تلك المرحلة من العمر حيث يصبح الخبر القادم من بعيد خنجرًا في خاصرة الحلم: اسمٌ على ورق نعوةٍ، بيتٌ صار رمادًا، زقاقٌ صار مسرحًا لغرابةٍ لم يألفاها حين كانا يركضان فيه بأقدامٍ حافية.

كان صمتهما درعًا هشًّا. كلٌّ منهما يواري عن الآخر هلعه. كيف يمدّ يده ليؤمّنها من رعشةٍ على أهلٍ غابوا خلف أبوابٍ لم تعُد تعرف معنى الحماية؟ كيف يعيد إلى صدرها دفءَ شجرة توتٍ نُحرت مع جذورها، وبيتٍ عتيقٍ صار عرينًا لمن لا يعرفون حكاياته؟

لم يعد حبهما يُشبه تلك القصص التي تُحاك على الأرائك في ليالٍ دافئة. صار غرفةً في سفينةٍ تشربها المياه من تحتها. كلّما اشتدّ وجع الأرض بالخارج، التصقت أصابعهما ببعضها أكثر، كمن يغالب الطوفان. لكنّ القبضة الواحدة صارت تجرح، والهمسات التي كانت تُزهر بها الأحلام صارت رسائل موتٍ وترحال. صار الفراش الذي جمعهما قاربًا يعلو فوقه طيف وطنٍ صارخٍ لا يهدأ، يمتدّ ظلّه فوق أجسادهما، يحجب عنهما دفءَ الحلم الأوّل.

صارا يسألان نفسيهما في ليلٍ كثير الصمت: هل يكفي قلبان ليحملا وطنًا جريحًا؟ كيف تُشيَّد الأسوار من كلماتٍ رخوة بينما الحجارة الحقيقية تتهاوى كأوراقٍ في ريحٍ غادرة؟

تبدّل الوطن، وبدّلهما معه. لم يعودا تلكما الروحين اللتين ضحكتا ببراءةٍ تحت زيتونةٍ لم تعد هنا. صار في العينين بئرٌ عميقٌ من معرفةٍ مؤلمة. صارت يده، التي كانت تنتشلها من عثرات الطريق، ترتعد كلّما لمست كتفها، كأنّها تتهيّب هشاشتها الجديدة. وصارت ضحكتها... آهٍ من ضحكتها التي صارت تجيء كرجع صدى، باهتةً كدمعةٍ جافّة، كذكرى كانت فرحًا وصارت شقًّا في الروح.

لم يبقَ لهما سوى صبرٍ يتدثّران به كلّما لسعتهما ريحُ النسيان. صبرٌ يشدّ شظايا القلب كيٍ لا تذروها الريح. تشابكت أيديهما لا

لأنّ الحبّ وحده يحمي، بل لأنّهما خافا من هوّةٍ صارت أوسع من سريرٍ ضيّق، من نافذةٍ مغلقةٍ على شبحِ وطنٍ يتغرّب عنهما كلّ يوم.

لم تعُد الصور تحتاج إلى صوتٍ لتُوجع. يكفي أن تتسلّل في الليل كطيفٍ لشجرةٍ انكسرت، لضحكةٍ انطفأت، لبيتٍ صار عنوانًا للغربة. الوطن الذي ظنّاه خفيفًا كحلمٍ في كفّيهما اكتشفا أنّه أثقل من قلبين صغيرين، أوسع من سريرٍ ضيّقٍ وستائرَ مسدلة. وطنٌ، كزمنٍ عنيد، لا يرحم، ولا يُختصر، ولا ينجو منه أحد.

ها هما الآن، بأيدٍ ما تزال مشبوكةً رغم تعب الدم، رغم الأنين المكتوم، رغم رجاءٍ هشّ في صدرٍ ضاق عليه هذا الغياب المتكاثر. يحملان بقاياه فيهما، يحاولان أن يجمعا شظاياه في صدرٍ واحدٍ، ويتهجّيان لغةً جديدةً للثبات: لغة صبرٍ لا يطلب جزاءً، لغة حبٍّ تَفلتُ من فمِ التاريخ، حين يصير الوطن غريبًا... ويفرض على القلوب أن تتذكّر كيف تحيا بلا بيت.

ها هو الوطن، لم يَعُد خريطةً تُطوى على عجلٍ في جيبٍ مثقوبٍ بالأسئلة، ولا نشيدًا يُردَّد كطقسٍ عابرٍ في مهرجانٍ موسميّ. صار له رائحةُ الرغيف الذي احترق نصفه وبقي نصفه الآخر يُغري ذاكرةَ الجوع. صار له صوتُ أمٍّ تتعثر دعواتها على أعتاب الغياب، وظلُّ دارٍ يسكنهما حتى وهما بعيدين عن حجارتها الباردة. صار هو

الهوية التي لا يطلبون عليها بصمةً ولا توقيعًا، لأنها محفورةٌ في أصابع اليد وفي الأخاديد تحت الأظفار.

لكنّ الزمان ـ ذلك النسّاج الذي لا يملُّ ولا يغفل ـ غيّر خيوطه، أعاد ترتيب الألوان حتى صارت خرائطُ القلوب بلا جهات. لم يكن الزلزالُ صاعقًا بضربةٍ واحدة، بل تسلّل كسمٍّ بطيءٍ، يسقط قطرةً قطرةً في ينابيع الوعي. رأيا بأعينهما كيف شاخت الأزقّة التي حفِظتْ خطواتهما، وكيف استبدلت الجدران أسماءها القديمة بأرقامٍ لا ذاكرة لها. صار الجارُ غريبًا بوجهٍ يشبهه لكن بملامح أخرى، يحمل ابتسامةً مشروطةً وكلماتٍ مشفوعةً بالحذر.

وحين جاء دويُّ التغيير، لم يجئ دفعةً واحدة، بل طرق نوافذ غرفتهما كريحٍ ثقيلةٍ باردة. حملت الصحفُ أسماءً لأصدقاءٍ صاروا فجأةً حكاياتٍ مبتورةً: من اختفى خلف بابٍ لا يُفتَح، ومن اختار منفىً لا يُرى إلاّ بخريطةِ دمعةٍ على خدّ أمٍّ حائرة. وصارت حكايات الآباء كحجرٍ قديمٍ مُهملٍ في حقلٍ تُحرثُ فيه الذكريات فلا تُثمر. صار كلّ حجرٍ في الوطن شاهدًا على ضياعٍ يصرخ ولا يجد من يسمعه.

ثم جاء الصمت. ليس صمت الرضا ولا حتى صمت الهزيمة، بل صمتٌ أثقل من الرصاص، ممتلئٌ بكل الكلمات التي ذُبحت قبل أن تولد. صار الكلام عن الوطن جريمةً في صالةِ بيتهما

الصغير. صار التذكّرُ جُرحًا، وصار الحلمُ وصمةً لا تليق بزمنٍ يتعامل مع الحبّ كترفٍ زائد. صارت غرفتهما مسرحًا للأشباح: شبحُ ذكرى لا يريد أن يُقال، شبحُ مستقبلٍ لا يتشكّل، شبحُ كلماتٍ ذابلةٍ أُحرقت على الألسنة قبل أن تنفلت.

وكان هناك ذاك الظلّ الذي لم يولد. ذاك الطفل الذي تواطآ على انتظاره ذات ليلةٍ كان فيها الدفءُ ينساب بين أضلعهما كحليبٍ طازجٍ في بيتٍ ريفيٍّ نسيَ أبوابه مفتوحة. سمّياه بأسماءٍ كثيرةٍ في العتمة، رسموه بصورةٍ لا تخطئها مخيّلتان: عيناه تشبهان عينيها حين يضحك، وابتسامته قطعةٌ من سلامٍ مفقود. كان سيكون جسرًا يربط ضفّتيهما إذا جار النهر. كان حلمًا صغيرًا يمنح اسميهما جذورًا أعمق من شجرةِ تينٍ عتيقة. لكنّ الحلم أُطفِئ بهدوء، مثل شمعةٍ خافتا أن يراها الريحُ فتنكسر.

صار الطفلُ الغائبُ يسكن بينهما مثل شاهدٍ يذكّرهما بكل ما لم يكتمل. هو ظلٌّ ينام على الأريكة، يراقب الصمت المتثاقل، يلمع في دمعتها التي تهبط بغتةً وهي تراقب أمًّا تحتضن صغيرًا على الرصيف. هو في حرصه حين يمدّ يده ليحميها من مجهولٍ لا يستطيع اقتلاع جذوره. هو في ارتعاشةِ قلبه كلما رأى في عينيها بريقًا قديمًا يلمع قبل أن ينطفئ.

صار ذاك الذي لم يولد قطعةً من أثاثٍ صامتٍ، شاهدًا على وطنٍ هرب منهما دون أن يودّع. شاهدًا على وعدٍ كان أن يكون لهما بيتٌ يضحك فيه صوتٌ ثالثٌ يشبههما، لا يعرف معنى الخوف، ولا يسمع أنين النوافذ حين تهتزُّ من هديرِ زمنٍ لم يترك لهما إلاّ حُطام أسئلةٍ ويدين متشابكتين من فرط الوجع.

ها هو جالسٌ، منكّس الرأس، يقلب أوراقًا صفراء كشيخوخة حلمٍ سقط سهوًا من دفتر العمر. أوراقٌ لا تحمل إلاّ أخبارًا عن مدنٍ تصرخ تحت الركام، وعن شوارع كانت تعرف أقدامهم فصارت تُجهل. تتسلّل نحوه بخطواتٍ خافتةٍ كوشوشةِ سرٍّ لم يكتمل. تمشي فوق أرضٍ مفخخةٍ بشظايا الحنين، تخشى أن توقظ حجارة الذاكرة فتتبعثر أمامه أسرارٌ دفنتها في صدرها دهورًا.

حين وقفت، لم تحمل في عينيها سوطًا من عتابٍ ولا رصاصةَ لومٍ جاهزةً للإطلاق. كانت وقفتها صلاةً مؤجلة، وسؤالًا معلقًا على شفتيها كدمعةٍ تتهيّأ للسقوط ولا تسقط. بصوتٍ لامس روحه كريحٍ تسرّب عبقَ تينٍ قديمٍ إلى غرفةٍ صارت تضيق بأنفاسهم، همست:

«كنتَ تعدني بجنّة...»

لم يكن في الجملة خنجرٌ ولا مرارةُ خصام. كانت كندى الصباح يطرق ورقة ذابلة، أو كحنينٍ متعبٍ يُفتّش عن صدرٍ يختبئ فيه من

صقيع الواقع. كان في قولها رجاءٌ مبطّنٌ بأن تظل تلك الجنة، التي وُعدت بها ذات حبٍّ، قادرةً على النجاة من خرابٍ تسلل إلى كل زاويةٍ في الروح.

في عينيها قرأ كلّ شيء: سؤالًا بلا كلماتٍ عن وطنٍ تبدّد، عن عشٍّ بنوه من هشيم الأماني فتصدّع، عن ظلّ صغيرٍ لم يأتِ، ومع ذلك ظلّ حاضرًا كقنديلٍ خافتٍ في ممرّات البيت. رفع رأسه. كأنّ عنقه يحمل عُمرًا من الخيبات. تطلع إليها فلم يجد فيها مرآةَ اتهام، بل وجد نافذةً تكشف له أطلاله هو. وجد في سواد عينيها صدى انكساراته، ظلَّ الطفل يتسلّل بين رموشها كسؤالٍ مستحيل.

أيّ جوابٍ يحمله لها، والجنّة التي رآها تُزهر في صدره تحوّلت إلى أطلالٍ يزورها الحنين؟ كيف يمدّ يده الآن ليقطف لها وردةً من بستانٍ احترق؟ كانت روحه تريد أن تعتذر، لكن الاعتذار أضعف من حطامٍ كهذا. كان صمته اعترافًا بأنّ وعود الأمس صارت هشّةً أمام سطوة الأيام.

لكنّها لم تكن تطلب وعدًا جديدًا. كانت تسأل عن بقايا ذلك الوعد الأول: هل كان حلمًا هشًّا من ورق؟ أم أنّ في رماده جمرةً باقيةً تحت الركام؟ في تلك اللحظة فهم أنّ بعض الأسئلة لا تنتظر جوابًا بقدر ما تنتظر اعترافًا خافتًا بأنّ الأمل، رغم خيانته، لا يموت تمامًا.

ربما لم تبقَ جنّةٌ تليق بهما إلاّ تلك المساحة الصغيرة في صدر كلٍّ منهما، حيث يلتقيان صامتين، ويُسدلان الستار على ضجيج العالم. ربما لم تبقَ لهما سماءٌ واسعةٌ يُعلّقان فيها أرجوحة طفلٍ ضحكته تشبه صباحات الوطن. لكن بقي بينهما خيطٌ دقيقٌ من صبر، يمتدّ كجذور شجرةٍ لا تهلكها الرياح، لأنّها تؤمن أنّ تحت الأرض حياةً أخرى، وأنّ للحبّ شمسًا صغيرةً لا تغيب.

ساد الغرفة سكونٌ يشبه تنفّس صدرٍ مثقلٍ باليقين الموجع، كأنّ كلماتها كانت حصاةً صغيرةً أُلقيت في بئرٍ عميقةٍ من الذكريات، فارتجّت مياه الصمت وارتعشت معها أرواحٌ طالما ظنّت أنّها ماتت واقفةً.

«كنتَ تعدني بجنّة...»

عبارةٌ نُطِقَتْ بحجم الفقدان كلّه، ارتطمت بجدارٍ بناه حول نفسه حجَرًا فوق حجَر، جدارٍ لم يكن يحميه منها، بل يحميه من هشاشته أمامها.

نظر إليها، بعينين شاختا من فرط الانتظار، ولم تزالا تحتفظان بذلك البريق الغامض لرجلٍ ما زال فيه بقيةٌ من عناد الحبّ. في تلك اللحظة، مدّ يده لا ليزيل خصلة شعرٍ هاربة، ولا ليمسح دمعةً تأهّبت على طرف هدبها، بل مضى نحو معصمها، تلك المنطقة

الصغيرة التي تختصر سرّ الحياة، كأنّه يفتّش بأصابعه عن دليلٍ بأن النبض ما زال عنيدًا، بأن شريان الأمل لم ينقطع تحت مقصلة الخيبات.

راح إبهامه يتحرّك على جلدها بحذرٍ يشبه صلاةً هامسة، يخطّ فوق عروقها الزرقاء خرائط نجاةٍ لا يقرؤها سواهما. كان يتحسّس نبضًا يحاول أن يتذكّر صوته، ويستعيد وعدًا لم يمت مع ما مات من مواسم وفرص وأحلام. في لمسته تلك، كان اعتذارًا خافتًا ووعدًا جديدًا، اعتذارًا لم يُنطق من قبل، ووعدًا لا يشبه كل الوعود التي انكسرت تحت ركام الأيام.

رفعت رأسها إليه، تقرأ في ملامحه خرائط الزمن الراحل، وفي يده تلك المساحة الصغيرة التي حاول أن يجعلها وطنًا حين خانته الخرائط الكبيرة. شعر بنبضها يرتعش تحت يده، فرفع عينيه إليها، بعينين غائرتين كسفينتين غارقتين في بحرٍ لا مرسى له، لكن في أعماقهما شرارةٌ باقية، مثل جمرةٍ في رمادٍ ينتظر نسمةً لتوقظه.

«لم أَعِدْكِ بجنّة...»

قالها بصوتٍ حفرته الخسارات، كأنّه يعترف بشيءٍ أكبر من كل كلامٍ قيل.

«وعدتكِ بي... بكلي...»

توقف لحظة، يتنفّس ثقل المعنى الذي لم يعد يليق به أن يُكمل، ثم زفرها ببطءٍ كمن يلقي حمولةَ قلبٍ على رصيفِ صمتها:

«برجلٍ... لا يعرف كيف يهرب...»

كانت جملته حجرًا آخر يُسقِطُه في بئرٍ بينهما، لكنّ الحجر هذه المرّة لم يغرق، بل صنع تموّجًا خافتًا في سطح مياههما الراكدة. بقيت يده على معصمها كقفلٍ صغيرٍ على بوّابةٍ صدئة، كأنّه يوقّع بلمسته الأخيرة عقدًا وحيدًا لم يُمزّقه الزمان: أنّه هنا، رغم كل شيء، رجلٌ لا يُتقن الهرب... حتى منها.

علِقت كلمة «يهرب» بينهما كقنديلٍ انطفأ نصفه وبقي نصفه الآخر يذكي عتمةَ الغرفة بوميضٍ متردّدٍ. لم يكن الهروب مجرّد فكرةٍ طارئة، بل كان غوايةً يوميّةً تلوّح له من نوافذ الأيّام: الهروب من وطنٍ تكسّرت أضلعه، من صمتٍ يُخرِس أكثر ممّا يصون، من ظلّ طفلٍ لم يتكوّن، من عتابها الذي يُتقن الصمت أكثر من الكلام، ومن تلك الذكريات التي صارت، رغم بهائها القديم، شفراتٍ تقطّع قلبه كلّما حاول الفرار منها.

كان بإمكانه، لو أراد، أن يُلقي قلبه في تيهٍ بلا جذور، في خدرٍ يُنسيه اسمه وعنوانه وصوته. كان بإمكانه أن يصير رجلًا عابرًا في حياةٍ عابرةٍ. لكنّه، كما همس، لم يُحسن الهرب. لم تكن بطولةً تليق بحكايات المجد، كانت خيانةً مضادّةً للخيانة، عقابًا ذاتيًّا

يرتضيه على كتفيه، ليبقى شاهدًا على رماد الجَنّة التي تشقّقت تحت أقدامهما.

قالها ببطءٍ، بصوتٍ يشبه جمرةً تتحرّك في صدر الليل:

«حَتّى لَوِ احْتَرَقْتُ فِي مَكَانِي...»

الاحتراق لم يكن مجازًا يصنعه البلاغة، كان جمركًا يُدفع كلّ ليلة. كان لهبًا يقيم بين أضلعه، يحرقه ببطءٍ كلّما لامس ذاكرتها، وذاكرته، وصورة وطنٍ خذل فيهما أحلامهما قبل أن يخذلهما هو. كان يحترق هنا، في هذا الكرسي المهترئ، في هذه الزاوية التي ظنّاها يومًا عرشًا صغيرًا لحبّ كبير، في غرفةٍ لم تتّسع لطفلٍ، واتّسعت لظلالٍ كثيرةٍ تشهد على خيباتٍ لم تُقل.

أتراه اختار الاحتراق؟ أم أنّه لم يجد بابًا للهروب؟ ربّما كليهما. لكنه يعرف، يعرف يقينًا أنّ احتراقه لم يكن نهايةً عبثيّةً، بل معنىً واحدًا صلبًا سكب كلّ الرماد في كلمته الأخيرة التي خرجت من بين رماد صدره كنُدبةٍ هادئةٍ:

«لِيَبْقَى لَكِ ظِلٌّ تَسْتَنِدِينَ عَلَيْهِ...»

الظلّ هنا لم يكن خيالاً عابرًا يتقلّب مع شمسٍ راحلة، كان يقينه الأخير في معناه كلّه. هو لا يمنحها جَنّةً من زهورٍ وأطفالٍ وضحكاتٍ، لأنّ الجنة عندهما ضاعت بين الوطن والحلم

والانتظار. يمنحها ما بقي له: ظلّه. ظلّه الذي يشبه بقاياه، ظلّه الذي لا يُرى ولا يزول، ظلّه الذي يصير وطنًا صغيرًا تضع رأسها عليه حين ينهار جدار قلبها. ظلّه الذي يرافقها حين تتعثّر وحدها، في زمنٍ صارت فيه الوحدة أكثر رفقًا من الرفاق.

يعرف أنّها قويّةٌ بما يكفي لتسند العالم لو شاءت، لكنّه يصرّ أن تكون لها زاويةٌ تستند إليها إن خانتها القوّة. يعرف أنّ الاحتراق في مكانه ليس هزيمةً، بل شكلٌ أخيرٌ من أشكال الحماية، حراسةٌ صامتةٌ لحبٍّ لم يُكتب له أن يُزهر، لكنه أصرّ أن يبقى، على هيئة ظلّ... لا يهرب.

ها هي، تقرأ صمته كما تُقرأ القصائد السرّية، وتلمس كلماته بأطراف قلبٍ تعلّم الحكمة من فرط ما خُذل. كانت كلماته ممهورةً بصدقٍ يقطر من بين هدبَيه، وكأنّ احتراقه ليس سوى صلاةٍ خفيّةٍ ليظلّ ظلًّا لها، حين تتناسل الرياح حولهما بلا مأوى. لم تكن جنّتها الموعودة تُشبه أساطير الفردوس، بل كانت يقينًا من لحمٍ ونار، تجرح لتمنح، وتُوجِع لتُبقي.

هو رجلٌ اختار أن يكون حجَرًا في مجرى النسيان، لا ليُغيّر مسار الماء، بل ليقول للنهر: هنا ضفّةٌ صلبةٌ لا تجرفها الأحلام. كانت تعرف، حين شبكت أصابعها بمعصمه، أنّه اختار احتراقه

طوعًا ليكون شجرة ظلٍّ في صيفها القاسي، وأنّ صبره غيمةٌ وحيدةٌ تلوّح لبساتين وعدٍ أكلتها الحرائق قبل أن تورق.

كانت تلك الندبة، فوق قلبها، كلمةً ناقصةً من حبرٍ لم يجفّ، سطرًا من سفرِ خيبةٍ كُتب بلغةٍ لم يتعلّم أحدٌ نطقها. هي ندبةٌ تحمل سرَّ معركةٍ لم يشهدها سواها، ولم ينتصر فيها أحد. وحين اقترب منها، في ذلك المساء الذي انسكب شفقُه دمعةً كُحليّةً فوق أرصفةٍ ملت التعب، شعرت أنّ الضوء الذي تراقص بينهما لم يكن سوى شمعةٍ أخيرةٍ، تفضح المسافة بين ظلَّيْن تشبّثا ببعضهما، كي لا يُذريهما الليل.

هكذا، وقفت معه عند حافّة الرماد، تحت سماءٍ صامتةٍ لا تَعِد بمطر، ولا تهدّد بحرائق جديدة. كلّ ما بينهما كان ظلالًا تطولُ كأنّها تبتكر لهما أرضًا ثالثةً، لا هي جنةٌ مُستعارةٌ ولا جحيمٌ مُطلقٌ، بل احتمالٌ دافئٌ لصبرٍ يليقُ بروحينِ تعلّمتا أن تحتضنا الريح ولا تنكسرا.

وفي هدأة الضوء الأخيرة، حين صار النهارُ يلفظ أنفاسَه مثل طائرٍ أنهكه التحليق، رفع يده ببطءٍ كمن يطالع آيةً من سفرٍ مقدّسٍ منسيّ. كانت حركته تمشي على حوافّ الصمت، كلمسةٍ تستأذن الذاكرة قبل أن توقظها. وحين لامس بإبهامه الندبة المستقرة فوق

قلبها، بدا كمن يقرأ نصًّا محفورًا على جلدٍ هشٍّ لا يحتمل المزيد من المعنى، ولا يقوى على الجحود.

كانت لمسته خفيفةً حدَّ الريشة، ثقيلةً حدَّ السنوات المختبئة في مسامّ ذلك الجلد القاسي حول الندبة. إصبعٌ واحدٌ احتضن كلَّ احتمالات الألم التي سكبتها الحياة في صدرها ذات خوفٍ قديم. ما كانت الندبة بحاجةً إلى شرحٍ أو نطقٍ أو حروفٍ زائدة. هي كانت لغتهما السرّية: بقايا عناقٍ لم يكتمل، صرخةٌ لوَلدٍ لم يُولد، سطرٌ من خريطةِ روحٍ أُجبرت على أن تلتئم على غير ما خُلقت له.

بتلك اللمسة البطيئة، اعترف بجرحها، بل جرحهما معًا. قرأ صبرها من تضاريس الندبة كما يقرأ مُحبٌّ خريطةً لمكانٍ يحفظه ولا يجرؤ على مغادرته. هو وحده كان يعرف ثمنَ بقاءٍ يُشبه الرحيل في كلّ لحظة. وحده يدرك أنّ القلب الذي يضمد نفسه كلّ ليلةٍ يظلُّ ينزفُ سرًّا من مكانٍ لا تراه العيون.

لكنّ الصمت الذي تسرّب بعد اللمسة، كان غدّارًا مثل بحرٍ ينقلب على زورقٍ واثق. ما عاد ملاذًا، بل صار موجًا يجرُّها إلى أعماقٍ لم تعهدها. شعرتْ أنّ الأرضَ تنفرط تحت قدميها كحصى صغيرٍ على حافة هاوية، وأنّ الهواء تحوّل إلى ماءٍ مالحٍ يقتحم رئتيها بلا رحمة. لم تجد في عينيه جوابًا، ولم تجرؤ أن تبحث عنهما فيهما، بل أطلقت سؤالها في الفراغ الذي تمدّد بين قلبين

صامتين كحجرين على ضفّتَين:

«ولكن... لماذا أشعر أنّني أغرق؟»

لم يكن سؤالها ذاك سؤالًا على مقاس المنطق، ولا محاولةً لانتشال جوابٍ جاهزٍ من خزائن الكلام المستهلك. كان شهقةَ روحٍ أنهكها حملُ الخيبة، وبُحَّ صوتها من الصمت الطويل. كان صدى ارتطامٍ داخليٍّ، تساقطت فيه جدرانُ صبرٍ ظنّتها منيعةً، فإذا بها تتهدّمُ تحت وطأة ماءٍ لا يُرى، يُغرقُ القلب في غرفةٍ جافّةٍ، يملأ الرئتين هواءً ويترك الروح تختنق كغريقٍ بلا موج.

كيف لها أن تُفسّر لنفسها أنّها تغرق وهي تجلس على أرضٍ ثابتةٍ، أنّ صدرها يضيقُ وهي في حضرةِ من ظنّته شاطئًا يردّ عنها هياج البحر؟ كان الغرق استعارةً لزلزالٍ في الداخل، لثقلِ وطنٍ يُحتضر في عينيها، لطفلٍ لم يكتمل نبضه في رحم الأمل، لحبٍّ يُصرّ على أن يكون حيًّا ولو بصمتٍ صار شاهدًا على عجزهما عن اقتسام الفردوس فوق ركام الخراب.

سمع صدى السؤال كما يسمع إنسانٌ انهيار بيته بلا صوت. لم يبحث عن كلماتٍ تُنقذها من ملوحةِ اختناقها، فما كان للكلمات أن تُجيد دورَ قارب النجاة. اقترب منها كما يقترب المنفى من وطنٍ يتذكّره، وضمّها إليه. لم يكن عناقًا صاخبًا يستعرض رجولةً

مُصطنعةً، ولا قيدًا يحاصر ارتعاشها. كان عناقًا واهنًا بقوّته، دافئًا بحزنٍ يتكتّم عليه، خفيفًا كنسمةٍ في حضرةِ حريق.

كان يضمّها كي لا تتفتّت. كي لا يتركها للفراغ الذي يتسلّل بينها وبين يقينها بأنّ الأرض ما تزال تحت قدميها. شدّ عليها ذراعيه كما يُشدّ الغلاف على كتابٍ مقدّسٍ تشرّبت أوراقه العتمة، أو كما تحتضن التربة بذرةً تخشى عليها من لعنة الريح. جعل من صدره قوسًا يحمي هشاشتها من شظاياها، ومن دفء جلده جسرًا يُذكّرها بأنّها لم تزل جسدًا من نبضٍ، كيانًا لم يُفرغ بعد من أجزائه، أنّها ما تزال قابلةً لأن تُحتضن، أن تُؤمن بأنّ الغرق ليس قدرًا إذا وُجد من يمدّ ذراعيه قاربًا من صدرٍ يُقاوم انكسارها بانكساره.

التصقتْ به، تستنشقُ رائحةَ قميصه القديم، الممزوجةً بعبقِ التبغِ والحنين. في حضنِه، بينما كان قلبُه يدقّ تحت أذنها كطبولِ حربٍ بعيدةٍ، همسَ بكلماتٍ جاءت هادئةً، وعميقةً، كحكمةٍ استُخرجتْ من عمقِ منجمِ التجربةِ المريرة:

«لِأَنَّنَا بَشَرٌ...»

كانت الكلمةُ مفتاحًا. فالبشريةُ هنا ليست عذرًا، بل هي تفسيرٌ للعجزِ، للقصورِ، للهشاشةِ في مواجهةِ الكونِ. همسَ مُوسّعًا، وكلماته تُنسجُ خريطةً جديدةً لوجودِهما، خريطةً تختلفُ كليًا عن تلك التي وعدَ بها في زمنِ السذاجةِ:

«نَصْنَعُ الخَرِيطَةَ بِأَخْطَائِنَا...»

الخريطةُ! لم تعد هنا ذلك المخطّطَ الواضحَ الذي يقودُ إلى جنةٍ مؤكدةٍ. صارت الخريطةُ الآنَ وثيقةً ملوّنةً ببقعِ الفشلِ، مرسومةً بخطوطٍ مرتعشةٍ، تحملُ في طيّاتها ألغازَ الضياعِ والارتباكِ. الأخطاءُ ليست انحرافاتٍ عن الطريقِ، بل هي الطريقُ نفسُه. هي اللبناتُ التي يُبنى عليها الوجودُ المشتركُ، رغمَ مرارتها. ثمّ أضافَ، وكأنّه يغوصُ في أعماقِ تلك الخريطةِ المليئةِ بالعثراتِ:

«بِخَسَارَاتِنَا...»

الخساراتُ ليست حوادثَ عابرةً، بل هي معالمُ أساسيةٌ في جغرافيةِ الروحِ. خسارةُ الوطنِ كما عرفاهُ، خسارةُ براءةِ الحبّ الأولى، خسارةُ طفلٍ ظلُّه أثقلُ من غيابِه، خسارةُ الثقةِ بأنّ الحياةَ ستمنحهُما ما يستحقّان. هذه الخساراتُ ليست فجواتٍ في الخريطةِ، بل هي أوديةٌ عميقةٌ تُضفي عليها معنى، وتُعطي الارتفاعَ قيمتَه. ثمّ جاءتِ الكلماتُ الأخيرةُ، الأكثرَ إيلامًا والأكثرَ صدقًا:

«بِالمَرَّاتِ الَّتِي لَمْ نَعْرِفْ فِيهَا كَيْفَ نُحِبُّ، لَكِنَّنَا حَاوَلْنَا.»

هنا جوهرُ البشريةِ في مواجهةِ المثالِ. الاعترافُ بأنّ الحبَّ، هذا السرّ الكونيّ، لم يُمنحْ لهما كهديةٍ تامةٍ. كانا أحيانًا كأطفالٍ يلعبون بالنارِ، يحرقون أنفسَهما قبل أن يتعلّما كيف تُشعلُ الشمعةُ

دون إيذاءِ. مرّاتٌ أغلقتْ فيها الأبوابُ، ومرّاتٌ ألقَيا فيها الكلماتِ كحجارةٍ، ومرّاتٌ تاهَ كلٌّ منهما في صحراءِ تأنّى به. لكنّ المحاولةَ نفسَها كانت فعلَ بطولةٍ. المحاولةُ هي البوصلةُ التي حافظتْ على اتجاهِهما، حتى لو تاهتِ الإبرةُ. المحاولةُ هي الدليلُ على أنّ الرغبةَ في البقاءِ معًا، في ظلّ هذا الوطنِ المنكسرِ، وفي مواجهةِ هذا الغرقِ الوجوديّ، كانت أقوى من كلّ أسبابِ الهروبِ.

التصقتْ به أكثرَ، وكأنّ كلماتهِ كانت حبلَ نجاةٍ ألقاهُ لها في بحرِ يأسِها. أدركتْ أنّ هذا الحضنَ، وهذه الخريطةَ المرسومةَ بالأخطاءِ والخساراتِ والمحاولاتِ الفاشلةِ، هي الأرضُ الوحيدةُ التي يمكن أن تقفَ عليها الآنَ. ربّما لن تختفيَ رائحةُ الغرقِ، لكنّها تعرفُ الآنَ أنّ هناكَ يدًا تمسكُ بها وهي تهبطُ، وأنّ هناكَ صخرةً اسمها بشريّتُهما المشتركةُ، يمكن أن تستندَ عليها حتى في عزّ العاصفةِ. لأنّهم بشرٌ... وهذا وحدهُ، في هذا الزمانِ، قد يكونُ بدايةَ جنةٍ حقيقيةٍ، جنةٍ لا تُبنى بالكمالِ، بل بالصبرِ على نقصِانِها.

لم يكن اختفاءُ الشمعةِ انطفاءً، بل كان ارتحالًا. لهبٌ صغيرٌ كان يُصارعُ الظّلامَ طوالَ السّاعاتِ، يُذكّرُ بوهجٍ غابرٍ، ويُرسلُ رقصاتِه الذّهبيةَ على الجدرانِ كخُطى أشباحٍ تودّعُ المكان. حين تهاوتْ أخيرًا، مُرسلةً عمودًا رفيعًا من الدُّخانِ الأبيضِ كروحٍ تتحرّرُ، لم يشعرا بأنّ الظّلامَ غريبٌ. كان الظّلامُ هنا ضيفًا قديمًا، يعرفانِ

طريقه إلى زوايا هذه الغرفةِ التي صارتْ أشبهَ بكهفٍ للذّكرياتِ المُعلّقة. لم يكن غيابُ النّورِ إلّا إعلانًا عن عودةِ سيّدِ اللّيلِ إلى عرشِه، وسحبِ السّتائرِ على مشهدٍ كانا هما بطلَيهِ الوحيدَينِ.

في هذا الحِجابِ الأسودِ الذي خلّفتهُ الشّمعةُ، حيثُ صارتِ الأشياءُ ظِلالًا تتنفّسُ، اقتربتْ شفتاها من شفتَيه. لم تكنْ قبلةً باندفاعِ العشّاقِ المُولَعينَ، ولا بشراهةِ الجِياعِ إلى اللّذّةِ. كانتْ قبلةً هادئةً، عميقةً، كأنّها ختمٌ على ميثاقٍ. كما يُعادُ الوعدُ القديمُ بلُغةٍ لم تُكتَبْ في الكُتبِ، بل نُقِشَتْ في لغةِ الجسدِ والأرواحِ التي تعرفُ بعضَها بلا حروفٍ. كان طعمُها مالحًا كدموعٍ مُجمّدةٍ، وحارًّا كجمرةِ صبرٍ. في لمسةِ شفتيها إيّاهُ، كان هناكَ استسلامٌ للحقيقةِ الأعمقِ: أنّ الحبَّ ليسَ دائمًا ضوءًا صاخبًا، بل هو أحيانًا صمتٌ يُضاءُ من داخلِهِ، كالفحمِ الذي يحترقُ في باطنِ الأرضِ دونَ لهبٍ ظاهرٍ.

ثمّ همستْ. لم يكنْ همسُها كلامًا عاديًّا، بل كانَ كأنّها تُنهي صلاةً. كلماتٌ مُقدّسةٌ خرجتْ من أعماقِ حَنينٍ يُشبهُ التّضرّعَ:

«إذَنْ لِيَكُنِ الظّلامُ... طَالَمَا يَدُكَ، بَعْدَ كُلِّ هَذَا، مَا زَالَتْ تَبْحَثُ عَنْ يَدِي.»

في هذه الكلماتِ، كانتْ فلسفةٌ كاملةٌ للوجودِ. لم تطلبِ الضّوءَ، ولم تلعنِ العتمةَ. قبلَتْ بالظّلامِ كشرطٍ من شروطِ الرّحلةِ، شرطٌ

لا يُناقَشُ. ما عادَ يهمُّها النّورُ طالما أنّ يدهُ- بعد كلّ الخيباتِ، بعدَ سنواتِ الصّمتِ التي أكلتْ زهرَ عمرِهما، بعدَ غيابِ الطّفلِ الذي صارَ شبحًا، بعدَ تحوّلِ الوطنِ إلى غريبٍ- ما زالتْ تبحثُ عن يدِها في العتمةِ. هذه اليدُ التي لم تَهلعْ، ولم تتردّدْ، ولم تتخلَّ عن مهمّتها الرّاسخةِ في العثورِ على يدِها وسطَ الظلامِ، كانتْ هي الخريطةَ والبوّابةَ والملاذَ. كانتْ تلميحًا بأنّ الحبَّ الحقيقيَّ لا يموتُ بانطفاءِ الشّموعِ، بل يتكيّفُ مع الظّلامِ، ويجدُ طريقَهُ باللّمسِ لا بالبصرِ.

وفي الأعماقِ، حيثُ لا ضوءَ يصلُ، عندَ أقدامِ الشّجرةِ القديمةِ التي تقفُ في زاويةِ الحديقةِ المُهمَلةِ كشاهدٍ أخرسَ على ماضيهما، كانَ شيءٌ صغيرٌ يتحرّكُ تحتَ الرّمادِ. لم يكنْ حيوانًا، ولا حشرةً عابرةً. كانَ حركةً غامضةً، كأنّما الأرضُ تتنفّسُ، أو كأنّ جذورَ الشّجرةِ العتيقةِ، التي ظنّها الجميعُ ميّتةً، تُحاولُ أن تدفعَ شيئًا ما نحوَ السّطحِ. شيءٌ صغيرٌ، عنيدٌ، يخترقُ طبقاتِ الرّمادِ الباردةِ التي خلّفتها نيرانُ الخيبةِ. ربّما بذرةٌ سقطتْ ذاتَ خريفٍ، وقرّرتْ أن تنبتَ رغمَ كلِّ شيءٍ. أو بيضةُ طائرٍ ضائعٍ، اختارتْ هذا القبرَ الدّافئَ تحتَ الرّمادِ لتفقسَ في الظّلامِ. أو مجرّدُ حجرٍ يتحرّكُ ببطءِ الزّمنِ الجيولوجيِّ، غيرَ آبهٍ بتغيّرِ العوالمِ فوقَهُ.

هذه الحركةُ الخفيّةُ تحتَ الرّمادِ، في ذلكَ العمقِ المُظلمِ الذي لا تُدركُهُ عينٌ، كانتْ كأنّها رسالةٌ من باطنِ الأرضِ إلى باطنِ

روحَيهِما. رسالةٌ تقولُ: إنّ الحياةَ لا تنتهي بانطفاءِ الشّمعةِ. وإنّ الظّلامَ ليسَ نهايةَ الطّريقِ، بل هو حجرةُ الانتظارِ حيثُ تُحضّرُ الحياةُ عودتَها بصمتٍ. وإنّ الرّمادَ، هذا الرّمادُ الذي يُغطّي كلَّ شيءٍ، ليسَ قبرًا، بل هو سريرٌ للولادةِ الجديدةِ. الشّجرةُ القديمةُ التي احترقتْ أغصانُها، وظنّها النّاسُ جثّةً هامدةً، ما زالتْ حيّةً هناكَ في الأعماقِ. جذورُها تتلمّسُ الظّلامَ، وتشربُ من ماءِ الأرضِ الخفيّ، وتُعدّ العُدّةَ للانتفاضةِ القادمةِ. وهذا الشّيءُ الصّغيرُ الذي يتحرّكُ- سواءٌ أكانَ بذرةً أم جنينًا أم نبضًا- هو وعدٌ صامتٌ بأنّ الزّمنَ، ذلكَ السّاحرُ العجوزُ، ما زالَ يحتفظُ بأوراقِهِ الأخيرةِ.

كانتْ يدُهُ لا تزالُ تبحثُ عن يدِها في الظّلامِ. وكانَ شيءٌ صغيرٌ يبحثُ عن طريقِهِ إلى النّورِ تحتَ الرّمادِ. في هذا التّوازي الغريبِ، بينَ سطحٍ يُعانِقُ اليأسَ وأعماقٍ تُعِدُّ الأملَ، كانَ جوهرُ «الصّبرِ» يتجلّى. ليسَ صبرًا سلبيًا، بل صبرًا فعّالًا كجذورِ الشّجرةِ، يشتغلُ في الخفاءِ. صبرٌ يعرفُ أنّ الظّلامَ موسمٌ عابرٌ، وأنّ الرّمادَ هو تربةُ الخصبِ القادمِ، وأنّ اليدَ التي تبحثُ عن يدٍ أخرى في العتمةِ، هي نفسُها شمعةٌ لا تُطفأُ، وقبسٌ من جمرةِ الحياةِ التي تُصرُّ على الاحتراقِ حتّى في قبضةِ الفناءِ.

في عُمقِ الغابةِ، حيثُ تُنسجُ الأشجارُ ظُلَلًا كأنّها أثوابُ الكهنةِ القُدامى، والأغصانُ المتشابكةُ تُشبهُ أذرعًا خضراءَ تَمسكُ

بالأسرارِ، كان الصمتُ يتنفّسُ بأنفاسٍ رطبةٍ تحملُ عبقَ القرونِ. هنا، بين جذوعٍ شائخةٍ تَحمِلُ ندوبَ البروقِ، تَهمسُ الحوريّاتُ الخشبيّةُ حِكاياتٍ عن ضالّينَ تاهوا في دُروبِ النّدمِ، وعن عُشّاقٍ أضاعوا بوصلتَهم بينَ طُرُقٍ لا عودةَ منها. الريحُ هنا ليستْ هواءً، بل لغةٌ تترجمُ أنينَ الجذورِ، وصريرَ الأوراقِ المُحتضرةِ كأحلامٍ لم تكتملْ. في هذا المَعبدِ الطّبيعيِّ المُقدّسِ للفقدانِ، حيثُ تُعلّقُ السّنابلُ الباكيةُ دموعَها على أغصانِ السّنديانِ، يعلو البناءُ الرُّخاميُّ كشاهدِ قبرٍ على جثّةِ زمنٍ مَيّتٍ.

لم يَعدِ الرُّخامُ الأبيضُ يلمعُ كما كانَ، بل غمره اللّبلابُ كأنّهُ بحرٌ من الخِضرةِ المُتلاطمةِ، فصارَ كندبةٍ خضراءَ على وجهِ الزّمنِ. كُلُّ ورقةٍ فيهِ كتابةٌ مُشفّرةٌ لحكايةِ عاشقٍ، وكلُّ جذرٍ يخترقُ الحجارةَ كإصبعِ حَنينٍ يَبحثُ عن قلبٍ توقّفَ عن الخفقانِ. الأعمدةُ التي صُمّمتْ لتحملَ السّقوفَ، صارتْ تحملُ أثقالَ الذّكرياتِ، والرُّخامُ الذي نُحتَ ليكونَ أملسَ كجلدِ طفلٍ، صارَ خَشنًا ككفِّ شيخٍ يُمسكُ بحفنةِترابٍ أخيرةٍ. النّوافذُ العاليةُ، التي كانتْ تستقبلُ ضوءَ الشّمسِ، صارتْ عيونًا مكسورةً تُحدّقُ في الفراغِ، تَقطرُ منها ظلالٌ طويلةٌ كأشباحِ العشّاقِ المنسيّينَ.

في قَلْبِ هذا الصّرحِ المهيبِ الذي يُشبهُ جرحًا نازفًا في جسدِ الغابةِ، بينَ الجُدرانِ التي تحفظُ أنينَ العُشّاقِ كرجعِ صدى في

قارورةٍ زجاجيّةٍ، تنبضُ شموعٌ لا تنطفئُ. ليستْ شموعًا عاديّةً، بل هي كلماتُ صلاةٍ مُتّقدةٍ، ونُذورٌ ذَرَفَتْها أرواحٌ لم تُشفَ من الوداعِ. كُلُّ شمعةٍ فيها لهبٌ بلونٍ مختلفٍ: أُرجوانيٌّ كدمعةٍ في ليلةِ فراقٍ، أزرقُ كحلمٍ ضائعٍ في البحرِ، أحمرُ كقلبٍ مُثقوبٍ بالغيابِ. لهيبُها يرقصُ رقصةَ الدراويشِ في صمتٍ، وكأنّما يخاطبُ الظّلامَ بلغةِ النّارِ: «أنا هنا، ما زلتُ أذكرُ، ما زلتُ أتألمُ». رائحةُ الشّمعِ الذّائبِ تملأُ الفضاءَ كبخورِ معبدٍ للآلهةِ الحزينةِ، تُخلّدُ ذكرى أيدٍ التمستْ بعضَها في هذا المكانِ ثمّ تفرّقتْ إلى الأبدِ.

كانَ المكانُ يُدعى «معهدُ التّربيةِ الخفيّةِ»، لكنّ لا أحدَ يعلمُ من أسّسهُ. هل كانَ فيلسوفًا مُحطَّمَ القلبِ؟ أم راهبةً خائبةَ الحُبِّ؟ أم شاعرًا رأى في آلامِ العشّاقِ منهجًا للخلاصِ؟ الأكيدُ أنّه لم يُبْنَ لعبادةِ أرواحِ السّماءِ، بل لطقوسِ آلامِ القلوبِ. الزّمنُ فيهِ لا يُقاسُ بالسّاعاتِ، بل بعددِ المرّاتِ التي انعكستْ فيها نَظَراتُ البشرِ كسُيوفٍ في مرايا أنفسِهم. كلُّ زاويةٍ فيهِ مرآةٌ سوداءُ، لا تُعيدُ صورةَ الوجهِ، بل تُعيدُ صورةَ الجروحِ الخفيّةِ في الرّوحِ. الأرواحُ هنا لا تموتُ، بل تتكرّرُ كصدى في قاعةِ مرايا، كلُّ انعكاسٍ يُضيفُ طبقةً جديدةً من الأسئلةِ: من أنا؟ من كنتُ؟ من أردتُ أن أكونَ قبلَ أن يسرقَني الحُبُّ؟

بينَ هذهِ الصّورِ المُتشظّيةِ للذّاتِ، ظهرَ الحارسُ. رجلٌ قصيرٌ، يخطو خطواتٍ خفيفةً كأنّما يخشى إيقاظَ الأشباحِ النّائمةِ في

الزّوايا. عيناهُ لا تستقرّانِ، تسبحانِ في الفضاءِ كطائرَينِ حائرَينِ، تُراقبانِ كلَّ شيءٍ ولا تُمسكانِ بشيءٍ. كانَ يُشبهُ ساعةً رمليةً تمشي على قدمَينِ، رمالُها ذكرياتٌ لا تستقرُّ في مكانٍ. أوقفَها أمامَ بابٍ عتيقٍ من خشبِ الجوزِ، مُنقوشٍ برموزٍ غامضةٍ لا تُقرأُ بالعَينِ، بل تُحسُّ بالجِلْدِ كندوبٍ قديمةٍ. راحَ إصبعهُ يتتبّعُ النّقوشَ كأعمى يقرأُ كتابَ برايلِ الألمِ، ثمّ قالَ بصوتٍ خفيضٍ كهمسِ الأمواتِ:

«هَلْ تَعْلَمِينَ لِمَاذَا صُمِّمَتْ غُرَفُ النَّوْمِ كَأَقْفَاصٍ ذَهَبِيَّةٍ؟»

صمتٌ ثقيلٌ سقطَ كغطاءٍ من رصاصٍ. كانتِ العبارةُ تُشبهُ مفتاحًا صدئًا يُديرُ قُفلًا في أعماقِها. نظرَ إليها بعينَيهِ المُتقلّبتَينِ، اللّتَينِ رأتَا آلافَ العُشّاقِ يدخلونَ بابَ الجنّةِ ويخرجونَ من بابِ الجحيمِ، ثمّ أتمَّ:

«لِأَنَّ الْحُبَّ، يَا سَيِّدَتِي، لَا يَنْمو إِلَّا فِي أَمَاكِنَ لَا مَهْرَبَ فِيهَا، حَيْثُ تُجْبَرِينَ عَلَى النَّظَرِ فِي عُيُونِ مَنْ ظَنَنْتِ أَنَّكِ تَعْرِفِينَهُ...»

كلماتُه كانتْ كسكّينٍ تشقُّ قشرةَ الوهمِ. الأقفاصُ الذّهبيةُ ليستْ سجونًا، بل هي مَرَاقِدُ للتّجليّ. في هذا الحبسِ الرّاقي، حيثُ لا نوافذَ للهروبِ، تُجبرينَ على مواجهةِ المرآةِ الحقيقيةِ: وجهُ من تحبّينَ. لا الوجهُ الذي صنعتهِ أحلامُكِ، بل الوجهُ الذي يحملُ شقوقَ بشريّتِه، وجروحَ طفولتِه، وأوهامَ رجولتِه. في هذا القفصِ الذّهبيِّ، تُكتشفُ الأرضُ الخصبةُ للحبِّ الحقيقيّ: ليستْ حديقةَ

أمانٍ، بل ساحةَ حربٍ معَ الذّاتِ والآخرِ. هنا، في ضيقِ المساحةِ، يتعرّى القلبانِ من أكاذيبِ الرّومانسيةِ، ويواجهانِ سؤالَ الوجودِ الأوحدَ: هل يمكنُ أن نعيشَ معًا في حقيقةِ من نكونُ، لا في أوهامِ ما نتمنّى أن نكونَ؟

عندَما انفتحَ البابُ المُنقوشُ، خرجَتْ منه نسمةٌ باردةٌ تحملُ عبقَ شموعٍ مُطفأةٍ منذُ قرونٍ، وصدى ضحكاتٍ مُجهضةٍ، وهمساتِ أجسادٍ تعلّمتْ أنَّ الحبَّ ليسَ جنّةً، بل معهدُ تربيةٍ خفيّةٍ. المكانُ كلّهُ كانَ درسًا في الصّبرِ: صبرِ الزّمنِ الذي ينسجُ خُضرةَ اللّبلابِ على جراحِ الرُّخامِ، صبرِ الشّموعِ التي تحترقُ لتُخلّدَ ما يُنسى، صبرِ القلوبِ التي تواجهُ مراياها في الأقفاصِ الذّهبيةِ. ربّما الصّبرُ هو الاسمُ الحقيقيُّ للحُبِّ. هو القدرةُ على الجلوسِ في الظّلامِ معَ من تُحبُّ، والنظرُ في عينَيهِ دونَ خوفٍ، والقولُ: «أنا هنا، لن أهربَ، حتى لو احترقنا معًا في قفصِ حقيقتِنا». لأنّ الحبَّ، في نهايةِ المعهدِ الخفيِّ، ليسَ إلّا شمعةً لا تنطفئُ في غابةِ الزّمنِ، تُضيءُ طريقًا لم يسلكهُ إلّا من امتلكَ شجاعةَ البقاءِ.

ها هي رائحة البخور تنسلُّ من أوردتها المحترقة، تصعد كأرواحٍ هائمةٍ تبحث عن غفرانٍ مستحيلٍ، تتماوج في فضاء القاعة العتيقة كرقصةِ ظلٍّ على حوافِّ ذاكرةٍ متعبة. لم يكن البخورُ عطرًا وحسب، بل كان سِفرًا مكتومًا من حروفٍ باكيةٍ، يُشرعُ أبوابَ

الغرف المقفلة في صدرها، يُخرجُ من أضلاعها سُحبًا من وجعٍ ظنّت أنّها أطفأته ذات نسيان. كلُّ نَفَسٍ كان وشايةً بأنّ الألم لا يموتُ، بل يتناسخُ في هيئة طقسٍ نُقيمه خاشعين كي نُقنع أرواحنا بأنّنا باقون رغم النزيف.

رائحةٌ تعرفها عن ظهرِ قلبٍ: بخورُ الجنائز التي شيّعت أحلامها وهي تمشي خلفها صامتةً كأرملةٍ فقدت حتى البكاء، بخورُ المذابح التي وُضِعتْ فيها براءتُها على مذبحِ النجاة، بخورُ الغرف المغلقة التي رتّقتْ فيها شقوقَ قلبها بدموعٍ مالحةٍ لم تجد شاطئًا يجمعها. رائحةٌ كوخزِ إبرةٍ في موضعٍ لا يراه أحد، تُنعش جرحًا تحالف مع الزمن على ألّا يلتئم، كأنّ الزمان نفسَه يبكي هنا، ودموعه تتقطّر في هواءٍ مضمّخٍ ببخورٍ يحفظ الندم طازجًا.

على الجدرانِ التي تغفو على كتفِ الحجر، تتدلّى اللوحات كأرواحٍ مسمّرةٍ في ذاكرةٍ رطبةٍ بالحزن. وجوهٌ أُفرِغَت من ألوانها، ملامحُ هربتْ من إطارها مثل روحٍ ضاقتْ بقيدِ الجسد. كأنّ الصور تعبتْ من حملِ ذنوبِ أصحابها، فقرّرت أن تمحو نفسها ببطءٍ، كمن يخلع جلده في خلوةِ الليل. عيونٌ لمعتْ يومًا بالشغف، انطفأتْ حتى صارتْ بقعًا داكنةً، كدمٍ قديمٍ تحجّر على قارعةِ الذاكرة. شفاهٌ همستْ يومًا بوعودٍ طريّةٍ، تفتّقتْ الآن شقوقًا جافةً في طلاءٍ يحتضر.

كان التلاشي بطيئًا حدَّ الفاجعة، صامتًا حدَّ الصراخِ الذي لا صوت له. رسوماتٌ تنتحرُ بخفّةٍ كأنّها تعترف أخيرًا بأنّ الحبّ كان وهمًا طويلًا، وأنّ الذاكرة تأبى أن تحمله أكثر. تُرى، هل تخون الصور أصحابها حين تُبهت، أم تُنقذهم من لعناتِ تذكُّرٍ موجع؟ وهل تموت الروح حين تقرّر أن تتسرّب من برواز مكسورٍ إلى حقل النسيان؟

كل لوحةٍ كانت آيةً من سفرِ الفشل، شهادةً مصلوبةً على جدارٍ نحتته الخيبات. لوحاتٌ تحرسُ العِبرة لمن عبرَ ذات حبٍّ من هنا وخرج مكسورًا، فلم يجد سوى بخورٍ يحرسُ حزنه، ورطوبةٍ تهمس له بأنّ القلب الذي بكى، سيظلُّ يرشُّ ندى الوجع على ذاكرةٍ تأبى أن تصدّق أنّ الصور تموت.

وسطَ هذا المشهدِ المُتفسّخِ بالذّكرياتِ، ظهرَ الحارسُ فجأةً كظلٍّ من ظلالِ المكانِ. كانَ يتحرّكُ بخفّةِ قطٍّ عجوزٍ يعرفُ كلَّ زاويةٍ. وقفَ خلفَها، ونظرَ إلى الجُدرانِ بعينَينِ كمنظارَينِ مكسورَينِ، ثمّ همسَ بصوتٍ خفيضٍ كحفيفِ أوراقٍ ميتةٍ:

«الَّذِينَ فَشِلُوا فِي الامْتِحَانِ...»

كلماتُه سقطتْ في الهواءِ كقطراتِ ماءٍ على سطحٍ مغليٍّ، فَورًا تبخّرتْ لكنّ حرارتَها بقيتْ. لم يكملْ جملتَهُ، بل أدارَ عينَيهِ المُتقلّقتَينِ نحوَ الممرّاتِ الطّويلةِ التي تبتلعُ الضّوءَ. كانتْ نظراتُهُ

تُشيرُ إلى فراغٍ مُحدّدٍ، لكنّها لم تَرَ شيئًا. أو ربّما رأتْ ما لا تراهُ العيونُ العاديّةُ. همسَ ثانيةً، وهذهَ المرّةِ كانَ صوتُهُ يحملُ رعشةَ خوفٍ، كأنّما يخشى أن يسمعَهُ أحدٌ من أولئكَ الذينَ:

«ذَابُوا فِي المَمَرَّاتِ كَضَبَابٍ، إِلَى أَنْ نَسُوا أَنْفُسَهُم...»

صمتٌ ثقيلٌ تَلاهُ. كانتِ الممرّاتُ تمتدُّ أمامَهما كأمعاءِ المكانِ، مظلمةً، رطبةً، تتنفّسُ بأنفاسٍ غريبةٍ. هل كانَ هناكَ أحدٌ؟ أم أنّ الحارسَ يتحدّثُ مع أشباحٍ صنعَتها ذاكرتُهُ؟ الضّبابُ الذي ذكرهُ لم يكنْ ضبابًا مائيًّا، بل كانَ ضبابَ النّسيانِ. أولئكَ الذينَ فشلوا في امتحانِ الحُبِّ، أو امتحانِ الصّمودِ، أو امتحانِ البقاءِ أنفسِهم، لم يرحلوا. هم هنا، يذوبونَ ببطءٍ في حجارةِ المعهدِ، في ظلامِ الممرّاتِ، في رطوبةِ الجُدرانِ. هم لا يمشونَ، بل ينسحبونَ كبُخارٍ، يتركونَ خلفَهُم بقايا أرواحٍ على الجدرانِ. ينسونَ أسماءَهُم، وجوهَهُم، أسبابَ حُزنِهم، حتّى أنّهم ينسونَ أنّهُم نسوا. يصبحونَ جزءًا من هذا الكيانِ الحجريِّ الحزينِ، يُسمّونَ «الضّبابَ» لأنّهم صاروا غيرَ مرئيّينَ إلا في لحظاتِ الشّفقِ، عندما تلمعُ ذرّاتُ وجودِهم الأخيرةُ قبلَ الزّوالِ.

سألتهُ بنظرةٍ لا تطلبُ إجابةً بقدرِ ما تطلبُ اعترافًا:

«وماذا كانَ الامتحانُ؟»

ابتسمَ ابتسامةً مرّةً كطلاءِ اللّوحاتِ المُتحلّلِ:

«لَمْ يَكُنْ امْتِحَانًا وَاحِدًا، سَيّدَتِي. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَاءَ إِلَى هَذَا المَكَانِ وَمَعَهُ سُؤالُهُ الخَاصُّ. بَعْضُهُمْ جَاءَ لِيَسْأَلَ: هَلْ يُمْكِنُ نِسيَانُ مَنْ لا يَنْسَى؟ وَبَعْضُهُمْ حَمَلَ سُؤالًا آخَرَ: هَلْ يُمْكِنُ البَقَاءُ بَعْدَ أَنْ تَصيرَ الظِّلَالُ وَطَنَكَ؟ امْتِحَانُهُمْ كَانَ فِي القُدرَةِ عَلَى مُواجهَةِ المَرَايَا. لَمْ يَسْتَطيعُوا. لَمْ يَتحمّلُوا رُؤيةَ حَقيقَةِ أنفُسِهِم فِي عَينَي الحُبِّ الفَاشِلِ. فَاخْتَارُوا أَنْ يَذُوبُوا... أَنْ يَصيرُوا ضَبَابًا...»

نظرَتْ إلى الممرّاتِ الطويلةِ. أترى هذا الضّبابَ الرّماديَّ الخفيفَ الذي يلمعُ تحتَ أشعّةِ القمرِ الضّئيلةِ؟ هل هي أرواحٌ حقًّا؟ أم مجرّدُ أوهامٍ صنعَها الحزنُ؟ ربّما هم الأكثرُ حكمةً. ربّما الفشلُ في الامتحانِ هو النّجاحُ الحقيقيُّ. لأنّ من يذوبُ في الضّبابِ لا يحملُ أسئلةً بلا أجوبةٍ، ولا يجرّ وراءَهُ جثّةَ ماضٍ. هو يتحرّرُ من ثقلِ الهُويّةِ، من عبءِ التّذكّرِ، من سُؤالِ: «من أنا؟». يصبحُ جزءًا من رطوبةِ المكانِ، ومن رائحةِ البخورِ، ومن ندى الحزنِ القديمِ. يصيرُ قصّةً من قصصِ الجُدرانِ التي ستتبخّرُ بدورِها يومًا ما، ككلِّ شيءٍ.

عندما ابتعدَ الحارسُ في الممرّاتِ كشبحٍ، شعرَتْ أنّ رائحةَ البخورِ ازدادتْ كثافةً. ربّما لأنّها الآنَ تعرفُ سرَّها. هي ليستْ مجرّدَ رائحةٍ، بل هي أنفاسُ أولئكَ الذينَ فشلوا في الامتحانِ.

أنفاسٌ تختلطُ بدموعِ الزّمنِ، وتُخلّدُ رقصةَ الضّبابِ الذي نسِيَ أنّه كانَ يومًا بشرًا. وتذكيرٌ بأنّ بعضَ الأرواحِ تَختارُ أن تَندملَ جروحُها بأنْ تذوبَ في ضبابِ النّسيانِ، لأنّ المواجهةَ معَ الذّاتِ في مرايا الحُبِّ الفاشلِ هي أقسى امتحانٍ. وهنا، في «معهدِ التّربيةِ الخفيّةِ»، الضّبابُ هو الإجابةُ الوحيدةُ على أسئلةٍ لا تُحتملُ.

كانتْ ليلةَ زفافِهما تشبهُ جنازةً بيضاءَ. لم تكنِ الأزهارُ المتفتحةُ على حوافِّ الطريقِ إلّا أكاليلَ حزنٍ متنكرةٍ، ولم تكنْ أنغامُ العودِ إلّا مراثيَ تُخبّئُ رنينَها تحتَ ستائرِ الفرحِ. في تلكَ الليلةِ، بينما كانَ القمرُ يغتسلُ بدموعِ السحابِ، دخلَ عليهما رجلٌ كأنّه ظلٌّ منسيٌّ من كتابِ أساطيرَ قديمٍ. كانَ أعمى، لكنّ عينيهِ المُطفأتَينِ تشعّانِ ببصيرةٍ مرعبةٍ، كبئرَينِ جافّينِ يُطلّانِ على عالمِ الأرواحِ. حملَ بينَ يديهِ علبةً من جلدِ أفعى، لامعةً كغوايةٍ، متعرّجةَ التضاريسِ كخريطةِ جهنّمَ. جلدٌ أخضرُ مُزرَقٌّ، تلمعُ عليهِ حراشفُ كحروفٍ مسماريةٍ كتبَها إبليسُ على جلدِ الخلودِ.

تقدّمَ بخطواتٍ لا تُحدثُ صوتًا، كأنّما يمشي فوقَ بحرٍ من زجاجٍ. وقفَ أمامَهما، وكأنّما يرى من خلالِ جفنيهِ المطبقينِ أسرارَ أرواحِهما. مدَّ العلبةَ نحوهما، وقالَ بصوتٍ جافٍّ كصوتِ حجرٍ يُكسرُ في صحراءَ، لا يقبلُ التوسّلَ ولا الاستعطافَ:

«هَذِهِ هَدِيَّةُ المَعهَدِ. يَوْمًا مَا، حِينَ تَرْغَبُونَ بِالْهَرَبِ، افْتَحُوا العُقْدَةَ، سَتَجِدُونَ مَا أَنْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ».

كانَ الصوتُ يُشبهُ سكينًا جليديةً تُشقُّ بها كتلةُ الصمتِ. كلماتٌ قليلةٌ، لكنّها حملتْ في طيّاتِها ثقلًا أسطوريًّا، كأنّما كانَ يُسلّمُهما تابوتَ عهدٍ معَ الشيطانِ. العُقدةُ على العلبةِ كانتْ معقودةً كشيفرةٍ هندسيةٍ، تُشبهُ عُقدةَ «غورديان» التي لا يحلُّها إلّا من يقدّمُ روحَهُ ضريبةً. جلدُ الأفعى كانَ يَتنفّسُ تحتَ أصابعِهِ، وكأنّ حيّةً خفيّةً ما زالتْ تعيشُ في ثنايا الجلدِ المقتولِ.

خمسُ سنواتٍ مرّتْ، والعلبةُ تُشبهُ قبرًا صغيرًا في زاويةِ غرفتِهما، صامتةً كجمرةِ غضبٍ تُخبّئُ لهيبَها. لكنّها الآنَ، في هذهِ الليلةِ المُظلمةِ، بدأتْ تتململُ. لم تكنْ حركةً عاديةً، بل كانتْ كتنهّدِ كائنٍ خرافيٍّ تحتَ أقدامِهما. اهتزّتْ كجنينٍ في رحمِ الظلامِ، ثمّ تمايلتْ كسفينةٍ صغيرةٍ تُصارعُ أمواجَ سجّادِ الغرفةِ. وكأنّما تَستشعِرُ اقترابَ لحظةِ الضعفِ، تلكَ اللحظةَ التي تَتربّصُ بهما منذُ أنْ سلّما نفسيهِما لصبْرٍ أقسى من الحجرِ.

الصبرُ ليسَ مجرّدَ انتظارٍ، بل هو موتٌ بطيءٌ على مذبحِ الزمنِ. خمسُ سنواتٍ من التحديقِ في هذهِ العلبةِ، كخمسةِ قرونٍ من التحديقِ في مرآةٍ لا تُظهرُ إلّا شبحًا من كانَ يومًا.

العلبةُ الآنَ ترقصُ رقصةَ طقوسٍ وثنيةٍ. جلدُ الأفعى يتلألأُ تحتَ ضوءِ القمرِ الخافتِ، كعيونِ حيّةٍ سامّةٍ تُراقبُ فرائسَها. حركاتُها تُشبهُ نبضَ قلبٍ مسمومٍ، أو تَقلّباتِ رضيعٍ غريبٍ في مهدٍ من نارٍ. هل هي تستدعي؟ أم تهدّد؟ أم تُذكّر؟ كلُّ حركةٍ فيها كانتْ سؤالًا وجوديًّا يخترقُ صمتَ الغرفةِ: مَنْ مِنكما سينهارُ أولًا؟ مَنْ سيمدُّ يدَهُ نحوَ العُقدةِ، معترفًا بأنّ صبرَهُ نفدَ، وأنّ الهربَ صارَ ضرورةً؟

ألمْ تكنِ العلبةُ منذُ البدايةِ هي الاختبارَ الحقيقيَّ؟ ألمْ يأتِ الرجلُ الأعمى، كسفيرٍ من مملكةِ اليأسِ، ليُسلّمَهُما مفتاحَ ضعفِهما قبلَ أنْ يُسلّمهما مفتاحَ الهربِ؟

تذكّرا تلكَ الليلةَ: كيفَ نظرَ إليها بعينيهِ العُميتينِ كأنّهُ يقرأُ مصيرَهما في كتابٍ مغلّفٍ بجلدِ الأفعى. كيفَ كانتْ يدُهُ ترتجفُ وهو يُسلّمُهما الوصمةَ المُقدّسةَ. هل كانَ هو نفسَهُ ضحيّةً سابقةً؟ هل كانَ يحملُ في عُمقهِ حكايةَ من فتحَ العلبةَ قبلَهما؟ أسئلةٌ ظلّتْ معلّقةً كالضبابِ. الآنَ، وقد صارتِ العلبةُ كائنًا حيًّا تحتَ أقدامِهما، شعرا بأنّ الزمنَ يتراصّ أمامَهما كجدارٍ، وأنّ الصبرَ صارَ كلمةً جوفاءَ في قاموسِ اليأسِ.

تحتَ أقدامِهما، تتلوّى العلبةُ كأفعى تستعدُّ للانقضاضِ. هل سيكونُ ما في داخلها خلاصًا؟ أم سيكونُ سُمًّا نهريًّا يُنهي عذابَ الانتظارِ بالموتِ؟ ربّما هي أوراقٌ سوداء تكشفُ أسرارَ «المعهدِ»

الذي زرعَ في قلبِ حبّهما بذرةَ الشكِّ منذُ الليلةِ الأولى. ربّما هي مرآةٌ تُظهرُ لهما وجوهَهما الحقيقيةَ بعدَ أنْ تشوّهتْ بسنواتِ الخوفِ. أو ربّما هي فراغٌ مُطلقٌ، كأنّما الرجلُ الأعمى سلّمَهُما صندوقَ بانكسيَّ، حيثُ الهربُ الوحيدُ هو في إدراكِ أن لا هربَ.

العلبةُ هي الصبرُ نفسه: كائنٌ خرافيٌّ يتحرّكُ في الظلامِ، يختبرُ إرادتَك، يغريكَ بالهربِ، ثمّ يُعلّمكَ أنّ الهروبَ الأوحدَ هو في مُواجهةِ القفصِ.

الآنَ، وهما يُحدّقانِ في هذا الكائنِ الجلديِّ الذي يعرفُ طريقَهُ إلى أعماقِ رُعبِهما، يشعرانِ بأنّ الزمنَ ليسَ سوى عُقدةٍ في جلدِ أفعى. والعُقدةُ التي على العلبةِ ليستْ سوى انعكاسٍ للعُقدةِ التي في أرواحِهما. يومَ يفتحانِها، سيكتشفانِ أنَّ ما بداخلها ليسَ سوى مرآةٍ تُريهما انعكاسَ ضعفِهما الذي ظنّا أنّهما أخفياها في قاعِ الصبرِ. الهربُ الوحيدُ هو في عدمِ الهربِ. والخلاصُ الحقيقيُّ هو في احتضانِ العلبةِ المُتململةِ كطفلٍ غيرِ مرغوبٍ فيهِ، وإعلانِ الاستسلامِ لأسرارِ «المعهدِ» الذي لا يُعطي هدايا، بل يُعطي دروسًا في السُّقوطِ المُتكررِ.

تدورُ العلبةُ الآنَ في دائرةٍ ضيّقةٍ، كأنّها عقربُ ساعةٍ يُشيرُ إلى منتصفِ الليلِ الأبديِّ. حركتُها تُذكّرُ بالرجلِ الأعمى الذي جاءَ كشبحٍ في ليلةِ الزفافِ، حاملًا نبوءةَ الضعفِ. هل كانَ هو نفسَهُ قد

فتحَ علبةً قبلَ سنواتٍ؟ هل كانَ بصيرًا ذاتَ يوم، فأعماهُ ما وجدَ في جوفِ الجلدِ؟ أسئلةٌ لن تُجابَ إلّا حينَ تنحلُّ العُقدةُ، أو حينَ تنهارُ الأرواحُ تحتَ ثقلِ الانتظارِ.

في حضرةِ الصبرِ، تصيرُ كلُّ هدايانا سُمومًا مُغلّفةً بجلودِ الأفاعي. وكلُّ وعودِنا عُقدًا لا يحلّها إلّا أفولُ شمسِ الأملِ.

والآنَ، بينما تزدادُ حركةُ العلبةِ عنفًا، كطائرٍ محبوسٍ يخبطُ بجناحيهِ في القفصِ، يعرفانِ أنّ لحظةَ الحقيقةِ اقتربتْ. سيفتحانِها. ليسَ لأنّهُما يريدانِ الهربَ، بل لأنّ الصبرَ نفسَهُ صارَ جلدَ أفعى يلتفّ حولَ أعناقِهما، ويخنقُ أنفاسَ الحياةِ. في جوفِها، سيجدانِ ربّما سكينًا لقطعِ العُقدةِ، أو ربّما سيجدانِ مرآةً تُريهما صورةَ الرجلِ الأعمى، فيكتشفانِ أنّهما صارا هما نفسُهُما. لأنّ «المعهدَ» لا يُهدي إلّا دروسًا واحدةً: أنّ الهروبَ الوحيدَ من الزمنِ هو في احتضانِ عُميانا، وأنّ الصبرَ ليسَ فضيلةً، بل هو الجلدُ الذي نُغلّفُ بهِ هزيمتَنا كي تبدوَ كهديةٍ.

في الغُرفةِ الثالثة عشرة، حيثُ تَتدَلَّى السَّاعَاتُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ كَجُثَثٍ مَصْلُوبَةٍ عَلَى جِدَارِ الزَّمَنِ، تَنَفَّسَ الهَوَاءُ بِثِقَلِ رِئَتَيْنِ مَحْمُومَتَيْنِ. لَمْ تَكُنْ غُرْفَةً، بَلْ كَانَتْ فَخًّا مَعْمَارِيًّا صُمِّمَ لِكَيْ تَعْكِسَ مَرَايَاهُ المُشَوَّهَةُ حَقِيقَةَ مَنْ يَدْخُلُهَا: أَنَّهُمْ لَيْسُوا سِوَى ظِلَالٍ تَتَرَاقَصُ فِي قَاعَةِ نِسْيَانٍ. السَّاعَاتُ المَقْلُوبَةُ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ دِيكُورٍ،

بَلْ كَانَتْ نَصًّا مَفْتُوحًا عَلَى جُرْحٍ: الزَّمَنُ نَفْسُهُ قَدِ انْقَلَبَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ فِي هَذِهِ المَسَاحَةِ. كُلُّ دَقَّةٍ لِعَقْرَبِ السَّاعَةِ كَانَتْ تُشْبِهُ خُطْوَةً إِلَى الخَلْفِ، وَكُلُّ ارْتِجَافَةٍ لِلْبُنْدُولِ كَأَنَّهَا تَنَهُّدَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنْ صَدْرِ المَاضِي.

تَحْتَ سَقْفٍ مُقَعَّرٍ كَجُمْجُمَةٍ حَجَرِيَّةٍ، جَلَسَتْ لهي. لَمْ تَكُنْ تَتَأَمَّلُ زَوْجَهَا يَاسِرًا، بَلْ كَانَتْ تُحَاوِلُ فَكَّ شِفْرَةِ غَرِيبٍ نَزَلَ فِي جَسَدِهِ كَعُودِ ثِقَابٍ فِي قَبْرٍ. كَانَ يَاسِرٌ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ مِنْ خَشَبِ الأَرْزِ، مُنْحَنِيًا عَلَى كِتَابٍ. لَكِنَّ الكِتَابَ لَمْ يَكُنْ طَبِيعِيًّا: صَفَحَاتُهُ مُنْتَفِخَةٌ بِالرُّطُوبَةِ، مَنْقُوشَةٌ بِبُقَعٍ زَرْقَاءَ كَأَنَّهَا كَدَمَاتُ أَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ سُحِقَتْ فَوْقَهَا. الحِبْرُ الأَزْرَقُ يَتَسَرَّبُ مِنَ الحَوَافِّ كَدَمٍ سَامٍّ، يُحَوِّلُ الكَلِمَاتِ إِلَى كِيَانَاتٍ غَامِضَةٍ تَتَمَاوَجُ كَحَيَوَانَاتٍ بَحْرِيَّةٍ فِي أَعْمَاقٍ مُحِيطٍ مَرْئِيٍّ. كَانَ يَقْرَأُ بِتَرَكُّزٍ مَرَضِيٍّ، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ تَعْوِيذَةٍ خَتَمَهَا السَّحَرَةُ القُدَمَاءُ لِتَحْمِيَهُ مِنْهَا هِيَ نَفْسُهَا.

كَانَتْ لهي تَعْلَمُ أَنَّ الحِبْرَ الأَزْرَقَ لَيْسَ حِبْرًا. كَانَ دَمْعًا جَمَدَ عَلَى وَرَقِ الكِتَابِ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ. دَمْعُهُ هُوَ، الَّذِي أَرَاقَهُ سِرًّا فِي اللَّيَالِي الطَّوِيلَةِ حِينَ ظَنَّتْ أَنَّهُ نَامَ.

صَوْتُهَا خَرَجَ كَسَحَابَةٍ مُمْطِرَةٍ عَلَى شَفَةِ جَبَلٍ:

«لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ صَوْتَكَ...»

كَانَتِ الجُمْلَةُ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا ثِقَلَ جَرَسٍ يُطَبِّقُ عَلَى قَلْبِ المَكَانِ. لَمْ تَكُنْ شَكْوَى، بَلْ إِقْرَارٌ بِفَقْدَانٍ. صَوْتُهُ لَمْ يَعُدْ صَوْتَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهَا أَسْرَارَ العَالَمِ. صَوْتُهُ صَارَ غُرْبَةً تَجُوسُ فِي مَمَرَّاتِ بَيْتِهِمَا، كَطَائِرٍ نَافِقٍ فِي قَفَصٍ.

«ضِحْكَتُكَ صَارَتْ مِثْلَ طَقْسٍ قَدِيمٍ يُؤَدَّى مِنْ ذَاكِرَةٍ لَا تَخُصُّ أَحَدًا...»

ضِحْكَتُهُ! تِلْكَ الضَّحْكَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَدَحْرَجُ كَخَرَزَاتِ عَقِيدٍ فِي أَزِقَّةِ دِمَشْقَ. الضَّحْكَةُ الَّتِي كَانَتْ تَمْلَأُ البَيْتَ حَنِينًا كَشَمْسٍ. الآنَ، هِيَ مَجَرَّدُ طَقْسٍ. طَقْسٌ مَيِّتٌ يُؤَدِّيهِ بِنِسْيَانٍ، كَأَنَّهُ يَقْرَأُ نَصًّا بِلُغَةٍ مَنْقَرِضَةٍ. الضَّحْكَةُ صَارَتْ كَتِمْثَالٍ مِنْ شَمْعٍ فِي مُتْحَفٍ: شَكْلُهَا بَاقٍ، وَلَكِنَّ دِفْئَهَا ذَابَ مَعَ الزَّمَنِ. كُلَّمَا ضَحِكَ، سَمِعَتْ فِي صَدَى ضَحِكَتِهِ صَوْتًا وَحِيدًا: «أَنَا لَسْتُ هُوَ».

الذَّاكِرَةُ الَّتِي لَا تَخُصُّ أَحَدًا: هَلْ هِيَ جَرِيحَةٌ أَمْ نِعْمَةٌ؟ أَلَيْسَ النِّسْيَانُ هُوَ الحَاضِنَةُ الأَخِيرَةُ لِكُلِّ حُبٍّ مَيِّتٍ؟

نَظَرَ يَاسِرٌ مِنْ فَوْقِ الكِتَابِ. عَيْنَاهُ لَمْ تَكُونَا عَيْنَيْ رَجُلٍ يُنْصِتُ لِزَوْجَتِهِ، بَلْ عَيْنَيْ غَرِيبٍ يُفَكِّرُ فِي كَلِمَاتٍ قَدْ تَكُونُ مِفْتَاحًا لِعَالَمٍ آخَرَ. الحِبْرُ الأَزْرَقُ عَلَى أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَفْرِزُ سُمًّا بَطِيئًا. لَمْ يَرُدَّ. لَمْ يَحْتَجْ أَنْ يَرُدَّ. صَمْتُهُ كَانَ رَدًّا أَعْمَقَ مِنْ أَيِّ كَلَامٍ: نَعَمْ، أَنَا غَرِيبٌ.

نَعَمْ، ذَاكِرَتُكِ لَيْسَتْ ذَاكِرَتِي. نَعَمْ، حَتَّى ضَحِكَتِي صَارَتْ مِزَارًا لِطَقْسٍ لَا أَفْهَمُهُ.

هي الَّتِي تَرَاقِبُهُ: أَتَرَاهُ يَبْحَثُ فِي الكِتَابِ عَنْ نَصٍّ يُبَرِّرُ غُرْبَتَهُ؟ أَمْ يَبْحَثُ عَنْ خَرِيطَةٍ لِمَمَرٍّ سِرِّيٍّ يَهْرُبُ بِهِ مِنْهَا؟ الكِتَابُ لَيْسَ كِتَابًا. هُوَ مِرْآةٌ سَحَرِيَّةٌ يَرَى فِيهَا وَجْهًا لَيْسَ وَجْهَهُ. هُوَ قَمِيصُ أُودِيبَ المَصْنُوعُ مِنْ وَرَقٍ مَبْلُولٍ بِدُمُوعِهِ هُوَ. الحِبْرُ الأَزْرَقُ هُوَ لُغْزُهُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ فَكَّ شِفْرَتِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ حِبْرًا، بَلْ دَمْعُهُ هُوَ الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى سِجِلٍّ لِلْوَحْدَةِ.

سَاعَاتٌ مَقْلُوبَةٌ. كِتَابٌ مَبْلُولٌ بِدَمْعٍ أَزْرَقَ. ضَحْكَةٌ تَصِفُرُ فِي فَرَاغٍ. صَوْتٌ يَفْقِدُ نَبْضَهُ. هَذِهِ هِيَ لُغَةُ الغُرْفَةِ ١٣. لُغَةٌ لَا تَكْتُبُهَا الأَلْفَاظُ، بَلْ تَكْتُبُهَا الشُّقُوقُ الَّتِي تَتَرَاكَمُ فِي جُدْرَانِ الرُّوحِ. كُلُّ سَاعَةٍ مَقْلُوبَةٍ هِيَ سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهِمَا مَسْحُوبَةٌ إِلَى الِانْتِحَارِ. كُلُّ بُقْعَةٍ زَرْقَاءَ فِي الكِتَابِ هِيَ قَطْرَةٌ مِنْ أَمَلٍ مَسْتُورٍ. كُلُّ صَمْتَةٍ لَهُ هِيَ فَصْلٌ مِنْ رِوَايَةِ الغُرْبَةِ.

الضَّحِكَةُ الَّتِي تَصِفُرُ فِي الفَرَاغِ: أَلَيْسَ هَذَا أَقْصَى دَرَجَاتِ الوَحْدَةِ؟ أَنْ تَضْحَكَ فَلَا يَسْمَعُ صَدَاكَ إِلَّا جُدْرَانٌ تَحْمِلُ صُوَرَ غُرَبَاءَ؟

فِي آخِرِ الكِتَابِ، وَجَدَ صَفْحَةً بَيْضَاءَ. لَمْ يَكْتُبْ فِيهَا الحِبْرُ الأَزْرَقُ إِلَّا جُمْلَةً وَاحِدَةً: «الغُرْفَةُ ١٣». كَأَنَّ الكِتَابَ كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ

سِوَى رِسَالَةٍ مُطَوَّقَةٍ بِالحِبْرِ الأَزْرَقِ لِيَقُولَ لَهُمَا: هَا أَنْتُمَا. هَذِهِ هِيَ حَقِيقَتُكُمَا. غُرْفَةٌ مَعْقُودَةٌ فِيهَا الزَّمَنُ مَقْلُوبًا، وَالحُبُّ صَارَ طَقْسًا، وَالصَّمْتُ لُغَةً وَحِيدَةً. فِي الغُرْفَةِ ١٣، لَا جَدْوَى مِنَ البَحْثِ عَنْ صَوْتٍ مَفْقُودٍ أَوْ ضَحْكَةٍ مَيِّتَةٍ. هُنَاكَ، فَقَطْ، يُمْكِنُ لِلرُّوحِ أَنْ تُجْرِيَ حِوَارَهَا مَعَ الزَّمَنِ: حِوَارًا عَلَى جُثَثِ السَّاعَاتِ المَقْلُوبَةِ.

اهتزّت يداه حول زجاجة الدواء كعصفورَين مكسورَين يحاولان احتضان عاصفة. الزجاجةُ الزرقاء الشفافة كانت تشبه قارورة دمعٍ مُجمَّدٍ في زمن الطفولة، تلمع تحت ضوء المصباح الخافت كعين شيطانٍ مستيقظ. الحبوب البيضاء بداخلها تتصادم كأسنان ميتة تُرصّ في تابوت زجاجي. قال وكلماته تتساقط كحبات مسبحةٍ مقطوعة الخيط:

«رُبَّمَا نَسِيتِ، لَكِنَّنِي لَا أَذْكُرُ كَيْفَ أَضْحَكُ إِلَّا إِذَا نَظَرْتِ إِلَيَّ...»

كان الصوتُ يُشبه جذعَ شجرةٍ محترقٍ يُحاول إنباتَ ورقةٍ أخيرةٍ. في عينيه، كان هناك بحرٌ جافٌّ يبحث عن مدٍّ غابرٍ. ضحكتُه لم تكن ضحكةً، بل طقسَ إنعاشٍ لذكرى ميتةٍ. كلُّ نظرةٍ منها كانت تُشبه حقنةً تُحقنُ في شرايين روحه المتهالكةِ كي تُذكِّرَهُ بأنَّهُ كانَ يومًا قادرًا على البهجةِ.

«وَعَيْنَاكِ... صَارَتَا تُشْبِهَانِ نَافِذَتَيْنِ مُغْلَقَتَيْنِ فِي بَيْتٍ مَهْجُورٍ».

النوافذُ المغلقةُ: ليست خشبًا وزجاجًا، بل هي حجابٌ من رصاصٍ يُغلّقُ على أسرارٍ دفينةٍ. عيناها صارتا قبرين صغيرين لحوريتين انتحرتا من فرط الظمأ.

في تلك اللحظةِ بالذاتِ، ارتجَّ البناءُ ارتجاجةً عاتيةً. لم تكن هزةً عابرةً، بل كانت زئيرَ وحشٍ حبيسٍ تحتَ الأساساتِ. الأرضُ تحتَ أقدامِهما تمايلتْ كسفينةٍ في بحرٍ من غضبٍ قديمٍ. الغبارُ تناثرَ من السقفِ كشعرِ عجوزٍ يُنتفُ في لحظةِ جنونٍ. على الجدارِ، لوحةٌ لبحّارٍ قديمٍ مالَتْ جانبًا كأنها تُلوّحُ بيدٍ وداعيةٍ. حتى الساعاتُ المقلوبةُ توقفتْ عن التكتكةِ، خائفةً أن تكونَ دقاتُها هي سببَ الغضبِ.

اقتربتْ من النافذةِ، قلبُها يدقُّ في صدرِها كطبلٍ في مأتمٍ. الطبلُ الذي يُعلنُ موتَ الفرحِ، ويُرهبُ الأحياءَ ليبكوا قبلَ أوانِهم. رأتْهم: أشباحًا بشريةً تسيرُ في بطءٍ طقسيٍّ، كأنهم يحملونَ تابوتًا غيرَ مرئيٍّ. رجالٌ بملابسَ رماديةٍ بلا أزرارٍ، بلا ألوانٍ، بلا ملامحَ. كانوا يحملونَ صناديقَ سوداءَ مربعةً، أنيقةً كشواهدَ قبورٍ حديثةِ الصنعِ.

لكنَّ الصناديقَ كانتْ تنزفُ.

لم تكن خيوطًا حمراءَ، بل كانتْ شرايينَ مقطوعةً. دمٌ أسودُ

يتسرّبُ من زوايا الصناديقِ كأنما بداخلها قلوبٌ معلقةٌ على خُطّافٍ.

الخيوطُ الحمراءُ تسيلُ على الأرضِ، تُنسجُ سجّادًا من الألمِ خلفَهم. كلُّ صندوقٍ كانَ يُخلّفُ وراءهُ مسارًا قانيًا كجرحٍ مفتوحٍ في جسدِ الفناءِ. الدمُ لم يكنْ سائلًا، بل كانَ ذاكرةً سائلةً. ذاكرةَ صرخاتٍ مُختنقةٍ، وقبلاتٍ جافةٍ، وليالٍ من الصمتِ القاتلِ.

«مَا هَذَا؟ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟» سألتْ، وصوتُها يُشبهُ زجاجًا يُسحقُ تحتَ قدمٍ ثقيلةٍ.

نظرَ إلى المشهدِ بعينَينِ تشبهانِ بئرَينِ جافتينِ. لم يندهشْ. كأنه كانَ ينتظرُ هذا اليومَ منذُ أنْ وطئتْ قدماهُ عتبةَ هذا البيتِ. أجابَها بصوتٍ ميتٍ، صوتٍ خرجَ من قبرٍ:

«يُجَدِّدُونَ الفِخَاخَ القَدِيمَةَ...»

كلماتُه سقطتْ كأحجارٍ في بئرٍ مسحورةٍ. الفخاخُ! الكلمةُ التي تُلخصُ كلَّ شيءٍ. الفخاخُ التي نُصبَتْ لهما منذُ اللحظةِ الأولى. الفخاخُ التي صُنعتْ من خيوطِ كذبِهما الجميلِ، ومن حريرِ وعودِهما الفارغةِ، ومن أسلاكٍ شائكةٍ من الصمتِ المتعمدِ.

«كُلُّ زَوْجَيْنِ لَهُمَا فَخٌّ خَاصٌّ...» أكملَ، وعيناهُ تتبعانِ رجلًا رماديًّا يضعُ صندوقًا أسودَ عندَ جذعِ شجرةٍ يابسةٍ. الصندوقُ بدأ

ينتفخُ كأنه يتغذى من ظلِّ الشجرةِ. الخيوطُ الحمراءُ تزدادُ غزارةً، كأنها تبكي دمًا.

«صَنَادِيقُهُمْ تُغَذِّيها كَلِمَاتُنَا الجَارِحَةُ، وَأَحْلَامُنَا الَّتِي دَفَنَّاهَا خَجَلًا...»

أحلامٌ مدفونةٌ بالخجلِ: هل هناكَ قبرٌ أعمقُ من هذا؟ أحلامُ العشقِ التي صارتَ عظامًا نخرةً تحتَ أرضِ الواقعِ. كلماتٌ جارحةٌ تُشبهُ ملحًا يُنثرُ على جرحٍ مفتوحٍ كي لا يندملَ أبدًا.

صناديقُ سوداءُ تُغذّيها الكلماتُ الجارحةُ! الآنَ فهمتْ هي. تلكَ الصناديقُ ليستْ صناديقَ، بل كائناتٌ طفيليةٌ تعيشُ على آلامِ البشرِ. كلُّ «أنا لا أحبكِ» قاله هو في صمتِ الليلِ، تحوّلَ إلى قطرةِ دمٍ في الصندوقِ. كلُّ «لستِ المرأةَ التي حلمتُ بها» همستْ بها في وسادتِها، صارتْ خيطًا أحمرَ يسيلُ على الأرضِ. كلُّ حلمٍ بمولودٍ لم يولدْ، كلُّ رحلةٍ لم تُقامْ، كلُّ كلمةِ حبٍ مُجهضةٍ... كلُّها تُصبُّ في جوفِ هذهِ الصناديقِ الجائعةِ.

الرجالُ الرماديونَ لم يكونوا بشرًا. كانوا كهنةً في معبدٍ أسودَ، يُجدّدونَ طقوسَ الألمِ. هم لا يبنونَ فخاخًا جديدةً، بل يُجدّدونَ القديمةَ منها. يُشذبونَ خيوطَها، يُصلحونَ زواياها، يُدخلونَ دماءً جديدةً في شرايينِها. كلُّ صندوقٍ أسودَ كانَ يمثّلُ فخًّا لزوجَينِ في هذا الحيِّ. فخاخٌ صُمّمتْ خصيصًا لاحتياجاتِهم: فخاخٌ من

الغيرةِ، فخاخٌ من الروتينِ، فخاخٌ من الصمتِ، فخاخٌ من الخيانةِ المُتخيّلةِ.

الفخّ: ليس قفصًا من حديدٍ، بل هو نسيجٌ من خيوطٍ حمراءَ مُستخلصةٍ من قلوبِنا. ننسجُهُ بأيدينا، ثمّ نتعجّبُ حينَ نجدُ أنفسنا في وسطه.

رأتْ هي أحدَ الرجالِ الرماديينَ يفتحُ صندوقًا أسودَ قربَ بيتِ الجيرانِ. لم يكنْ بداخلهِ سوى مرآةٍ سوداءَ. المرآةُ التي يُشبهُ وجهَها هي وياسرُ الآنَ: وجوهًا بلا أملٍ، بلا بهجةٍ، بلا حياةٍ. الخيوطُ الحمراءُ كانتْ تسيلُ من حوافِ المرآةِ كدماءِ جرحٍ نفسيٍّ لا يُرى.

«كُلُّ فَخٍّ لَهُ مِرْآةٌ تُرِينَا حَقِيقَةَ انْهِيارِنا» همسَ هو وهو يُشاهدُ نفسَ المشهدِ. «نَحْنُ نُغَذّي مِرْآتَنا بِأَنْفُسِنَا كُلَّ يَوْمٍ».

اهتزّ البناءُ مرةً أخرى، هذهِ المرةِ كأنما يضحكُ ساخرًا. الضحكةُ التي تهزُّ عظامَ الموتى في قبورِهم. هي أدركتْ الحقيقةَ المُروّعةَ: هم لا يُجدّدونَ الفخاخَ خارجَ البيوتِ فقط. هم داخلَ كلِّ بيتٍ. الصندوقُ الأسودُ الخاصُ بهما كانَ تحتَ سريرهما منذُ خمسِ سنواتٍ. هو الذي امتصَّ ضحكاتِهما الأولى، وحوّلها إلى خيوطَ حمراءَ. هو الذي شربَ دموعَها في الليالي المُظلمةِ. هو الذي التهمَ أحلامَ ياسرٍ المُعلّقةَ على جدرانِ غرفتِهما.

الصندوقُ الأسودُ: هو الضامنُ الوحيدُ لاستمرارِ الفشلِ. هو بنكُ الألمِ الذي تودعُ فيهِ قلوبُنا دموعَها المُستحيلةَ، فيُعطيكَ فائدةً مُرّةً اسمها «القناعةِ بالواقعِ».

الآنَ، بينما يسيلُ الخيطُ الأحمرُ من الصندوقِ الأسودِ عندَ شجرةِ الجيرانِ اليابسةِ، تعرفُ هي أنَّ زوجَينِ آخرَينِ يغذّيانِ فخَّهُما. كلُّ خيطٍ أحمرَ على الأرضِ هو قصيدةُ حبٍ مقتولةٍ. كلُّ صندوقٍ أسودَ هو نصبٌ تذكاريٌّ لعلاقةٍ انتحرتْ. والرجالُ الرماديونَ هم ملائكةُ الموتِ في مملكةِ الزواجِ الفاشلِ، يطوفونَ بينَ البيوتِ ليضمنوا أنَّ الفخاخَ لن تخرُبَ أبدًا، وأنَّ الخيوطَ الحمراءَ ستظلَّ تسيلُ، كي يظلَّ العالمُ يدورُ على عجلاتِ الألمِ.

نظرتْ إلى ياسرٍ. يداهُ لا تزالانِ ترتجفانِ حولَ زجاجةِ الدواءِ. لكنّ الدواءَ لن يُجدِدَ الضحكةَ. الضحكةُ الحقيقيةُ ماتتْ، ودفنها الرجالُ الرماديونَ في صندوقٍ أسودَ تحتَ سريرهما. كلُّ ما تبقّى هو طقسٌ ميتٌ، ونوافذُ مغلقةٌ، وفخٌّ يتغذّى من صمتهما. والصبرُ؟ الصبرُ هو أنْ تنظرَ إلى الخيطِ الأحمرِ يسيلُ، وتُصمّ أذنيكَ عن سماعِ صوتِ جرحِكَ النازفِ.

في الأعماقِ حيثُ تُخبَّأُ جثثُ الأكاذيبِ النَّبيلةِ، في ذلكَ القبوِ المُظلمِ الذي يُشبهُ جوفَ حوتٍ ابتلعَ شمسَ الصِّدقِ، وقفتْ هي تُحدِّقُ في جَرَارٍ من زجاجٍ شَفَّافٍ. لم تكنْ جرارَ خمرٍ، بل كانتْ

توابيتَ مُصغَّرةً لِما لا يُقالُ. في داخلها، يتلوى دخانٌ مُلوَّنٌ كأرواحٍ مُعتَّقةٍ من جحيمِ الزواجِ: أزرقُ كالصَّقيعِ يَجلِدُ القلوبَ، أحمرُ كلهيبٍ يَأكُلُ اللسانَ قَبلَ النطقِ، وأسودُ كحبرِ ليالٍ لم تُقرأْ بعدُ. كُلُّ جَرَّةٍ كانتْ سِجِلًّا سريًّا لِمَا خَنَقَتْهُ أَفواهُهُمَا بِاسْمِ المُحافظةِ على المَشهدِ.

الأكاذيبُ النبيلةُ: أليستْ أكفانًا حريريةً نُكفِّنُ بها حقائقَنا الناطقةَ؟ أليستْ سُكنًا نَبنيَهُ في قبوِ أنفسِنا كي لا نَرَى وَحوشَنا تَتهاوى تحتَ سقفِ الصَّمتِ؟

الحارسُ، رجُلٌ بلا عُمرٍ، بلا ملامحَ، كأنَّهُ خَرَجَ من إحدى الجَرَارِ السوداءِ، تقدَّمَ نحوَ جَرَّةٍ مُزيَّنةٍ بِعُقودٍ من الغبارِ. كُتِبَ عليها بِحروفٍ باهتةٍ: «الأحلامُ المكسورةُ». داخلها، كان الدخانُ الأبيضُ يَتموَّجُ كأشباحِ أطفالٍ لم يولَدوا، أو كأنفاسِ رحلاتٍ لم تُقطَعْ. ملأَ حُقنةً زجاجيةً طويلةً من ذلكَ الدخانِ، وابتسامتُهُ كانتْ كَشَقٍّ في جدارِ القبرِ.

«هَذِهِ تُعِيدُهُمْ لِلَحْظَةِ الأُولَى، حِينَ كَانَ الخَوْفُ مِنَ الوَحْدَةِ أَكْبَرَ مِنْ كُرْهِهِمْ لِبَعْضِهِمْ».

صوتهُ كانَ يُشبهُ حَفيفَ أوراقِ شجرةٍ ميتةٍ. الكلماتُ تَحملُ سُمًّا حُلوًا: فكرةُ العودةِ إلى البدايةِ، حينَ كانَ الوعدُ بِشمسٍ لا تغيبُ، والجهلُ بحقيقةِ أنَّ البداياتِ ليستْ سوى أوهامٍ نُؤجِّلُ فيها موعدَ

اليقينِ المُريعِ. الحقنةُ في يدهِ كانتْ إبرةَ زمنٍ، قادرةً على خِداعِ الذاكرةِ بحُقنةِ نسيانٍ مُؤقتٍ، كي يُكرِّرا الخطأَ نفسَهُ ببراءةٍ أكبرَ.

عادتْ هي تُحدِّقُ في العُقدةِ الجلديةِ التي تَتململُ تحتَ قدميها ككائنٍ حيٍّ. جلدُ الأفعى كانَ يَتوهجُ في الظلامِ كعينَي شيطانٍ. كانتْ تَذكرُ كلماتِ الرجلِ الأعمى: «يَوْمًا مَا، حِينَ تَرْغَبُونَ بِالْهَرَبِ...». لكنّ الهربَ الآنَ بدا لها خِيانةً لأعمقِ مِنْ ذلكَ: خِيانةً لِوجَعِها هي. مَنْ يَهربُ مِن سجنٍ بناهُ بيديهِ؟

الصَّبرُ الَّذي يتحوَّلُ إلى وَحلٍ: أليسَ هو المأوى الأخيرَ لمن استنفدوا خياراتِ الهربِ؟ أليسَ الاعترافُ بالهزيمةِ نصرًا على الأوهامِ؟

«لَنْ أَفْتَحَهُ»، قالتْ. لم تكنْ جملةً عابرةً، بل كانتْ حجَرًا ألقتْهُ في بئرِ مصيرِها. صوتُها كانَ صدى قرارٍ ناضجٍ في قاعِ الروحِ، كجذرِ شجرةٍ اخترقَ صخرًا. «أَعْلَمُ أَنَّهُ يَحْمِلُ اسْمَ الشَّيْطَانِ الَّذِي سَيُحَرِّرُنَا، وَلَكِنِّي لَمْ أَعُدْ أُؤْمِنُ بِالْهَرَبِ».

الكلماتُ سقطتْ في القبوِ كقطراتِ ماءٍ على سطحِ بحيرةٍ ساكنةٍ. لم تكنْ تعلمْ أنَّ ياسرًا، في ليلةٍ من ليالي اليأسِ السبعِ التي مرّتْ كقرونٍ، قد فتحَ العُقدةَ الجلديةَ. فتحها كما يُفتحُ قبرٌ، بيدينِ مرتعشتينِ وخوفٍ من رائحةِ الحقيقةِ. داخلها، لم يجدْ مفتاحًا

سحريًّا، ولا خريطةً للخلاصِ، ولا اسمًا للشيطانِ. وجدَ سطرًا واحدًا مكتوبًا بِدَمٍ جافٍّ، دمٍ كانَ حارًّا يومًا ما:

«المِيثَاقُ الحَقِيقِيُّ يَبْدَأُ عِنْدَمَا تُدْرِكُ أَنَّ الآخَرَ لَيْسَ عَدُوًّا، بَلِ المِرْآةَ الَّتِي تُرِيكَ الوَحْشَ الَّذِي تَسْكُنُهُ».

صمتٌ أثقلُ من صراخِ القبوِ:

يَاسرُ: وقفَ صامتًا. الكلماتُ المكتوبةُ بالدمِ الجافِّ اخترقتْهُ كسهمٍ من جليدٍ. هل كانَ عدوًا لها؟ أم كانَ عدوًا للوحشِ الذي يراهُ في عينيها كلَّ صباحٍ؟ المرآةُ! نعم، هي المرآةُ التي أرَتْهُ وحشَهُ: خوفهُ من الفشلِ، جبنهُ عن الاعترافِ، أنانيتهُ المُختبئةُ وراءَ صمتِهِ. هل يمكنُ أن يكونَ الميثاقُ الحقيقيُّ هو البقاءُ لمواجهةِ ذلكَ الوحشِ المشتركِ؟

ها هي هي، تلك التي توهّمتْ أن إسدالَ الستارِ على عقدتها القديمةِ سيكونُ قفلًا للمتاهةِ. ما أدركتْهُ لاحقًا أنّ الحروفَ ليستْ شيفرةَ هروبٍ، بل خريطةٌ سريّةٌ نحو وحشٍ يُشبهُها حدَّ الفجيعة. تنّينٌ هلاميٌّ من ظنونٍ قاسيةٍ، عطشٍ للكمالِ المستحيلِ، وقلبٍ أودعته خلفَ جدارٍ زجاجيٍّ هشٍّ يشفُّ عمّا يُخيفُهُ ويُخيفُها. الآخرُ في مراياها لم يعُد خصمًا، بل رفيقَ الغوصِ إلى أقبيةٍ عمياءَ تقيمُ تحتَ جلدِهما.

ذاكَ القبو، أيكونُ غيرَ استعارةٍ لجُرحٍ جلديٍّ؟ ردهةٌ تحفظُ فيها الأكاذيبُ نفسها في جرارٍ من زجاجٍ، كي لا تلوّثَ سطوحَ الحياةِ النقيّةِ. لكنّ الزجاجَ لا يُنكرُ الدخانَ، ذاكَ الضبابُ الملوّنُ الذي يختنقُ بهِ الجمالُ حتى يذبلَ تحتَ ثقلِ صمتٍ لزجٍ.

والحارسُ، ذاكَ المخلوقُ الذي خرجَ من ضفةِ حلمٍ أم من فراغِ ذاكرةٍ؟ يحملُ إبرةً غرّستْها الأقدارُ في خاصرةِ الروحِ: حقنةٌ من دخانِ الأحلامِ المهشّمةِ، يبتسمُ بها كمنْ يعرفُ أنَّ الخلاصَ لا يُشترى بكسرِ زجاجٍ ولا بفرارٍ أعمى. فالمرآةُ إنْ انشطرتْ لا تقتلُ الوحشَ، بل تُذرّيهِ شظايا تنغرسُ أعمقَ.

في ظلّ كتفِها المرتعشِ، همسَ ياسرُ بميثاقٍ لم يُولدْ بعد: «الميثاقُ يبدأُ...» رأى اهتزازَ عظامِها كأنّها تحملُ سقفَ القبوِ فوقَ هشاشتها. وفي ارتعاشتها لمحَ خوفَهُ العاريَ: ذاكَ الطفلُ الواجفُ الذي ربّاهُ تنّينًا ليُرهبَ العالمَ. التفتَ نحو جرارِه الثلاث: الأزرقُ دخانُ الصمتِ الذي كمّمَ صوته، الأحمرُ غضبٌ صامتٌ التهمَ صدره، والأسودُ عتمةُ الأسرارِ التي كبّلتهما حتى صارَ الفجرُ بعيدًا.

أدركَ أن لا حقنةَ تقدرُ أن تزرعَ في رئتيه خلاصًا، وأنَّ الدخانَ لا يُطهَّرُ إلا إذا تشرّبتهُ شهيقًا مرًّا حتى يغدو مناعةً. نطقَها كصدى

يكسرُ جدارَ الأقبيةِ: «لن نفتَحَ العقدةَ... لأنّنا كنّا دائمًا نَحنُها. نَحنُ القبوُ والجرّةُ والدخانُ.»

ما كانتْ مفاتيحُ عقدتِهما جلدًا يُسلَخُ، بل سردابًا آخرَ نحو ظلمةٍ أرحبَ. هناكَ، حيثُ لا بابَ للهروبِ سوى أن يرى أحدُهما وجهَهُ عاريًا في مرآةِ الآخر. صارَ الفخُّ اعترافًا: لن ينفصلا عن خيوطِ دمٍ نزفتْ بينهما، ولا عن صناديقِ الظلمةِ التي حشروا فيها أسرارَهما هربًا من ضوءٍ يفتكُ بالوهمِ.

وفي القبوِ، تمازجَ الأزرقُ بالأحمرِ والأسودِ حتى انصهرتْ الألوانُ في لونٍ وحيدٍ: طعمُ الحقيقةِ حينَ يُلعَقُ ملحُها بلا مواربةٍ. هناكَ فقط، تعلّما أنَّ الصبرَ ليسَ انتظارَ نجاةٍ تهبطُ من سماءِ أمنيةٍ، بل شجاعةُ أن تبقى مُسمّرًا أمامَ مرآةٍ تُريكَ الوحشَ الذي فيكَ، وتُريكَ أيضًا أنكَ وحدَكَ تملكُ سلاسلهُ ومفتاحَهُ.

صعدا من القبوِ بجرارٍ صغيرةٍ تحتضنُ دخانَهما الخاصَّ: زادُهما في رحلةِ افتراسٍ متبادلٍ معَ تنانينِهما. فما عادَ الفخُّ ما يربكُهما، بل صارَ وعدًا أنَّ الميثاقَ يبدأُ حينَ ترفضُ شيطانًا غريبًا ليُنقذك، وتَقبَلُ وحشَك الذي فيكَ: تروّضُهُ بالحبِّ أو يُروّضُكَ بالخوفِ... وكلُّ حكايةٍ بعدها تليقُ بأن تُروى.

انفجرتِ الأجراسُ في صدرِ الليلِ كألغامٍ أُودِعَتْ في صدرِ الزمنِ منذُ البدءِ، وظلّتْ تنتظرُ ساعةَ إعلانِ الخرابِ. لم تكنْ تُنذرُ

صلاةً ولا تُبشّرُ بخلاصٍ، بل كانتْ طعناتٍ مدوّيةً في خاصرةِ الليلِ الرطبِ، تُذكّرُهُ أنَّ حتى العتمةَ لها قلبٌ يئنُّ من دقّاتِ الوقتِ. كلُّ رنّةٍ تفتحُ ثغرةً في جدارِ الصمتِ، وتُنبتُ بابًا جديدًا للجحيمِ، كأنّ الزمنَ قرّرَ أن يتحوّلَ جرسًا هائلًا يرنُّ نعيًا لجنينٍ لم يكتملْ في رحمِ الأملِ بعد.

تدحرجتْ صرخةُ الحارسِ بين الممراتِ كجمرةٍ أُطلقتْ من فمِ شيطانٍ نَسِيَ أن يُغلقَ بابَ سجنِهِ:

«قَدْ حَانَ الوَقْتُ! مَنْ سَيَذْبَحُ خُوْفَهُ لِيُحَرِّرَ الآخرَ؟»

كانَ صوتهُ حادًّا كحدِّ نصلٍ على حافةِ حجرٍ أملسٍ، كلماتُهُ تتسلّلُ بين الشقوقِ كرصاصاتٍ تبحثُ عن قلبٍ يليقُ بها. التضحيةُ... تلك الكلمةُ التي تفوحُ منها رائحةُ الرمادِ والقرابينِ القديمةِ، تفتحُ بابًا: أيكونُ الفداءُ أن يُقدّمَ أحدُهما نفسهُ قربانًا؟ أم أنَّ الفداءَ الحقيقيَّ هو أن يذبحَ كلٌّ منهما الوحشَ الذي ربّاهُ في صدرهِ على مهلٍ؟

ساعةُ التضحيةِ... أليستِ اللحظةَ التي يُدركُ فيها الإنسانُ أنّ حريتَهُ ليستْ مهربًا خارجَ ذاتهِ، بل هجرةً من نسخةٍ ذابلةٍ من نفسِهِ لم تَعُدْ تصلحُ للحياةِ؟

هربتْ هي كغزالٍ أدركهُ السهمُ متأخرًا، فرّ إلى الحديقةِ يجرُّ خاصرتهُ المثقوبةِ كعُذرٍ أخيرٍ للنجاةِ. لم تكُنْ الحديقةُ مفرًّا،

بل معبدًا غارقًا في هياكلِ الذاكرةِ المحنّطةِ. الأشجارُ هناكَ، بشيخوختِها العنيدةِ، كانتْ تقفُ كقضاةٍ في محكمةِ الخريفِ. قبضتْ على أوراقِها اليابسةِ كأمٍّ تحتضنُ طفلًا مسجّى، تأبى أن تسلّمَهُ للترابِ. كلُّ ورقةٍ متدلّيةٍ قصيدةُ رفضٍ، درسٌ صامتٌ في التمسّكِ بما يُرادُ لنا أن نتركَهُ:

«انظري، يا هي... حتى هذه السنديانةُ العجوزُ تعرفُ كيفَ تعاندُ الريحَ. فكيفَ ترضينَ أن يُسْلَبَ قلبُكِ طوعًا؟»

خطواتٌ خفيّةٌ طرقتْ أبوابَ روحِها:

سمعتْ وقعَ ياسرٍ يقتربُ كدقّاتِ مطرقةٍ على نعشِ حُلمٍ. خطواتُهُ لم تكنْ لرجلٍ عائدٍ، بل لصدى ماضيهما يطرقُ بابَ النهايةِ بقبضةٍ من رصاصٍ. كلُّ وقعَةٍ تحتَ قدميهِ كانتْ تهمسُ: لا بيتَ للذاكرةِ إنْ لم يَسكنهُ الخرابُ. اقتربَ منها، وفي عينيهِ هياجُ بحارٍ مُعلّقةٍ على خاصرةِ سماءٍ مُثقلةٍ بالصمتِ. كانَ يُطرّزُ من حولهِ رائحةَ يأسٍ تتسلّلُ من مسامِ قميصهِ كدخانِ بخورٍ مسمومٍ في معبدٍ قديمٍ.

هناكَ انشقَّ صدرُها، كأنَّ معبدًا دفينًا فُتحَ على نفسهِ. خرجَ من صمتِها همسٌ ليسَ لها ولا لهُ، بل هو صدى المعبدِ الذي ربّاهُما على طقوسِ الاحتراقِ ببطءٍ:

«الزواجُ... ليسَ خاتمةً، بل بدايةُ مختبرٍ، حيثُ يموتُ الوهمُ لتُولدَ أرواحٌ لم تكتشفْ نفسَها بعد.»

تساقطتِ الكلماتُ من فمِ اللحظةِ كعِقدٍ انفلتتْ حبّاتُهُ في الريحِ:

«هنا تُدفنُ الأوهامُ، وتُزهرُ أرواحٌ كانتْ تنتظرُ الرمادَ ليُحرّرها من دفءِ أكاذيبِها الأولى.»

الانبعاثُ من جثثِ الأوهامِ: تلكَ الكائناتِ الرخوةِ التي رَعتها هي في أضلاعِها كحديقةٍ خضراءَ، ظنّتْها ستظلُّ يانعةً ما دامتْ تُغذّيها بالوهمِ. سقطتْ الواحدةُ تلو الأخرى كفراشاتٍ أحرقتها الحقيقةُ. لم يكنْ موتًا، بل خلعًا جلديًّا بطيئًا. خرجتْ من رمادِها أرواحٌ جديدةٌ، شفّافةٌ، تقوى أن تمشي على الحصى حافيةً، أن تُمسكَ يدًا مرتعشةً، أن تُحبَّ دون أن تتعلّقَ بظلِّ الأبدِ.

ذلكَ الرمادُ، رمادُ الحبِّ الأولِ، صارَ تربةً تليقُ ببذورِ العنادِ الجميلِ. صارَ سرًّا صغيرًا: أنّ النارَ لا يطفئها الماءُ، بل صبرُ الريحِ.

الحديقةُ ظلتْ تُحدّثُها بصمتٍ أخضرٍ:

«انظري إلى جذوري، يا هي... أعمقُ من كلِّ جرحٍ في قلبِكِ. أموتُ كلَّ خريفٍ، لأصعدَ كلَّ ربيعٍ. الموتُ ليسَ ختامًا، بل تدريبٌ على أن نُولدَ دون خوفٍ في كلِّ مرّةٍ من جديد.»

ها هو ياسرُ يقتربُ أكثر، مُحمّلًا بجمرٍ ما زالَ يتوهّجُ في كفّيه، كأنهُ انتشلَهُ من رمادِ نفسِه. في عينيهِ لم تعدْ ترى ذاك الغريبَ الذي استعمرَ ذاكرَتَها طويلًا. رأتْ رجلًا يُشبهُ رجلًا آخرَ كانتْ تحلمُ بهِ: رجلٌ تعلّمَ من احتراقِه كيفَ يولدُ من رمادهِ بلا أقنعةٍ، وبلا صكوكِ غفرانٍ مزيّفةٍ. رجلٌ يعرفُ الآنَ أن الزواجَ ليسَ مرفأً وثيرًا، بل ساحةُ حربٍ يتواطأُ فيها الحُبُّ مع الصبرِ كي يذبحا الأكاذيبَ حتى آخر قطرةٍ منها.

همستْ في سرِّها، كمنْ يفتحُ عهدًا على صمتٍ:

«الاختبارُ يبدأُ الآن...»

اختبارٌ لا تمنحهُ ورقةٌ مختومةٌ، بل تمنحهُ القدرةُ على الجلوسِ تحتَ شجرةِ الحياةِ عاريًا من ماضيهِ، يرقبُ أوراقَهُ القديمةَ تتساقطُ وتُخصبُ ترابًا يليقُ بربيعٍ جديدٍ يولدُ من بقايا اليأسِ.

أدركتْ، في تلك اللحظةِ التي لامستْ فيها نظراتُهُ عروقَ خوفِها، أن الصبرَ ليسَ حبسَ الأنفاسِ في انتظارِ معجزةٍ لن تأتي، بل هو الفنُّ الذي نزرعُ بهِ جمرَ الخيبةِ في تربةٍ أخصبَ من ظنوننا، فنُخرجُ منها شجرةً تأبى الخريفَ.

في الخارجِ، خمدتْ الأجراسُ فجأةً كأنّها ابتلعتْ نحيبَها الأخيرَ في جوفِ المدينةِ. صرخةُ الحارسِ تبعثرتْ في ممرّاتِ الريحِ،

وحدها الحديقةُ بقيتْ شاهدًا أخيرًا على ولادةِ أرواحٍ لم تكنْ تعلمُ أنّها انتظرتْ كلَّ هذا الرمادِ لتُزهرَ من بينِ رمادِها. أرواحٌ عرفتْ متأخّرةً أنّ التضحيةَ الحقّةَ ليستْ في الموتِ من أجلِ الآخر، بل في الولادةِ معهُ من جديدٍ.

المدينةُ التي تلفُّ كلَّ هذا الخرابِ، ليستْ نقطةً على الخريطةِ، بل ندبةٌ محفورةٌ بأظافرِ الغيابِ في كتفِ الأرضِ. مدينةٌ يرفضُ الجغرافيّونَ رسمَ حدودِها خجلًا، كأنّها عورةٌ مستترةٌ في جسدِ الكونِ. مدينةٌ ترفعُ صمتَها كنعشٍ لدفنٍ لا يكتملُ، تحملُ على أكتافِها توابيتَ الذكرياتِ مثلَ مُشيّعي موتى يجهلونَ تاريخَ المقبرةِ.

أعمدةُ إنذارِها ليستْ إلا شواهدَ قبورٍ لعشّاقٍ ماتوا واقفينَ على أرصفةِ التمنّي. عليها تتدلّى قلوبٌ يابسةٌ كحُليٍّ خائنةٍ، كانتْ ذاتَ عُمرٍ طوبًا أحمرَ يُشيّدُ دفءَ البيوتِ، فانطفأتْ وصارتْ فوانيسَ معطوبةً لا تُنيرُ طريقَ أحدٍ. بقايا احتفالاتٍ لم تكتمل، زينةُ أعيادٍ نُسيتْ في مهبِّ الريحِ، راياتٌ حمراءُ كالعارِ، خفيفةٌ كالرمادِ.

وخلفَ هذه الواجهاتِ المتداعيةِ، تنزوي الذاكرةُ وحيدةً في مسرحِ أحزانِها: ستائرٌ من ضبابٍ لا يتبدّدُ بشمسٍ، ولا تُبدّدهُ ريحٌ. ضبابٌ من بقايا أحلامٍ متعفّنةٍ في أقبيةِ الروحِ، عفنٌ قديمٌ لرطوبةِ الدموعِ المنسيّةِ، رائحةُ غرفٍ مُحكمةِ الإغلاقِ على أسرارٍ تأكّلتْ حتى صارتْ بخورًا سامًّا يُدَخِّنُ صدرَ من يتنفّسهُ.

ومن قلبِ هذا الضبابِ الكثيفِ يطلُّ «معهدُ الأوهامِ الزوجيّة». ليسَ بناءً من حجرٍ وإسمنتٍ، بل طيفٌ مُعلّقٌ في فراغِ الندمِ. قصرٌ مسحورٌ شُيّدَ من شظايا الوعودِ المكسورةِ، عمارتهُ صلبةٌ في ظاهرِها، لكنَّ أسئلتَهُ المحبوسةَ تنخرُ جدرانَهُ من الداخلِ حتى تُهشّمَهُ صامتًا: «لماذا؟» و«متى؟» و«كيفَ صارَ الذي صار؟». أسئلةٌ تتردّدُ كالريحِ المدوّيةِ في دهاليزِ روحٍ خائفةٍ من صوتِها.

نوافذُهُ الواسعةُ ليستْ للضوءِ، بل شاشاتٌ يُعرضُ عليها شريطُ ذكرياتٍ ملطّخٍ بالخذلانِ. أبوابُهُ مصنوعةٌ من خشبِ الأعمارِ المستنزَفةِ، لا تُفتحُ بمفاتيحَ من معدنٍ، بل بمفاتيحَ من صلابةِ التجاربِ.

وهذا البابُ، هذا الشقُّ الراعفُ في جبينِ المدينةِ، لا يعبرُهُ إلا من خانهُ الحبُّ بصمتٍ: خيانةٌ ليستْ خيانةَ الجسدِ لجسدٍ، بل خيانةُ الحلمِ لنفسِه، خيانةُ الأملِ لصاحبِهِ، خيانةُ القلبِ لقلبِهِ حينَ يشيخُ فيهِ النبضُ دونَ إنذارٍ.

هنا، كلُّ قادمٍ يحملُ متاعًا هشًّا: كؤوسٌ مكسورةٌ من ليالٍ نصفها عشقٌ ونصفها لا مبالاة، رسائلُ حبٍّ تآكلتْ كأوراقٍ في العراء، صورٌ لابتساماتٍ لم تكنْ إلا أقنعةً على وجوهٍ وحيدةٍ. يدخلونَ إلى معهدِ الأوهامِ ليُواجهوا مرآةً لا ترحمُ، تفضحُ خيانتهم الأولى:

خيانتهم لأنفسِهم حينَ سلّموا قلوبَهم لأحلامٍ لم تكنْ لها أجنحةٌ إلا في خيالِهم.

هناك، في غرفٍ تُشبهُ متاحفَ شخصيةً لفشلِ الحلمِ، كلُّ تفصيلةٍ شاهدُ خيانةٍ صامتةٍ: سريرٌ ضاقَ رغمَ سعتهِ، طاولةُ عشاءٍ صارتْ مقصلةً للنوايا، مرآةٌ كسرتْ صورةَ الحلمِ إلى ألفِ شظيةٍ تنغرسُ في خاصرةِ القلبِ كلّما حاولَ أن ينسى.

تحتَ هذا السقفِ الخانقِ، يكتشفُ العابرونَ أنّ الخيانةَ لم تأتِ من الآخرِ، بل من وهمٍ ألبسوهُ شكلَ الآخرِ. يُدركونَ أنّ قصرَ الحبِّ لم يكنْ يومًا إلا معهدَ أوهامٍ أنشأوهُ بأيديهم، طابقًا فوقَ طابقٍ من توقّعاتٍ بلا أجنحةٍ، وأمنياتٍ لم يُكتبْ لها أن تُنبتَ زهرةً واحدةً في حديقةِ الحقيقةِ.

وهناك، حيثُ تختلطُ شهقاتُهم بالستائرِ الثقيلةِ، يتحوّلُ حوارُ أرواحِهم مع الزمنِ إلى اعترافٍ متأخّرٍ بأنَّ كلَّ هذا الرمادِ كانَ بذرةً لحياةٍ جديدةٍ. وأنَّ لا شيءَ يحرّرُ القلبَ من قيدهِ إلا شجاعةُ أن يُولدَ ثانيةً من دخانِه.

في هذا المكانِ المهيبِ، حيثُ تتدلّى الأقدارُ من سقفِ القلبِ كعناقيدِ أسئلةٍ لم تَنضَج بعد، وحيثُ تُعلّقُ علاماتُ الاستفهامِ على مشاجبِ الذاكرةِ كفوانيسَ قديمةٍ أطفأها الغياب، لا تُقامُ هنا محاكمةٌ للوعودِ لأنّها ضاعتْ في زحمةِ الأمنياتِ العابرةِ، بل لأنّها

تجرّأتْ، ذات خذلانٍ، على خلعِ ستارِ الأكاذيبِ عن وجهِ الحقيقةِ الذي ترتعدُ منه الأرواحُ الكسيرةُ.

هنا، في هذا الرُكنِ المُعتمِ من صدرِ العاشقِ، يُضاءُ القفصُ بصدقٍ لا يتركُ مهربًا، ويُسحبُ الستارُ عن مسرحيةِ الأوهامِ التي مثّلها العشّاقُ ببراعةٍ، ثم انحنوا لأكاذيبهم في ختامِ عرضٍ طويلٍ، مُدانينَ لا لأنّهم خلعوا الأقنعةَ أخيرًا، بل لأنّهم تذكّروا وجوهَهم الحقيقيّة بعد أن تحوّلتْ مراياهم إلى مقاصلِ خيبةٍ.

في هذه القاعةِ التي لا قُبّةَ لها سوى حسراتٍ متصاعدةٍ من صدورِ الخائفين، تتقاطعُ أنفاسُ العاشقينَ مع خياناتِ الوقتِ لهم، يُستَجوبُ الوجعُ كشاهدِ عِيانٍ على جريمةِ حنينٍ مستمرّ، ويُستَدعى الماضي كدليلٍ صارخٍ على براءةٍ لم تولدْ أصلًا. هنا، تُستحضرُ رسائلٌ خبّأها النسيانُ في جيبِ الريح، مقاعدٌ تئنُّ من أوزانِ الانتظارِ، نوافذُ اهتزّتْ شراشفُها كلّما نطقَ اسمٌ كان يومًا تعويذةَ خلودٍ.

في محكمةِ الحبِّ هذه، لا يجلسُ القاضي على عرشٍ خشبيٍّ باردٍ، بل يختبئُ كدودةٍ في صدرِ كلِّ عاشقٍ عرفَ كيف يُدينُ نفسَهُ بنفسه. أمّا هيئةُ المحلّفين فضمائرُ بُحّتْ من فرطِ اعترافٍ مؤجّلٍ. وحدهُ الحبُّ هنا يقفُ عاريًا، يجرُّ خيوطَ اعترافهِ في حضرةِ شرطةِ

النَدمِ التي تحرسُ فقرَهُ من الإنكار. لا محامٍ يُرافِعُ عنه، ولا شاهدَ يُخفِّفُ عنه حُكمَ العُري.

تتهامسُ روحي معي، كأنّها تجلسُ على الطرفِ الآخرِ من مقعدٍ خشبيٍّ مهجورٍ: ماذا لو لم نرتكبْ كذبةَ الإنكارِ الأولى؟ ماذا لو عرّينا الحقيقةَ من حريرِ الوهمِ وشربناها صافيةً، بملوحتِها ومرارتِها؟ لكنّي، ككلِّ من مرّوا من هنا، أرتعدُ من حقيقةٍ لوحتُ لها ثم أغلقتُ البابَ عليها، وأخافُ كذبةً احتضنتُها حتى صارتْ جزءًا من هيكلي. فأظلُّ معلقًا بينَ سماءِ احتمالٍ وأرضِ تردّد.

في زاويةٍ مُهملةٍ من هذه القاعةِ، يقفُ عاشقٌ هَرِمٌ، يتهامسُ مع ظلّهِ عن امرأةٍ أفلتتْ من ذاكرتهِ كلّما حاولَ أن يخيطَ ما تهدّمَ من دفءِ يديها في أصابعِه. عيناهُ معصوبتانِ بشريطٍ من حريرِ الأملِ البائد، وكلّما همّ أن ينزعهُ صاحَ قلبُه: «دعني أعمى، فالحقيقةُ الآنَ لا تناسبُ ظهورًا حَنتْها خيباتُ العمرِ وصارتْ خيمةً لمدافنِ الأحلام».

أجلسُ على حافةِ مقعدٍ باردٍ، أُصغي إلى ارتعاشِ أوراقٍ صفراءَ تتساقطُ من دفاترِ قلوبٍ امتلأتْ بالخوفِ قبلَ أن تعرفَ الامتلاءَ بالحبِّ. كلُّ ورقةٍ تُفرِغُ شهقةً، تُعلنُ عن جريمةِ حُلمٍ أُجهِضَ قبلَ اكتمالِه. يخبرني الورقُ أنّ العاشقَ جبانٌ حينَ يحبُّ بقسوةٍ،

ومجرمٌ حينَ يكرهُ برفقٍ، وفي الحالتينِ مُدانٌ أمامَ مرآةِ الحقيقةِ التي لا تعرفُ الرأفةَ.

أغوصُ في حقيبةِ قلبي، أفتّشُ بينَ أضلاعِه عن تذكرةِ عبورٍ إلى زمنٍ لم نُدنِّسْ فيه الوعودَ ولم نلوّثِ الحبَّ بصغائرِ خياناتٍ تختبئُ خلفَ ستائرِ التبريرِ. أجدُ وردةً ذابلةً بينَ صفحاتِ كتابٍ كانَ ليُهدى إليكِ، قصاصةً من رسالةٍ لم تكتمل، مفتاحًا صدئًا لبابٍ لم نجرؤ أن نطرقهُ. أضحكُ بيني وبينَ رُكامٍ كانَ ذاتَ يومٍ حياةً تُشبهُ الحياة.

يهمسُ لي القاضي الساكنُ في صدري: «اعترف». أضحكُ، بصوتٍ يتشقّقُ فيهِ الغبارُ: «اعترف بماذا؟ بأنّي أحببتُ أكثرَ مما يحتملُ القلبُ؟ بأنّي آمنتُ بوعدٍ هشٍّ كدميةٍ من زجاجٍ؟ بأنّي خُلِعتُ من حذرِي حين خلعتُ أمامَكِ دروعي؟» فيردُّ الصوتُ كصوتِ رعدٍ منسيٍّ: «اعترف أنّكَ لم تُحبّ أحدًا سواكَ في مَن أحببتَ، وأنّكَ حين فتّشتَ في الآخرِ، كنتَ تبحثُ عن مرآةٍ تلمعُ فيها صورتُك، لا عن قلبٍ يفتحُ لكَ أبوابَه».

أصغي إلى صمتي القديمِ، إلى ليالٍ كنتُ أخاطبُ فيها قمري الوحيدِ المُعلّقِ من سقفِ وحدتي: هل نحنُ نُحبُّ الآخرَ حقًّا؟ أم نحبُّ خيالًا رسمناهُ على جسدٍ من لحمٍ وعَطَر؟ هل نَدينُ الآخرَ حينَ لا يُشبهُ وهمَنا فيه؟ كم من جريمةٍ ارتكبناها ونحنُ نصنعُ

للحبِّ ضوءًا لا ينطفئ، ثم نخمدُهُ بأيدينا ساعةَ يشبعُ القلبُ من ولهِهِ.

أرفعُ عينيّ إلى سقفِ هذه القاعةِ الحجريةِ، أتأمّلُ الشقوقَ التي تجري كعروقٍ نافرةٍ على ظهرِ زمنٍ أحدودبَ من ثِقَلِ الأسرار. كلُّ شقٍّ هنا نحتتْهُ كلمةٌ لم تُقل، أو خيانةٌ ارتجفتْ على شفاهٍ خرساء. الحقيقةُ وحدها تتدلّى فوقَ الرؤوسِ كسيفٍ من زجاجٍ شفيفٍ، يجرؤُ كلُّ عاشقٍ على أن يراهُ، لكن لا أحدَ يجرؤُ أن يقبضَ عليهِ خشيةَ أن يرى وجهَهُ مقطّعًا على حوافِّ اعترافٍ لا رحمةَ فيه.

ها هنا، في ركنٍ آخر من ذاكرةٍ رطبةٍ بالأسئلة، تجلسُ امرأةٌ تكتبُ رسائلَ لم يُقدَّر لها أن تبلغَ بريدًا ولا صدرًا. تكتبُ بدمعٍ خفيفٍ كالحبرِ المسروقِ من شرايينِها، وتغمسُ كلَّ جملةٍ في وجعٍ يشبهُ ضوءَ سكينٍ يجرحُ صدرَها ليحرّرَ اعترافًا آخرَ لم يشأ أن يُقال. تهمسُ لنفسِها، وهي تُصلحُ جلستَها إلى جوارِ مقعدٍ ظلَّ شاغرًا منذ خيانةِ الزمن: «لو لم أخنْ عقاربَ الساعةِ لما سبقتُكَ إلى الموت. لو لم أُصدّقْ أوهامي لما شنقتُ حبَّك على حبالِ الغياب. لو لم أتعنّتْ، لما صارتِ الريحُ تتسلّى بآخرِ وردةٍ لي.»

تتمايلُ الريحُ من شقِّ البابِ المهترئ، تذرعُ القاعةَ كناحبةٍ عتيقةٍ تدورُ بين المقاعدِ الخشبيةِ وتبكي ميتًا تَيقنتْ أن لا قيامةَ له. تنشرُ شهاداتِ الغيابِ على الطاولةِ أمام العشّاق، وتقرأُها بصوتٍ مُبلّلٍ

بصبرِ أمهاتٍ يَعدُدنَ أبناءَهنَّ المفقودين في حروبٍ لا راياتَ فيها ولا ظفر.

ما عدتُ أُحصي كم ساعةً التهمتني هنا، أعرفُ فقط أنّني غدوتُ أكثرَ انكشافًا من أيّ عُريٍ جربتُه من قبل. الستارُ الذي أسدلتُه طيلةَ عُمْرٍ صارَ من خيطِ وهمٍ لا يسترُ ذنبًا. أدركُ أنني إن خرجتُ من هذه القاعةِ حيًّا فلن أخرجَ منها طليقًا؛ سأحملُ في عنقي قيدًا من أسئلةٍ متدلّيةٍ كحبالِ مشانقٍ مؤجّلة، وفي صدري مسمارًا من حقيقةٍ تأخّرتْ عن ميلادِها كثيرًا.

أحيانًا أتساءلُ: من يحاكمُ من؟ أأُدينُ قلبي لأنّه تمادى في حبٍّ لم يصغِ إلى صوتِ عقلي؟ أم يدينُني هو لأني خذلتُه حين ترجّاني أن أصدّقَ نبضَه؟ من القاتلُ حقًّا ومن المقتول؟ وهل للحبِّ جنازةٌ تليقُ به أصلًا، أم أنّه يموتُ منسحقًا تحت أضلاعِ الخوفِ والانتظارِ موتًا بطيئًا يُشبهُ العتابَ الأبديّ؟

أشتهي بابًا أخرجُ منه إلى شارعٍ باردٍ لا يعرفني فيه أحد. شارعٍ أغتسلُ فيه من ذنوبي العاطفيةِ بمطرٍ صيفيٍّ لا يُعاتبني على هزيمتي. أريدُ أن أصرخَ في وجوهِ العابرين: «لا تصدّقوا العشّاقَ حينَ يقولون: إلى الأبد!» ثمّ أبكي وأضحكُ دفعةً واحدةً كمن اكتشفَ أنَّ الأبدَ هو كذبةُ شاعرٍ باعَ الوهمَ في عُلَبٍ مذهبّةٍ من قوافٍ حلوة.

وأدركُ أنّي لو خرجتُ، سأعودُ إلى هنا. هذه القاعةُ ليستْ سقفًا ولا جدارًا، بل ظِلٌّ نحملهُ معنا متى كذبنا على جُرحٍ أو لففنا الحنينَ بضمادةِ وعدٍ هشّ. نحنُ القضاةُ ونحنُ المتّهمون ونحنُ الستارُ الذي ينزاحُ حينَ تتعرّى الحقيقةُ من خجلِها.

أراكِ الآن أمامي، تلكَ اللحظةِ التي وضعتِ فيها كفَّكِ على صدري، كتبتِ على جسدي وصيّةً لم أعرفْ كيف أقرؤها. ما جرؤتُ يومًا أن أقولَ لكِ إنّكِ كنتِ محكمةً كاملةً، وإنَّ ابتسامتكِ وحدها كانت سجنًا مؤبّدًا لكلِّ كذبةٍ همستُ بها لقلبي. كلّما هممتُ أن أفلتَ من قيدكِ، سحبتني ضحكتكِ إلى زنزانةِ صدقٍ لم أعرفْ كيف أفرُّ منها.

ما الذي يبقى بعد أن يُسدلَ الستار؟ رائحةُ خيبةٍ متعفّنةٍ في شقوقِ الذاكرة، وبقايا أحلامٍ تأكلها الفئرانُ في أقبيةِ العمر. يبقى قلبٌ يتعلّمُ الدرسَ متأخّرًا، ثمّ ينكرُه عند أوّلِ دقّةِ أملٍ تتسلّلُ من ثقبِ الغياب.

هكذا نمضي. نخرجُ من هذه القاعةِ بأوراقِ محاكمةٍ ممزّقةٍ نخفيها في جيوبِ معاطفِنا. نخبّئُ الحقيقةَ تحت وسائدِ نومِنا، ونقولُ للعابرين: «كلّ شيءٍ بخير»، ونحنُ نعلمُ أنّ الحقيقةَ وحدها لم تُصدّقْنا يومًا.

في هذا الممرِّ المهيبِ من أرواحِنا، ستظلُّ الأقدارُ مشنوقةً على حبالِ الأسئلة، وسنظلُّ نحاكمُ أنفسَنا كلّما تجرّأنا على خلعِ قناعٍ صارَ ضيّقًا علينا. هكذا يُربّينا الزمنُ، بيدٍ تُلوّحُ بالسيفِ الزجاجيّ، يلمعُ في عيونِنا كلّما حاولنا أن نُخفي صدقًا صارَ أكبرَ من أن يتستّر.

أتعرفُ كم مرّةٍ أغمضتَ جفنيكَ عني، وأنا أذوبُ كشمعةٍ خائفةٍ في مهبِّ ريحٍ لا ترحم؟

صاحت هي، بصوتٍ يشبهُ حدَّ سكينٍ مبتلٍّ ينحتُ خاصرةَ صمتٍ طالما احتمتْ به، في قاعةٍ مغلقةٍ على أنفاسِ قلبٍ يرتجفُ من بردِ الحنين. خرجَ صوتُها منها كآخرِ ما تبقّى من جسدٍ لم يعدْ يتّسعُ له، كزفرةِ رئةٍ ملتْ من ركضِ الأكسجين خلفَ يقينٍ لفظَ أنفاسَه الأولى مذ تواطأ الليلُ معه عليكِ.

كانت هي تُزفُّ اليوم إلى نسيانٍ لا يشبهُ الزفافَ إلّا بثوبٍ أبيضَ صار كفنًا لبراءةٍ ظنّتْ يومًا أنّ الوعودَ ستحميها من موائدِ الغياب. كلُّ خطوةٍ لها على أرضٍ شفّافةٍ كالحقيقةِ المؤجَّلة، دقّةُ مسمارٍ جديدٍ في نعشِ حلمٍ حاولتْ كثيرًا أن تخيطَ له جناحينِ من أملٍ مكسور.

لم تكن تُحاكَمُ في حضرةِ قاضٍ، ولا أمام شهودٍ يرفعون أيديهم كآلهةٍ صمّاء. كانت تحاكمُها مرآتها، تعكسُ لها امرأةً تُشبهها حتى

التماهِي، لكنّها تعرفُ يقينًا أنّها ليست هي. تلك التي تراها الآن لم تعُد هي التي كانت تُوقدُ لياليه بفتيلٍ من دعاء، ولا التي كانت تنثرُ الصبحَ في يديه كسكّرٍ حلالٍ. هي ظلٌّ هشٌّ لحلمٍ قديمٍ أفزعها مرارًا أنْ تراه وقد اكتملتْ ملامحُ كابوسِه.

خلفها كانت ظلالُ ماضيها تلتهمُ آثارَها بصمتِ ضبعٍ صبور. كأنّ المدينةَ كلَّها تآمرتْ على أن تكون شاهدًا على زفافِها إلى العدمِ الذي ربّى لها كرسيًّا في ركنٍ مظلمٍ من ذاكرتِها. هناك، في ذلك الركنِ، تركتْ مرّاتٍ كثيرةٍ جزءًا من قلبِها كضريبةِ نجاةٍ قصيرةٍ من انهيارٍ أطول من حلمِها. غير أنّ الزوايا ضاقتْ عن مزيدٍ من الأكفانِ الصغيرةِ التي حيكتْ بخيوطِ خيباتِها.

كانت القاعةُ كبيرةً حدَّ الوحشة، زجاجيّةً حدَّ الفضيحة. كلُّ شيءٍ فيها مُعرّى كسرٍّ لم يعدْ فيه متّسعٌ لحجاب. لا عتمةَ هنا تحرسُ جرحًا، ولا نافذةَ تهربُ منها نظرةٌ أخطأتْ زمنَها. سقفٌ من زجاج، جدرانٌ من زجاج، أرضٌ من زجاج. قلبٌ صار بيتًا بلا جدرانٍ ولا ستائر، مكشوفًا لكلِّ ريحٍ ولكلِّ عينٍ تتلصّصُ على خسارته.

وقفتْ هي في منتصفِ القاعةِ، خلعتْ صمتَها كأرملةٍ تخلعُ خاتمَ عهدٍ ثقيلٍ على إصبعٍ صار أنحفَ من وعدٍ باهت. رفعتْ عينيها نحو سقفٍ لا يحمي من مطرٍ ولا يشفعُ لها من حُكمِ غيمٍ

إنْ قرّرَ أنْ يبكي. همستْ: «ما أسهلَ أن نُغمضَ جفونَنا عن مرارةٍ تُفجّرُ فينا آلافَ المقابرِ الصغيرة. وما أصعبَ أن نفتحَها على خرابٍ يسكنُ فينا كحديقةٍ لم يزرعْها أحد.»

مرَّ شريطُ عمرِها أمامها، مقطعًا مقطعًا، كفيلمٍ قديمٍ تآكلتْ أطرافُه من عبثِ الزمن. صورٌ تنسلُّ دون صوت، وأصواتٌ ترتدُّ من جدرانِ الذاكرةِ كصدى لا يجدُ إذنًا تأويه. تذكّرتْ يومَ التقتْهُ أولَ مرةٍ: كان قاسيًا كحقيقةٍ مؤجَّلةٍ أودعها القدرُ في عينينِ جميلتينِ لا تجيدانِ الحبَّ إلا كجرحٍ أنيق.

«هل تذكُر؟» قالتْها لنفسِها كمن يسألُ حائطًا عن سرٍّ بروده. «حين قلتَ لي: لا تخافي، سأكونُ لكِ وطنًا حين تضيقُ بكِ الأوطان؟» فتحتْ عينيها على آخِرِ بقايا السؤال، فرأتْ الوطنَ حقيبةً مثقوبةً تسرّبَ منها الأمانُ قطرةً قطرة، ولم يبقَ منها غيرُ مفتاحٍ صدِئٍ لا يفتحُ غيرَ بابٍ لم يُبنَ قط.

ظلَّ صوتُها معلقًا في سقفِ القاعةِ كدعاءٍ بلا مصلّين. حاولتْ أن تخطو، فخذلتها قدماها أمام المرآةِ الكبيرةِ التي تشرّبتْ كلَّ دموعِها. لامستْ وجهَها المرتجفَ بأصابعِها اليابسةِ كأمنيةٍ نسيتْ كيف تُزهرُ. فلم تجد إلا ظلّ شجرةٍ عاريةٍ في شتاءٍ لا يعرفُ ربيعًا ولا طيورًا مهاجرة.

«كنتَ أنا، كلّما خِفتُ منّي» قالتها وهي تحكُّ شفتيها كجرحٍ لا تطيبهُ ضمادة. كنتُ ألوذُ بكَ من نفسي، فلماذا تركتَ الغيابَ يتمدّدُ بيني وبينك كصحراءٍ بلا ظلّ؟»

لم يُجبْها سوى الصدى، يُعيدُ سؤالَها كمن يذكّرُها أنّ المفاتيحَ كلَّها كانت في قلبِها منذ البدء. لا قاضٍ يُنطقُ بالحُكمِ هنا، لكنّ هي أدركتْ أنّ الحكمَ كان قد صدرَ سرًّا، يومَ أغمضَ عينيه عنها لأوّلِ مرّة، وأسقطَها من قلبِه كما يسقطُ عصفورًا ميتًا من عشٍّ لا يؤمنُ بعودةِ الربيع.

في ركنٍ قصيٍّ من القاعةِ الزجاجيّة، انتصبتْ شجرةٌ صغيرةٌ في إناءٍ شفافٍ، كشاهدةٍ حيّةٍ على ما تبقّى من حلمٍ أخضرٍ لم تنجحِ الرياحُ بعدُ في اقتلاعِه. اقتربتْ منها بخطًى يشبهُ وقعَ قلبٍ يحبو على جمرِ الذكرى، وضعتْ راحتَها على جذعِها النحيلِ كمن يتشبّثُ بظلِّ حياةٍ واهنةٍ خائفةٍ من كفّ الريح. تذكّرتْ كيف أخبرها ذات مساءٍ أنّ الحبَّ شجرةٌ لا تُروى إلّا بماءِ الكلام، ولا تُزهِرُ إلّا تحت شمسِ الصدق، فإن شحَّ الكلامُ ذبلتْ أغصانُها، وإن انطفأ الصدقُ ماتتْ واقفةً، كجنديٍّ باسلٍ رفضَ أن يسقطَ إلّا واقفًا.

رفعتْ عينيها إلى السقفِ الزجاجيّ، تفتّشتْ نظرتُها عن نجمةٍ لم تولدْ بعدُ، علّها تمنحُها غيمةً تبكي عليها. أرادتْ لدمعِ الغيمِ أن

ينبتَ في صدرِها برعمًا أخضرَ يعيدُ للفرحِ حقَّه في الإقامةِ ولو ليومٍ عابرٍ قبل أن يرحلَ إلى حيث لا عودة.

كانت خطواتُها تُحدِثُ شروخًا خفيّةً في زجاجِ القاعةِ، كأنّ الأرضَ تحتها تحتجُّ على ثقلِ ذنبٍ لم يجدْ له اسمًا بعد. كلُّ كسرةٍ زجاجٍ تحت قدميها رسالةٌ موقّعةٌ من زمنٍ انهارَ تحت كعبِ خيبةٍ لم تتعلّمْ كيف ترتدي حذاءَ الصبرِ طويلًا.

«ربّما كنتُ مخطئةً حين ظننتُك وطنًا،» قالتها كمن يضعُ شرفةً على فوهةِ جرحٍ قديمٍ. «الوطنُ لا يُغلِقُ أبوابَهُ على غرباءِ الحنين، لا يتركُ أبناءَهُ في مهبِّ غيابٍ متوحّشٍ يلتهمُ خرائطَ أرواحِهم كما يلتهمُ الليلُ بقايا النهار.»

تقدّمتْ نحو ظلّها الممدّدِ أمامَها، تأمّلتهُ طويلًا كما لو أنّها تفتّشُ فيه عن رفقةٍ لا تخون. ابتسمتْ ابتسامةً كانت أشبهَ بدمعةٍ رفضتِ النزولَ، ثمّ همستْ لنفسِها بمرارةٍ يابسة: «أنا ظلّي الوحيدُ الآن. وما الظلُّ إلّا نورٌ خائفٌ من أنْ يعترفَ أنّه شمسٌ لو لم يَحبسهُ هذا الليلُ الثقيل.»

مدّتْ يدَها نحو صدرِها كمن يتحسّسُ نبضًا تكسّرَ تحت ضلوعٍ هرِمَتْ من طولِ الانتظار. أحسّتْ خفقاتٍ واهنةً كعصافيرَ مذعورةٍ تبحثُ عن مأوى في حقلِ ألغامٍ من الذكرياتِ السامّة، ذكرياتٍ لا

تُنبتُ إلّا حسرةً تُسمّمُ الغدَ قبل أن يُلقي على بابِها نسمةَ رجاءٍ يتيمة.

رجعتْ إلى منتصفِ القاعةِ التي صارتْ بيتَ شفافيّتِها وفضيحتِها. رفعتْ ذراعيها كمن يستسلمُ لعناقِ قدرٍ تأخّرَ طويلًا ثمّ جاء. همستْ للفراغ: «أنا الآن عروسُ النسيان.» وأغلقتْ عينيها نصفَ غمضةٍ، كمن يُجرّبُ الموتَ على جرعاتٍ صغيرةٍ كي لا يوجعهُ كثيرًا حين يجيئهُ دفعةً واحدةً في مساءٍ باردٍ مثل هذا.

في الخارجِ كانت المدينةُ صامتةً كقبرٍ قديم. الأرصفةُ نفضتْ عنها غبارَ العابرينَ الراحلين، النوافذُ موصدةٌ على أسرّةٍ هجرتْ سرَّ الحكاياتِ الليليّةِ التي كانت تُنبتُ أمنياتٍ صغيرةً وتموتُ قبل أن يكتملَ الفجرُ بدقيقةٍ واحدة.

في تلك الليلةِ، حين خرجتْ هي من قاعةِ الزجاجِ، لم ينظر إليها أحد. وحدها رائحةُ عطرِها بقيتْ تتسلّلُ إلى ذاكرةِ المكانِ كشاهدِ قبرٍ مزيّنٍ بوردةٍ ذابلةٍ لا ينتبهُ إليها المارّةُ لأنّهم مستعجلون دائمًا على دفنِ أحلامِهم في حقائبِ الآخرين.

رفعتْ طرفَ ثوبِها الأبيضِ الذي صار رماديًّا من غبارِ الخيبة، ومضتْ. كانت تعرفُ أنّها لم تعدْ تملكُ ما تخسرهُ سوى بقاياها المتعبةِ التي ستتركها في كلِّ زاويةٍ من شوارعٍ لا تعرفُ كيف تُغني للراحلينَ إلا أغنيةً يتيمةً عنوانُها: «ما فاتَ ماتْ».

هكذا عبرتْ هي المدينةَ كما تعبرُ نسمةٌ خجولةٌ مقبرةً مزدحمةً بالأمنياتِ الميتة. لم تلتفتْ خلفها. لم تسألِ الريحَ عن وجهتِها. كانت تعرفُ أنّها إنْ لم تجِدْ وطنًا في صدرِ رجلٍ وعدَها أن يكونَ وطنَها، فلا بأسَ أن تُقيمَ في صدرِ نفسِها كوطنٍ صغيرٍ بحدودِ جسدٍ لم يعُدْ يثقُ بأحدٍ.

ربما كانت تعلمُ في عمقِ روحِها أنّ العروسَ التي زُفَّتْ للنسيانِ ستكتشفُ ذاتَ يومٍ أنّ النسيانَ ليس قبرًا، بل بابٌ سرّيٌّ لحياةٍ أخرى لم تولَدْ بعدُ في حبرِ الورقِ الذي ينتظرُ اعترافاتِها الأخيرة.

هناك، في ذلك الصرحِ الشفّافِ المعلّقِ بين غيمتين من ذاكرةٍ لم تتعلّم النسيان، كانت هي وحدَها. امرأةٌ بلا مرآةٍ ولا ظلّ، تتقدّمُ نحو كبسولاتٍ معلّقةٍ على جدرانٍ زجاجيّةٍ تشبهُ خلايا من ضوءٍ ميتٍ، كلُّ كبسولةٍ منها تُخزّنُ ذكرى، وتُفرغُ فيها رطوبةَ حزنٍ تسرّبَ من قلبٍ عاشَ أكثرَ مما يجب.

وقفتْ أمامَ أوّل كبسولةٍ، كمن يقفُ أمام قبرٍ لا يحملُ اسمًا ولا تاريخًا، فقط تذكارًا من وجعٍ أخفى نفسهُ في شقوقِ القلبِ ليظلَّ حيًّا رغم موتِ الوقت. كانت الكبسولةُ تضيءُ بلونِ اليراعاتِ حين تغادرُ أجنحتُها الحياةَ ولا يتبقّى منها إلا وهجٌ أخيرٌ، كعناقٍ أخيرٍ لعاشقينِ على حافةِ الفراق.

رأتْ نفسَها فيها دميةً ميكانيكيّةً بعيونٍ واسعةٍ لا ترى إلّا ما يُرادُ لها أن ترى. كأنّها ممثلةٌ في مشهدٍ صامتٍ، تُحرّكُ ذراعيها بخيوطٍ غير مرئيّةٍ يحرّكها الماضي، وتضحكُ على خشبةٍ بلا جمهورٍ إلا من الكراسي الخاوية التي تعرفُ سرَّ انحناءِ ظهرِها من ثقلِ الانتظار.

أرادتْ أن تمدَّ يدَها لتُغلقَ تلك الكبسولةَ فتُريحَ نبضَها من رجفةٍ قديمة، لكنّ يدَها ارتعشتْ كفراشةٍ تلامسُ لهبًا تدركُ أنّهُ سيحرقُ جناحَها الوحيدَ للفرار.

عيناها انتقلتا من كبسولةٍ إلى أخرى، كمن يقرأُ فصولًا مبتورةً من حكايةٍ كتبَها أحدٌ آخرُ بقلمٍ من حبرِ الغياب. ها هي هناك، ترقصُ في عرسٍ بلا موسيقى، فستانٌ أبيضُ يشبهُ سحابةً اقتُلعَت من سماءٍ بعيدةٍ وأُلقِيَت في حديقةٍ غرباء. تبتسمُ لجموعٍ من الكراسي الفارغةِ، يداها ممدودتانِ كجناحينِ لا يملكانِ سوى التلويحِ لريحٍ لا تعودُ أبدًا في الاتجاهِ نفسه.

شعرتْ أنّ ضحكتَها هناك لم تكُن لها، كأنّ أحدًا استعَارَ صوتَها حين كانت منشغلةً بترميمِ تصدّعاتِ قلبِها المعلَّقِ على أسلاكِ الانتظار. ضحكةٌ بلا أثرٍ في صدرِها، كغمامةٍ لم تُنجبْ مطرًا، كنافذةٍ لم تفتحْ يومًا إلا على ريحٍ أكثرَ وحشةً من الداخلِ الذي تحميه.

اقتربتْ من كبسولةٍ أخرى، تحوي دمعةً تجمّدتْ منذُ الليلةِ الأولى. دمعةٌ باردةٌ كحجرٍ صغيرٍ في قاعِ نهرٍ جفَّ وصارَ مجرّدَ مسارٍ للريح. استدارتْ بعينيها حول القاعةِ، فتحتْ ذاكرتَها كالكتابِ المهترئ، تَقلّبُ صفحاتهُ بحذرٍ خشيةَ أن يسقطَ من بينِ سطورِه ما تبقّى من أسرارٍ حاولتْ أن تُخبّئها عن نفسِها طيلةَ العمر.

على الجدارِ المقابلِ، كبسولةٌ تختنقُ بزفيرِ قُبلةٍ كان طعمُها رمادًا. تذكّرتْ تلك الليلةِ حين مالتْ نحوهُ أكثرَ مما ينبغي، وكيفَ تكسّرَ الليلُ بينَ شفتيها قبلَ أن تكتشفَ أنّ الشفاءَ التي تُقبّلُ كذبةً لا تُنجبُ إلا خيبةً باردةً كرمادِ قِبلةٍ لم يعرفْها قلبٌ صادقٌ يومًا.

مدّتْ كفّها لتلامسَ زجاجَ الكبسولةِ، فأحسّتْ ببرودتِه تنفذُ من شراينِ أصابعِها حتى قلبِها الذي حاولَ أن يُقنعَ نفسَه بأنّهُ ما زالَ ينبضُ. سحبتْ يدَها كمن يحرّرُها من قيدٍ خفيٍّ، ثم أغمضتْ عينيها لتسمعَ الصوتَ القديمَ الذي كان يقولُ لها: «لا تخافي من الذاكرة، الخوفُ لا يُغيّرُ الماضي.»

فتحتْ عينيها على ضوءٍ خافتٍ، فرأتْ ظلَّها معلقًا على الجدارِ مثلَ شاهدِ قبرٍ يقفُ هناك ليُذكّرَها أنّها حينَ سلّمتْ قلبَها للغيابِ، لم تُبقِ لنفسِها إلّا ظلًّا هشًّا يسكنُ أطرافَ الضوءِ كلّما اقتربتِ العتمةُ أكثر.

جلستْ على مقعدٍ وحيدٍ في ركنِ الصرحِ الشفّاف، ظهرُها مسنودٌ إلى جدارٍ من زجاجٍ يريكَ من الداخلِ أكثرَ مما يريكَ من الخارج. حدّقتْ طويلًا في السقفِ العالي، سألتْ نفسها: كيفَ يصبحُ القلبُ متحفًا للذكرياتِ حين نعجزُ عن رميها في مقبرةِ النسيان؟ لماذا نُحنّطُ لحظاتٍ تمنّينا لو متنا قبلَ أن نعيشَها؟ وما الذي يبقَى منّا حين يتسرّبُ العمرُ منّا في كبسولاتٍ محكمةِ الإغلاق؟

لم تجدْ جوابًا. الأحجيةُ كانت أكبرَ من كلماتِها المعلّقةِ بين ضلعينِ أرهقهُما العتابُ. كلُّ كلمةٍ حاولتْ أن تنطقَ بها خرجتْ مبلّلةً بحزنٍ طازجٍ كأنّ الألمَ في صدرِها طفلٌ يتجدّدُ كلّما ظنّتْ أنّها قتلتْهُ بالسكوت.

مرّتْ أصابعُها على الكبسولاتِ واحدةً تلوَ الأخرى، كمن يُعدُّ أيامَهُ المنسيّةَ في دفترِ حياةٍ غيرِ مكتمل. في كلّ كبسولةٍ حكايةٌ صغيرةٌ تهمسُ لها بأنّها لم تخسرْ إلا ما لم يكنْ لها أصلًا. أنّ الذي خذلَها لم يكنْ رجلًا من لحمٍ ودمٍ، بل وهْمًا نسجتْهُ من خيوطِ وحدتِها حين كانت تحتاجُ إلى كتفٍ يربّتُ على هشاشتِها.

تذكّرتْ كيفَ كانت تخافُ من الليلِ إن تأخّرَ عن حكاياتِها، وكيفَ كانت تُشعلُ شموعًا على طاولتِها الصغيرةِ لتُقنعَ قلبَها أنّ الضوءَ ينتصرُ آخِرَ الأمر. لكنّ الشموعَ لم تنتصرْ يومًا إلا على

نفسها، كانت تحترقُ لتُنيرَ للآخرينِ طريقًا لم يُفكّرْ أحدٌ أن يسلكَهُ نحوها.

أغمضتْ عينيها مجدّدًا، فرأتْ نفسَها تركضُ في دهليزٍ طويلٍ من زجاجٍ، خطواتُها تتردّدُ كوقعِ مطرٍ على صفيحٍ باردٍ، وصوتُها البعيدُ ينادي اسمًا لم يجرؤ يومًا على الالتفاتِ إليه. كانت تركضُ من كبسولةٍ إلى أخرى، تبحثُ عن لحظةٍ لم تفسدْها الخيبة، عن قبلةٍ لم يتحوّلْ طعمُها إلى رمادٍ، عن دمعةٍ ذابتْ في دفءِ صدرٍ حقيقيٍّ لم يختنقْ بصقيعِ الغياب.

لكنّ الدهليزَ كان يمتدُّ بلا نهاية، وكلُّ كبسولةٍ كانت تُطفئُ في صدرِها ضوءًا صغيرًا كانت تحسبُهُ نجمةً تهديها بعضَ الطريقِ وسطَ عتمةٍ تعلّمتْ أن تحتالَ عليها بالكتابةِ حينًا وبالبكاءِ أحيانًا.

وحين عادت إلى المقعدِ الخشبيِّ ذاته، كانت تشعرُ أنّ جسدَها لم يعُدْ يسعُ روحًا كبرتْ عليه. صار صدرُها خزانةً مكتظّةً بلحظاتٍ معلّقةٍ، أجراسٍ صامتةٍ لا يقرعُها سوى ريحٍ تمرُّ عابرةً، وتتركُ وراءها رنينًا بلا عزاء.

همستْ لنفسِها سؤالًا بدا كنافذةٍ مواربةٍ على هاوية:»ما الذي يُنقذُنا منّا؟» فردّد الجدارُ الزجاجيُّ صدى السؤالِ بضحكةٍ باردةٍ، تُذكّرها أنّ القلبَ إذا لم يمنحْ نفسَهُ مفاتيحَ الصفحِ لن يعبرَ يومًا أسوارَ ندمِه.

في تلك اللحظةِ أحسّتْ أنّ وحدتها لم تعُدْ مطلقة. هناك، في ركنٍ بعيدٍ من صرحٍ مكشوفٍ كجرحٍ قديم، وقفتْ طفلةٌ تشبهها. كانت عيناها نقيّتينِ كنجمتينِ لم تتلوثا بعدُ بغبارِ الحلمِ الثقيل. ابتسمتِ الطفلةُ ومدّتْ كفًّا صغيرةً من خلفِ الزجاجِ، كأنّها تقول: «تعالي... ما زال في الوقتِ فسحةٌ.»

أرادتْ أن تصرخ: «علّميني كيف أبدأُ من جديدٍ. دلّيني على بابٍ أنجو بهِ من ذاكرتي.» لكنّ الكلماتِ خانتها، ثقيلةً كحجارةٍ رطبةٍ في صدرِ غريق. عبرتْ بينهما نظرةٌ طويلةٌ كجسرٍ واهنٍ من ضوءٍ يتدلّى فوق نهرٍ من ظلالٍ لم تمتْ كلّها بعدُ.

لم تحملْ تلك الطفلةُ معجزةً تُعيدُ بها عقاربَ الوقتِ إلى الوراء، لكنها كانت شاهدًا نقيًّا على احتمالٍ أخير: أنّ الشمعةَ إذا خمدتْ في يدِ امرأةٍ أنهكها الليلُ، فقد تشعلها من جديدٍ طفلةٌ تُخبّئُ عودَ ثقابٍ صغيرٍ في جيبِ فستانها الملوّنِ بالأحلام.

هناك، في الصرحِ الزجاجيِّ الذي يعلّقُ الذكرياتِ كبقعِ ضوءٍ خافتةٍ على جدارِ المساء، فهمتْ أنّ الذكرى ليست قبرًا دائمًا، بل بذرةٌ تختبرُ جرأةَ القلبِ على أن يسقيها بعفوٍ نادرٍ لتورقَ من جديدٍ في أرضٍ ظنّها عاقرًا.

كان «هو» واقفًا هناك، عند تخومِ ماضيه، يتّكئُ بكتفِ حنينه على جدارٍ من شظايا الأيامِ المنكسرة. ضمَّ راحتيه حولَ شظيّةٍ

مرآةٍ قديمةٍ انتزعها من ليلٍ بعيدٍ لم يُبقِ له سوى فتاتِ الأحلامِ وصدى السؤالِ. تلك الشظيّةُ لم تكن زجاجًا مكسورًا فحسب، بل قطعةً من روحهِ خبّأها طويلًا تحت جلدهِ خوفًا من أن يأكلها النسيانُ كما يلتهمُ الموجُ أثرَ العابرينَ على الرمل.

وقفَ هو أمام الشظيّةِ كما يقفُ أمام ضريحٍ خفيٍّ، ضريحٍ دفنَ فيه ضحكتَهُ الأولى ويدَهُ التي امتدّتْ ذات مساءٍ تبحثُ عن كفٍّ فلم تجدْ غيرَ فراغٍ باردٍ. رأى وجهَهُ منعكسًا عليها، وجهٌ مثقّبٌ بخيباتٍ دقيقةٍ كإبرٍ خاطتْ صدرهُ بغفلةٍ حين ظنَّ أنّ الرقصَ مع الأشباحِ أقلُّ وجعًا من مواجهةِ الحقيقة.

النظرةُ التي سرّبها نحو «هي» قبل لحظاتٍ كانت كفيلةً بأن تشظّي ما تبقّى من مرآتهِ. انكسرتْ ثانيةً، وهذه المرّة لم تكتفِ بشقٍّ كفّهِ، بل حفرتْ في ذاكرتهِ سردابًا آخرَ ليُخبّئ فيه نزيفًا لا يهدأ. رأى دمَهُ يختلطُ بانعكاسِ ماضيه، دمٌ أحمرُ كخجلٍ مسفوكٍ يرسمُ طريقًا هشًّا نحو بابٍ يدركُ أنّه لن يُفتحَ أبدًا.

في تلك اللحظةِ لم يكن «هو» رجلًا فقط، كان زمنًا يتهاوى على ساقينِ من أسئلةٍ وندمٍ. تذكّرَ صوتَ الزجاجِ حين انكسرَ لأوّلِ مرّةٍ تحت وطأةِ كذبةٍ كان يعرفُ أنّها ستكسّرهُ، لكنه مع ذلك بسطَ كفّيه ليلتقطَ الشظايا، مؤمنًا بأنّه قادرٌ على إعادةِ النافذةِ إلى صلابتها الأولى، قادرٌ على إقناعِ الريحِ بأن تصمتَ قليلًا إذا توسّلَ لها بحبٍّ أعمى.

لكنّ الريحَ لا تُنصتُ لعاشقٍ أغمضَ عينيه حين أحبّ. والرجلُ الذي أحبَّ مغمضًا، خسرَ الضوءَ يوم أُغلقتْ في وجهِه نافذةُ العيونِ التي رأى بها العالمَ كلَّه.

كان يعرفُ أنّ «هي» ما زالتْ ترقصُ في فلكِ غيابهِ. وأنّ شبحَهُ الذي تركَهُ يوم رحلَ، لم يكن أقلَّ وحشةً من حزنٍ حرثَ قلبَهُ كأرضٍ عطشى تنتظرُ غيمًا لا يأتي. رآها تدورُ هناك، تبتسمُ لظلٍّ لا يبتسمُ لها، وتلقي فوقَ كتفهِ ذراعًا من وهمٍ كي لا تهوي في فراغٍ يشبهُ خواءَهُ الآن.

تقدّمَ نحوها خطوةً خطوةً، كلّ جرحٍ يسحبهُ أقرب، كأنّ الألمَ حبلٌ خفيٌّ يربطُ ماضيهُ بقلبِها الذي لم يبرأْ من اسمهِ بعد. في صدره كانت خفقةٌ خائفةٌ تطرقُ أبوابًا مُغلقةً منذُ الوداعِ الأوّل. وعلى شفتيه همسٌ مبتور: «لو أنّني... لو أنّها... لو أنّنا...» لكنّ الأفعالَ المعلّقةَ لا تُعيدُ ترتيبَ حكاياتٍ التهمَتها النارُ ذات ندمٍ.

نظرَ إلى دمِه ينزلقُ كخريطةٍ ممزّقةٍ لوطنٍ هجَرَهُ ناسُهُ في عتمةٍ سريعةٍ، وتركوهُ عاريًا للريحِ والحشراتِ التي تأكلُ بقايا الأماني اليابسة. مرّرَ إصبعَهُ على الشظيّةِ، مسحَ دمهُ ببطءٍ كمن يُربّتُ على جرحٍ يدركُ أنّه سيظلُّ مفتوحًا. ابتسمَ ابتسامةً باهتةً كرجلٍ يرى ظلَّهُ في مرآةٍ عتيقةٍ تآكلَ زجاجُها من فرطِ الانتظار.

قال في سرِّه: «يا لهذا الجرحِ الذي صارَ يشبهني... كلّي صارَ شظيّةً، وأنا رجلٌ يضمدُ شظايا رجلٍ آخرَ ماتَ فيهِ ولم يُدفن.»

أدار وجهه بعيدًا عن «هي»، كمن يخشى أن تسرقَ عيناه اعترافًا لم يكن مستعدًّا أن يهديه لها، لا في لحظةِ انكساره الأخيرة. لم يشأ أن ترى دمَهُ ينقطُ فوق بلاطٍ باردٍ، ولا أراد لنظرتها أن تكونَ طوقَ نجاةٍ يخلّصه من قسوته على نفسه. أرادها أن تظلَّ تحفظ لهُ صورةَ الرجلِ الذي غادرَ واقفًا، لا ذاك الذي نزفَ الحقيقةَ من خاصرتِه كزجاجةٍ شقّها الصدأ حتى صارتْ لا تصلحُ إلّا لتجرح.

تراجع خطوةً، ثم ثانية، كلُّ خطوةٍ كانت تنزعهُ من الحاضرِ لتلقيهِ عامًا وراء عامٍ في زواريبِ شبابهِ الأوّل. شعر أن خطواتهُ تعيدُه إلى تلك الليلةِ التي لم يفهمْ فيها كيف صارَ رجلًا يُرتجفُ أمامَ امرأةٍ تتقنُ أن ترقصَ فوق رمادهِ دون أن تتفحّم. رأى «هي» من بعيد، رأى وجهها الذي كان ذات فجرٍ نافذةً لم يفتحْها سوى لأجلها. تذكّر ضحكتَها الأولى حين كانا يضحكانِ من فرطِ البساطةِ، من فرطِ جهلِهما أنّ العالمَ قد يحاكمُ ضحكةً إذا زادتْ عن حدِّها.

همس لنفسه: «لم نكن نعرفُ أنّ الأحلامَ التي لا بيتَ لها لا تموت. إنّها تحيا فينا أشباحًا، تنتقمُ منّا كلّما أصررنا أن نعيشَ دونها.»

رفع الشظية أمامَ وجههِ. حدّق فيها كمن يتأملُ قبرًا زجاجيًا

يختزنُ وجهًا قديمًا. رأى عينيه كما كانتا: مراهقتانِ في غرامٍ لم يتعلّمِ التراجع. رأى أصابعهِ وهي تزرعُ أولَ قُبلةٍ في كفّها كمن يغرسُ شجرةَ زيتونٍ في أرضٍ عطشى. رأى كيف تكسّرَ كلُّ شيءٍ حين لفظتْ تلك الجملةَ المسافرةَ كخنجرٍ خفيف: «لا تنتظرني كثيرًا... قد لا أعودُ كما تحلم.»

لم يدركْ يومها أن «قد» هي أخطرُ كلمةٍ تهدمُ بيتًا ببطءٍ، تنحرُ وعدًا دون دمٍ أو صراخٍ، وتتركُهُ ينزفُ وحده. والآن، بعدما صار كلُّ شيءٍ شظايا، صار يعرفُ أن تلك الجملةَ كانت نبوءةً قصيرةً لحطامٍ طويلٍ لم يغادرْ كفّهُ قطّ.

أغلقَ يدهُ حول الشظيةِ حتى شعرَ بحرارةِ دمِه تتسرّبُ بين أصابعهِ، كمن يذكّرُ نفسهُ أن الجراحَ هي آخِرُ ما بقي له ليحتمي به من رياحِ النسيان. فكّر أن يقذفها بعيدًا، أن يتركها تنطفئُ وسط غبارِ القاعةِ الفسيحةِ كذكرى باردةٍ دفنها العمرُ تحت نعوشٍ صغيرةٍ من صمت. لكنه تراجع، كأنه خاف إن رماها أن يفقدَ الدليلَ الوحيدَ على أنهُ كان هنا، كان يومًا عاشقًا قبل أن يصيرَ ظلًا شفّافًا لا لونَ لهُ إلا رمادُ الأسئلة.

التفت إلى «هي» ثانيةً. كانت ما تزالُ ترقصُ مع شبحٍ لا يراهُ سواها. شعر أنه لم يعُد يعنيها، ولم يعُد يعني شبحَها الذي صار أكثر حياةً منه. ابتسم ابتسامةً باهتةً لن تراها، وهمس لنفسه: «ربما

أنا الشبحُ الآن. وربما ما عدتُ حتى شبحًا. لستُ سوى شظيةٍ عالقةٍ في مرآةٍ لم تجدْ لها جدارًا لتستندَ عليه.»

وحين غادر القاعةَ بخطواتٍ تخلّفُ وراءها خيطًا رفيعًا من دمهِ الصامت، أدرك أنه لم يعُدْ يحملُ الشظيةَ في يدهِ فقط. صار هو نفسُهُ الشظيةَ. صار الزجاجُ المكسورُ مرآتهُ الوحيدة، مرآةٌ يرى فيها كلّ شيءٍ إلّا نفسَهُ كاملةً كما كانت ذات حُبّ.

خرج إلى الشارعِ الذي ابتلعهُ بصمتٍ. في يدهِ ظلّتِ الشظيةُ دافئةً من دمه، وفي صدرهِ ظلّت «هي» ترقصُ مع شبحٍ لن يعرفَ يومًا كيف يغفرُ لهُ رقصةً لم يكتمل لحنُها.

هناك، حيث ابتلعَهُ الليلُ كسرٌّ صغيرٍ لم يكتبهُ أحد، سمعَ صوتهُ الطفوليَّ يهمسُ من حنجرةِ رجلٍ أثقلتهُ الحياةُ بأسئلتها المعلّقة: «يا هي... كم مرةٍ عبرتُكِ ولمستُّ فيكِ أطرافَ ذلك الحبِّ الذي أخافَنا من أنفسِنا؟ كم مرةٍ قلتُ لنفسي إنّنا أمهرُ في التمثيلِ منّا في الحقيقة؟ إنّنا كنّا ممثلَينِ رديئَينِ على مسرحٍ صدّقنا فيهِ كذبتَنا لأنّ لا وقتَ لدينا لنجرؤ على الاعترافِ أنّ لا نصّ لنا إلّا الفقدُ.»

كانت «هي» تنظرُ إليهِ بوجهٍ لا يشي بشيءٍ سوى أنّهُ سمعَ هذا الكلامَ من قبل. بل سمعَتهُ من قلبِها حين حاولَتْ ذاتَ ليلةٍ أن تهمسَ لهُ أنّ ما بينهما ليس حبًّا، بل اعتذارٌ طويلٌ عن الوحدةِ التي نخشاها مع أنفسِنا. يومَها أدارَ ظهرَهُ لها كمن يرفضُ اعترافًا جاءَ

متأخّرًا، واليومَ يُعيدُهُ بنفسِ اللغةِ لكنهُ أضعفُ، أضعفُ بكثيرٍ من أن ينقذَ بهِ بقايا الحكاية.

استندَ إلى الجدارِ خلفَهُ، وتركَ رأسَهُ يرتدُّ إلى الخلفِ كمن يريدُ أن يسقطَ من ذاكرتهِ كلَّ الصورِ التي علّقها هناكَ وهو يظنُّها شاهدةَ حبٍّ خالدٍ. قالَ وهو يضحكُ ضحكةً قصيرةً تشبهُ شهقةَ بكاءٍ مكتوم: «يا هي... لقد غيّرنا أسماءَنا ألفَ مرةٍ. منحنا قصّتَنا عناوينَ جديدةً كي نظنَّ أنّها لم تمتْ. زيّنا الخرابَ بزهورٍ من ورق، كتبنا على الأبوابِ الموصدةِ قصائدَ عشقٍ، ووضعنا في جيوبِنا مفاتيحَ لا تفتحُ شيئًا سوى خزائنَ أسرارٍ نخجلُ أن نُظهرَها. كذبنا على أنفسِنا أكثرَ من كذبِنا على بعضِنا. وأكبرُ كذبةٍ عشناها كانت كلمةَ «دائمًا».

أغمضَ عينيه، شعرَ بأنّ الكلماتِ تُفرغُ صدرَهُ من ضجيجِه، كأنّهُ ينقّي جرحَهُ بحقيقةٍ متأخّرةٍ لم يعُدْ لها مكانٌ إلّا كعلامةٍ على شاهدِ قبرٍ لا يراهُ أحد. فتحَ عينيه ببطءٍ، فرأى «هي» واقفةً أمامهُ، لا تقتربُ ولا تبتعدُ. تشبهُ ظلًّا لامرأةٍ تركتْ قلبَها في غرفةٍ أخرى، جاءتْ لتسمعَ جنازةَ الوهمِ فقط، لا لتبكي.

مدّ يدهُ نحوها كمن يُريدُ أن يلمسَ بها زمنًا كان لهما وحدَهما، لكنّهُ توقّفَ عند منتصفِ المسافة. تراجعَ قليلًا، ثم رفعَ يدَهُ الأخرى إلى صدرِه. شعرَ بأنّ صدرَهُ لم يعُدْ يضيقُ إلا بما لم يقُلْهُ بعد. قالَ بصوتٍ أخفضَ هذه المرّة، صوتٍ يتسلّلُ بين ضلعينِ

كسيرينِ كريحٍ تتسلّلُ من نافذةٍ مهجورة: «تُدركينَ يا هي؟ نحنُ قتلنا الحبَّ ببطءٍ، خنقناهُ تحتَ وسائدِ المجاملاتِ. صرنا نهربُ من بعضِنا إلى بعضِنا، ونعودُ بأيدينا الفارغةِ إلى سريرٍ يشبهُ سريرَ موتى. نغفو على حافةِ الذنبِ ونصحو على حافةِ ندمٍ جديد.»

تنهدَ بصوتٍ سمعَتْهُ روحُها قبلَ أذنِها. قالتْ لهُ أخيرًا، بصوتٍ خافتٍ كهمسِ البحرِ حينَ يُعاتبُ الشاطئ: «وأنا، هل تظنُّ أنّني لم أكنْ أعرفُ؟ لقد عرفتُ منذُ اللحظةِ الأولى أنّنا نكتبُ حكايةً خاسرةً. لكنّني كنتُ أحتاجُ إلى قصيدةٍ سيّئةٍ أعلّقُها على حائطِ وحدتي. كنتُ أحتاجُ إلى مشهدٍ باهتٍ أقولُ عنهُ يومًا إنّهُ كان حبًّا.»

ضحكَا معًا ضحكةً قصيرةً مثلَ رمقٍ أخيرٍ لحبٍّ لفظَ أنفاسَهُ الآن. سادَ بينهما صمتٌ لم يعُدْ يشبهُ أيَّ صمتٍ مضى. صمتٌ خفيفٌ كترابٍ يُذرّى فوقَ قبرٍ توًا انطفأتْ فيه شمعةُ روحٍ أُطفئتْ دونَ بكاءٍ أو مواراة.

ثمّ جلسَ «هو» على طرفِ المقعدِ الخشبيِّ القديمِ الذي شهدَ أحلامَهُ الأولى معها. مرّرَ أصابعَهُ على الخشبِ المهترئِ كمن يمرّرُها على ظهرِ ذاكرةٍ لا يريدُها أن تموتَ كلّها دفعةً واحدة. تذكّرَ كيفَ كانا يجلسانِ هنا، يخطّانِ أسماءَهما على ظهرِ المقعدِ، يحلمانِ بطفلٍ سيأتي، ببيتٍ أبيضَ صغيرٍ في ضاحيةٍ لم تبنَ بعد، وبسماءٍ صافيةٍ من كذبِ الآخرين.

«هل تعرفينَ يا هي؟» همسَ وهو يُحدّقُ في خشبِ المقعدِ: «ما زلتُ أحفظُ أسماءَنا هنا. محفورةً كسطرٍ ناقصٍ من قصيدةٍ طويلةٍ أضعتُ وزنَها وقافيتَها حين صارَ قلبي مترهلًا بما يكفي لأحملَ فيهِ قصائدَ لنساءٍ لا تُشبهكِ.»

اقتربتْ «هي» قليلًا. وضعتْ كفّها على كتفِه برفقٍ يشبهُ رفقَ أمٍّ تربّتُ على ابنٍ خائفٍ من العتمة. لم يكنْ بينهما ما يُقالُ أكثر. كان الكلامُ كلّه قد قيلَ، والألمُ كلّه قد قُسّمَ بينهما حصصًا متساويةً بلا عدلٍ ولا رحمة.

تبادلَا نظرةً أخيرةً كمن يتبادلُ ورقةَ طلاقٍ لا تحتاجُ إلى توقيع. لم ينهضا ليودّعا بعضَهما، بل تركا أرواحَهما تُشيّعُ رفاتَ ما تبقّى منهما إلى قبرٍ سَيُغلَقُ الليلةَ دونَ شاهدٍ أو نائحٍ أو وردٍ صناعيٍّ يزيّنُ ركامَ الحلم.

وحين افترقا، كان في صدرِ «هو» فراغٌ يشبهُ فجوةَ نافذةٍ انكسرتْ زجاجتُها منذُ ألفِ عام، وما زالَ هو يحرسُها من ريحٍ لا تتعبُ من العودة. وكان في صدرِ «هي» قصيدةٌ ركيكةٌ خبّأتها في درجٍ منسيٍّ، كي لا يقرأَها أحدٌ سواهُ إذا قرّرَ يومًا أن يفتّشَ عن صدى الطفولةِ الضائعةِ في قصصِ النساءِ اللواتي لا يُشبِهْنَها.

في تلكَ اللحظةِ الهشة، حين كانت «هي» تلمسُ بكفٍّ مرتعشةٍ كبسولةً شفّافةً تحبسُ ضحكةً مستعارةً من حفلِ زفافٍ صار بعيدًا

كقارةٍ غارقةٍ تحتَ ماءِ النسيان، لمحتْ شظيّةَ المرآةِ الصغيرةِ التي يحملُها «هو « تنعكسُ على جدارِ الزجاجِ خلفها. لم يكنْ الضوءُ الذي تسرّبَ من بينِ أصابعِه ضوءًا عاديًا، بل كان ضوءَ انكشافٍ صارخٍ لحقيقةٍ تعاميا عنها طويلًا، كحقيقةِ مرضٍ خبيثٍ يعيشُ تحتَ الجلدِ بصمتٍ حتى ينهشَ صاحبهُ من الداخلِ دونَ أن يصرخ.

تجمّدتْ «هي» في مكانها، وأحسّتْ للحظةٍ أنّها ليستْ وحدها من يراها؛ كانت ترى وجهَها الضاحكَ في الكبسولةِ كدميةٍ من شمعٍ لم تعرفْ الدفءَ يومًا، وترى وجهَ «هو» المشوَّهَ بالحزنِ المنعكسِ في شظيّةِ المرآةِ كجرحٍ مفتوحٍ يفضحُ جسدًا كان يحاولُ التجمُّلَ بثوبِ الأكاذيب. كأنّما انعكاسُ الوجهيْنِ معًا أعادَ كتابةَ المشهدِ كلَّهُ من جديد، لكن بصدقٍ موجعٍ لا يرحم.

للحظةٍ أحسّتْ أنّها تسمعُ صدى تصدّعٍ داخليٍّ كصوتِ مرآةٍ تنكسرُ في صدرِها، صوتٍ لا يسمعهُ سواها وسواه. هنا، في هذا المعبدِ البلّوريِّ المعلّقِ بين وهمِ الذاكرةِ وقسوةِ الحاضر، بدا كلُّ شيءٍ عاريًا، باردًا، مثلَ جسدِ حبٍّ جثا على ركبتيهِ أمامَ الرياحِ طالبًا غفرانًا لن يأتي.

استدارتْ نحوهُ ببطءٍ، كمن يواجهُ شاهدَ قبرٍ كُتِبَ عليهِ اسمُهُ بخطٍّ واضحٍ لا يحتملُ التأويل. رأتْ في يدهِ الشظيّةَ ترتجفُ بين

أصابعِه، تقطرُ بقايا دمٍ أو بقايا خيبةٍ لا تفرّقُ بينهما. أرادتْ أن تقولَ لهُ شيئًا، أيَّ شيءٍ يليقُ بهذا العُري الفاضحِ الذي تجرّدا لهُ سهوًا، لكنها لم تجدْ في لسانِها حرفًا واحدًا يُنقذُ كبرياءَهما من هذا السقوطِ الحرّ.

قالَ «هو» بصوتٍ خافتٍ، مبحوحٍ كصدى جدارٍ ضاقَ بسرٍّ كبيرٍ: «انظري جيّدًا، ... هذا كلُّ ما تبقّى. وجهانِ مشطوبانِ من سجلِّ العشّاق، متروكانِ على رصيفِ الوهمِ ينتظرانِ قطارًا لن يأتي.»

رفعتْ رأسَها إليهِ بعينينِ تملؤهما أسئلةٌ لم يَعُدْ لها جدوى. في تلك اللحظةِ، أدركتْ أنّ كلَّ تلكَ الضحكاتِ المعلّبةِ التي احتفظتْ بها الكبسولاتُ ككنزٍ مزيّفٍ لم تكُنْ سوى حروفٍ فارغةٍ نُقِشَتْ على زجاجٍ هشٍّ تحطّمَ تحتَ أوّلِ عاصفةِ حقيقة.

تقدّمَ منها بخطوةٍ واحدةٍ. شَعرتْ بأنَّ المسافةَ بينهما لم تكُنْ يومًا مسافةَ أجسادٍ، بل مسافةَ قلوبٍ خائفةٍ من أن تقتربَ فتُرى. كانا يعيشانِ طوالَ الوقتِ على هامشِ اللقاءِ الحقيقيّ، يتبادلانِ كلماتٍ تشبهُ الرصاصَ المطّليَّ بالسكر، حلوةً ظاهريًّا، وقاتلةً إذا بلغتْ موضعَ الألم.

رفعَ «هو» الشظيّةَ أمامَ وجهِها، ثم قالَ كمن يقرأُ مرثيّةً لجثةٍ لم يُصلَّ عليها: «هذهِ المرآةُ نحن. كسورٌ صغيرةٌ لم نحاولْ يومًا

إصلاحَها حقًّا. فقط علّقنا فوقَها ستائرَ سميكةً من التصفيقِ الكاذبِ والابتساماتِ المستأجرةِ والليالي الطويلةِ التي نحشوها بالأسئلةِ وننهيها بلا إجابة.»

تذكّرتْ «هي» تلكَ الليلةِ التي وقفا فيها أمامَ المرآةِ ذاتها. كيف أضاءا الغرفةَ بشموعٍ كثيرةٍ ظنّاها ستُنقذُهما من ظلمةِ الشكّ. كيف اختبآ خلفَ حروفِ قصيدةٍ مسروقةٍ من دفترِ شاعرٍ غريبٍ لا يعرفُ شيئًا عن أوجاعِهما. يومها لم يجرؤا على النظرِ طويلًا في أعينِ بعضِهما، خشيةَ أن تفضحَهما المرآةُ وتقولَ الحقيقة: أنّ حبّهما مجرّدُ محاولةٍ فاشلةٍ لإسكاتِ أصواتِ الوحدةِ العمياء.

تنفّستْ بعمقٍ، ثم قالتْ لهُ بنبرةٍ هادئةٍ كريحٍ تمرُّ فوقَ حقولٍ يابسةٍ: «ظننّا أنّ الحبَّ شجرةٌ يمكنُ أن تنبتَ من حجرِ الصمت. لكنّنا لم نكنْ أكثرَ من ساقيْنِ خائفتيْنِ تحملانِ جثّةَ حلمٍ نسيَ أن ينمو.»

مرّ إصبعُها برفقٍ على الشظيّةِ في يدِه. أحسّتْ ببرودتِها تحتَ جلدِها، كأنّما تحتكُّ بذاكرتِها العاريةِ التي لم يبقَ فيها موضعٌ لضمّادةٍ أو كذبةٍ صغيرةٍ تصلحُ لترقيعِ صدعٍ قديم.

«هو»، تمتمتْ باسمهِ بصوتٍ بالكادِ يليقُ بظلِّ رجلٍ كانَ لها يومًا كلَّ الرجالِ. «هو... هل رأيتَ كمْ كنّا وحيدَيْنِ ونحنُ معًا؟»

هزَّ رأسَهُ بصمتٍ، كأنّهُ يعترفُ أخيرًا: نعم، رآها. رأى وحدتَهما وهي تتسلّلُ إلى سريرِهما، تحشوُ الوسائدَ بهمهماتِ قلقٍ وتتركُ فوقَ البطّانيةِ ظلالَ غيابٍ طويلٍ. رأى وحدتَهما وهي تمشي معهما في الشارعِ، تجلسُ بينَهما على المائدةِ، تختبئُ في حقائبِ سفرِهما كلَّما أقسما أنّ هذهِ المرّةَ ستكونُ الأخيرة.

«كنّا غرباءَ، ...» قالها كمن يضعُ سكينًا على حنجرةِ السرِّ ويشقُّهُ أخيرًا: «لم نكنْ نحبُّ بعضَنا بقدرِ ما كنا نحتاجُ بعضَنا. والاحتياجُ يا حبيبتي هو أفقرُ أشكالِ الحبِّ. الاحتياجُ جوعٌ، والحبُّ شبع. وأيُّ جوعٍ هذا الذي لم نشبعْهُ إلا بالفراغِ أكثر!»

ابتسمتْ ابتسامةً لم يعرفْ كيف يقرأها. كانت ابتسامةَ امرأةٍ تخلعُ عن كتفِها عباءةَ حلمٍ بالٍ وترميها في مهبِّ الحقيقةِ دونَ أسفٍ أو حنين. قالتْ لهُ وهي تُعيدُ الشظيّةَ إلى كفِّه: «احتفظْ بها. دعها تذكّركَ أنّنا كنّا نكذبُ بصدق. وأنّ الكذبَ حين يُصنعُ من خوفٍ يشبهُ الصلاةَ في معبدٍ بلا إله.»

في تلك اللحظةِ، شعرَ «هو» بأنّهُ فقدَ شيئًا أكبرَ من «هي». فقدَ الصورةَ الأخيرةَ التي حاولَ أن يحفظَها عن حبٍّ صارَ كالأطلالِ التي لا يزورها إلا العشّاقُ الذين يهوونَ الرثاءَ أكثرَ من الحياة. مدَّ يدهُ إلى وجهِها، لم يلمسْهُ. فقط أشارَ إليهِ كمن يلمسُ طيفًا ويودّعهُ إلى الأبد.

«هي...» همسَ بها مرّةً أخيرةً، ثم أدارَ ظهرَهُ للقاعةِ الزجاجيةِ التي صارتْ مقبرةً شفّافةً لجثّةِ حبٍّ انتَظَرَ كثيرًا أن يُدفَنَ بكرامةٍ.

خرجَ من «معبدِ الشفافيةِ» مُثقلًا بخطواتٍ تبدو خفيفةً للغرباءِ وثقيلةً عليهِ كألفِ ذاكرةٍ لم يختَرْ أن يحملَها. كانت «هي» ما تزالُ واقفةً هناك، تُحدّقُ في الكبسولاتِ المعلقةِ كفقاعاتِ زمنٍ لم يُولدْ كاملًا ولم يمتْ تمامًا.

وحين غابَ «هو» خلفَ البابِ الزجاجيّ، أغمضتْ «هي» عينيها قليلًا، فاختفتْ الأضواءُ وانطفأتِ الأصوات. لم يبقَ سوى نبضٍ هادئٍ يشبهُ همسَ حياةٍ جديدةٍ تُنبتُها امرأةٌ لم تعُدْ بحاجةٍ إلى بطّانيةٍ مهترئةٍ من وهمٍ اسمهُ الحب.

الحبُّ الذي يُحاكمُ هنا ليسَ خطيئةَ القلبِ الذي خذلَ نبضَهُ ذات خيبة، بل جريمةُ العينِ التي تجرّأتْ أن تُبصرَ ما وراءَ الستارِ المخمليِّ للأدوارِ الزوجيّةِ الباهتة. هنا، في «معهد الأوهام الزوجية»، ذلك الصرحِ الهلاميِّ الذي بناهُ المجتمعُ فوقَ ركامِ مشاعرَ مستهلكةٍ، تُعَدُّ الحقيقةُ وصمةَ عارٍ كبرى. الحقيقةُ هنا عدُوٌّ، مُخرّبٌ، فاتحُ شبابيكَ الغرفِ المقفلةِ على رائحةِ التعفّنِ الذي خيّطناهُ بأسمائنا، وخبّأناهُ تحتَ أغطيةِ الأسرّةِ الفاخرة.

كانتْ «هي» واقفةً تحتَ القبةِ البلّوريةِ للقاعةِ الكبرى، عيناها معلّقتانِ على صفوفِ «الكبسولاتِ الزجاجية» التي انتُزِعَتْ من

تلافيفِ الذاكرةِ وحُبستْ في معارضَ مضاءةٍ كمتحفٍ للأكاذيب. رأتْ في إحداها صورتَها عروسًا تضحكُ. تلك الضحكةُ التي هَرَّبتْ بها خوفَها من نفسها إلى فمٍ آخر، كي لا يكتشفَ الحضورُ أنّ تحتَ طرحتِها البيضاءِ تختبئُ أرملةٌ فقدتْ حبَّها قبل أن تُزَفَّ إليهِ رسميًّا.

مدّتْ كفّها نحو الزجاجِ الرقيقِ كأنّها تحاولُ أن تلامسَ تلكَ «هي» التي ضحكتْ يومًا فوقَ مقصلةِ أمانيها. كان الزجاجُ باردًا تحتَ أصابعِها، باردًا كذكرى لا يدفئُها بكاءٌ ولا تذيبُها رغبةٌ في الغفران. التفتتْ إلى «هو» الذي كان يقفُ على مبعدةٍ منها، محنيَّ الكتفينِ كتمثالٍ من حجرٍ وُضِعَ في غيرِ مكانه. كان يحملُ في يدهِ تلكَ الشظيّةَ التي احتفظَ بها منذُ تكسّرتِ المرآةُ ليلةَ احتضرَ حُبّهما، ليلةٍ لم يقويا فيها على دفنِ جثّةِ العِشرةِ كما يليقُ بموتٍ أنيقٍ بلا جمهور.

حدّقتْ فيهِ طويلًا، فلمحتْ في عينيهِ بقايا فتىً كان يحلمُ بأن ينقذَ العالمَ بقبلةٍ صادقةٍ، ثم تاهَ في زحمةِ الأعذارِ اليوميةِ التي تبتلعُ ملامحَ العشاقِ، وتُبدّلُها بوجوهٍ تصلحُ للاجتماعاتِ والمآدبِ والاحتفالاتِ المتكلّفة.

همسَ لها دون أن ينظرَ مباشرةً في عينيها:

«هل تدركين أننا لم نُدانِ لأننا لم نحبّ... بل لأننا رفضنا أن نمثّل؟»

جاءَ صوتهُ كخريرِ ماءٍ ينسكبُ على حجرٍ بارد. رقيقًا، شفافًا، وحادًا في آنٍ معًا. لم يكن يطلبُ منها تبريرًا، كان يكتبُ على جسدِ اللحظةِ بيانَ استقالةٍ أخيرٍ من وظيفةِ الزوجينِ المثاليّينِ الذين يبتسمانِ للكاميرا بينما يشتهيانِ الصراخَ في الزوايا المظلمةِ للبيتِ الفسيحِ.

لم يقتربْ منها أكثر، وكأنّ بينهما الآن حقلَ ألغامٍ من الكلماتِ المؤجّلةِ والقبلاتِ الناقصةِ والأسرّةِ التي شهدتْ عليهما ينامانِ ظهرًا إلى ظهرٍ، خائفَيْنِ من ملامسةِ ما تبقّى من صدقٍ قد يفجّرُ الحقيقةَ في منتصفِ الليل.

قالتْ لهُ وهي تُبعِدُ كفّها عن الكبسولة:

«كلُّ كبسولةٍ هنا هي قبرٌ صغيرٌ لجملةٍ لم نقلْها، أو ابتسامةٍ خائفةٍ سرقناها من حضورِ الآخرين. كلُّ كبسولةٍ كذبةٌ باردةٌ تُجمِّدُ حرارةَ ما كنا نُسمّيهِ حُبًّا.»

أغلقَ «هو» عينيه لبرهةٍ، ثم فتحَهما على صدى صريرٍ بعيدٍ لبابٍ ينفتحُ داخلهما لا خارجهما. تذكّرَ كيفَ دخلا إلى هذهِ الحكايةِ بنفسٍ مغمورٍ بالرغبةِ أن يكونا استثناءً. كيف أقسما في

خلواتِهما البريئةِ أنّ حبّهما سيبقى خالدًا كعطرٍ لا يبهتُ. لكنّهما نسيا أنَّ الزمنَ أطولُ من تعويذاتِ العشّاق، وأقوى من صلواتِ القلبِ وحدهُ.

رفعَ الشظيّةَ أمامَ نورِ النيونِ الأبيضِ، فتكسّرَ الضوءُ عليها إلى وجوهٍ صغيرةٍ مبعثرةٍ تشبهُ قطعَ زجاجٍ من مرآةٍ طردتْ أحلامَهُما قبل أن تكتمل. في انعكاسِ الزجاجِ رأى «هو» وجهَهُ المتعبَ، ثم رأى خلفَهُ «هي» تراقبُهُ وكأنّها تراهُ لأوّلِ مرةٍ منذُ سنواتٍ، كما هو: عاريًا من التبريراتِ والأعذارِ والمجاملاتِ التي أغرقتْهما في وحلِ التمثيلِ حتى صارا لا يعرفانِ مَن يكونانِ خارجَ النص.

«أتدركينَ ؟» نطقَ بها كمن ينفضُ الغبارَ عن كلمةٍ ماتتْ على لسانهِ مرارًا.

«كان بوسعِنا أن ننجو لو قبلنا أن نعيشَ كذبتَنا حتى النهاية. لو دفنّا الحقيقةَ في أعماقنا، تركناها تتعفّنُ بصمتٍ تحتَ وسائدِ الأسرّة، ونمنا فوقها لننجبَ وهمًا جديدًا كلَّ ليلة. لكنّنا لم نكنْ شجعانًا بما يكفي لنكملَ اللعبةَ حتى نهايتِها. تراجعنا أمامَ فخاخِ الصدقِ الصغيرةِ، فانكشفنا.»

ضحكتْ «هي» ضحكةً قصيرةً، ضحكةً مرّةً كطعمِ الخسارةِ التي تأتي متأخرةً بعد كلِّ حروبِ التجمُّل. مسحتْ دمعةً ساخنةً نزلتْ من دونِ إذنٍ منها، ثم قالت:

«أتعرف؟ لا أحدٌ هنا بريءٌ. لا الأزواجُ الذين يحفظونَ أسرارَ خيانتِهم في دفاترِ الطاعةِ العمياء، ولا نحنُ الذين فضحْنا ما كان يجبُ أن يظلَّ مختبئًا خلفَ الستائر. نحنُ شركاءُ في الجريمةِ من لحظةِ أنّنا آمنا أنّ الحبَّ وحدهُ يكفي.»

مدّتْ يدها نحو الشظيّةِ في يدِه، مسحتْ على حافّتِها بأطرافِ أصابعِها كمن يلامسُ جرحًا لم يلتئم. كان الزجاجُ باردًا لكنّهُ نابضٌ بحقيقةٍ داميةٍ تليقُ بمقبرةِ الأوهامِ هذه. ثم سحبتْ يدَها فجأةً كمن لامسَ حَدَّ السكينِ وخافَ من النزيفِ.

أدارَ «هو» ظهرَهُ للكبسولاتِ، كمن يهربُ من جنازةٍ لم يَجرُؤْ على البكاءِ فيها. خطا نحو الحائطِ الخلفيِّ للقاعةِ حيثُ تُعلَّقُ صورُ الأزواجِ المثاليّينَ بابتساماتٍ تلمعُ مثلَ نقودٍ معدنيّةٍ باردةٍ. مئاتُ الوجوهِ التي استبدلتِ الحبَّ بديكورِ الفرحِ المزيف، وعاشتْ داخلَ إطاراتٍ مذهّبةٍ، عازلةٍ عن التشقّقِ والانهيارِ الذي يَتسلّلُ تحتَ لحافِ الأسِرّةِ كلَّ ليلةٍ.

مرّرَ إصبعَهُ على زجاجِ إحدى الصورِ، فقالَ دون أن يلتفتَ إليها:

«نحنُ كنّا نسخةً مشوّهةً منهم. الفرقُ الوحيدُ أنّنا لم نُتقنِ الابتسامَ جيّدًا.»

اقتربتْ «هي» منهُ حتى صارتْ خلفَ كتفِه، همستْ لهُ بصوتٍ يائسٍ:

«هل نكملُ المسرحيّةَ كما يُريدون؟ أم نُغلقُ الستارَ الآن؟»

أغلقَ عينيه مرّةً أخرى، ثم فتحَهما ببطءٍ كمن يستيقظُ من حلمٍ طويلٍ ثقيلٍ ورثّ. استدارَ إليها، رفعَ يدهُ ليلامسَ خدَّها لكنهُ تردّد. كان المسافةُ بين يدِهِ ووجهِها أقربَ من أيِّ وقتٍ، وأبعدَ من كلِّ الأوقاتِ التي جمعتْهُما على فراشٍ باردٍ في بيتٍ دافئ.

قالَ بصوتٍ ناصعٍ كالحقيقةِ ذاتها:

«لن نكملْ. لن نمثّلْ. لن نُقدّمَ قرابينَ زائفةً فوقَ مذبحِ العاداتِ التي تقتاتُ على حكاياتِنا المستعملة. فلندفنْ جثّةَ حبِّنا هنا... الآن... بيدَيْنا.»

انحنتْ «هي» كمن يقتلعُ صفحةً من كتابٍ مُهترئ، التقطتْ شظيّةَ المرآةِ من يدِه، وضغطتْ عليها بقوةٍ حتى وخزتْ راحتَها. نزفَتْ نقطةُ دمٍ صغيرةٌ سرعانَ ما اختلطتْ بانعكاسِ صورتِها، كأنّها تختمُ اعترافًا أخيرًا على شاهدةِ حبٍّ لم يعدْ يليقُ بهِ البقاء.

رفعتْ عينَيْها نحوهُ وقالتْ:

«ليشهدْ علينا هذا الزجاجُ المكسورُ أنّنا حاولْنا... وأنّنا فشلْنا بشرف.»

أغمضتْ عينيها لثانيةٍ، ثم فتحتْهُما على فراغٍ شفيفٍ كحقيقةٍ مجرّدةٍ من ريشِ التبرير. كانتِ القاعةُ من حولِهما تنكمشُ ببطءٍ، تتحوّلُ إلى تابوتٍ واسعٍ للذكرى الأخيرةِ التي لم يُرِدْ أيٌّ منهما أن يحملَها معهُ خارجَ هذا المكان.

وعندما خرجا، لم يلتفتا خلفَهما أبدًا. تركا ضحكاتِهما المزيّفةَ، وأحلامَهما المعلّبةَ، وكبسولاتِ الزجاجِ كلَّها شاهدةً على جنازةٍ لم يحضرْها سواهما، بلا موسيقى ولا دموعٍ ولا شهودٍ كاذبين. تركا الحبَّ هناك... مسجّىً في قاعةِ الأوهامِ الزجاجيةِ، دُفنَ بشظيّةِ مرآةٍ، ووُضِعَتْ عليهِ وردةٌ من دمعةٍ صادقةٍ، أخيرة.

في أعمق زوايا هذا المكان حيث يتعانق الصمت مع أنين الذكريات، كان «هو» يحمل شظية المرآة تلك، قطعة زجاجٍ صغيرة لكنها أثقل من جبال الجرح ومريرة كزفرةِ روحٍ تعترّض على قسوة الفقدان. لم تكن المرآة الكاملة سوى خديعةٍ بصرية، رسمت لهما صورة مثاليةً، صورةً مُزيفة، جميلةً ككذبةٍ يصرخ بها القلب لكنه يرفض الاعتراف بها. أما الشظية، فكانت تعكس الحقيقة المجزأة، الحقيقة التي تبدو كجروحٍ مفتوحةٍ لا تشفى، وفتحاتٍ تنزف أوجاعًا بلا انقطاع.

حين قال «هذا لا يشبه الحب»، كان ذلك إعلانًا صادمًا لانهيارِ الصورةِ الكليةِ التي بنياها معًا، الوهم الذي عشماه طويلًا، لتظهر

أمامه تلك القطع المتناثرة التي لا معنى لها إلا تحت سطوة الوهم المُطبق. كانت تلك الشظية أقسى من أي كلمة نطق بها، أشد وقعًا من أي صمتٍ قد يختبئ خلفه العشاق.

الصمت هنا، لم يكن مجرد غيابٍ للكلام، بل لغةً موازيةً صامتةٌ بلا مترجمين، لغةً يصعب على القلوب المجروحة فهمها، أو على اللسان التعبير عنها. «تعلّمنا أن نُغطّي الجثث ببطانية اسمها الحب»— تلك الجملة، كانت النكتة السوداء التي تفتك بكلّ مشاعر الزوجية الحديثة. فالبطانية لم تكن دثارًا دافئًا يحمي العشاق، بل كانت غطاءً قاسيًا يخفي جثة العلاقة التي تموت بالتقسيط، تموت في صمتٍ متواصل، وفي تنازلٍ مستمر عن بذور الحلم.

العشاق الذين كانوا يومًا يتشاركون حلم الغد، صاروا الآن مُشرّعين لقوانين الصمت؛ صامتين عن الأسئلة التي تحترق في صدورهم، يبرمون اتفاقياتٍ سريةً دفينةً لدفنِ الأسئلة المحرجة، ويقيمون مقابر للامبالاة يدفنون فيها بقايا الآمال، وحيث تتحول الكلمات الحانية إلى رمادٍ لا يبقى له أثر.

«هي» تقف هناك، عيناها لا تفارقان تلك الشظية التي يعانقها «هو»، بينما يدور الزمن حولهما كساعة مكسورة لا تدق إلا لحظات الفراق. كلّ ما كانا يعلمان أن الحُبّ كان فقط الستار

الذي وضعوه لتمويه الحقيقة، والآن صار أمامهما مرآة مشروخة، تعكس تفاصيل الألم والكشف، لحظة يقين لا عودة منها.

في هذا المشهد، تتسلل الأسئلة الصامتة: هل يمكن للحب أن يظل صامدًا وسط هذا الانهيار؟ هل يمكن أن يُحبّا حقًا حين يتحول الحب إلى بطانية تخنق؟ في هذا السكون المشحون، يَصير الألمُ طقسًا يوميًا، والخذلان لحنًا لا ينتهي. هنا، في معبدِ الصمت، تتعرّى الأرواحُ أمام قسوةِ الحقيقة التي لا تُحتمل، ويبدأُ السؤال الأعمق عن طبيعةِ الحب، وهل هو حقًا ما يتمنون، أم سرابٌ أجهدهم حتى الموت؟

تلك الشظية، ليست مجرد قطعة زجاج، بل شهادةُ قلبٍ تحطم، وصورةٌ لكلّ الأحلام التي لم تكتمل، لكلّ الكلمات التي بقيت معلقة في الهواء، كلّ الآهات التي لم تجد من يسمعها، وتلك القصة التي كان يفترض أن تُروى بحبٍ صادق، لكنها رُسمت بريشةِ الخديعة، وانتهت بفصولٍ من الصمت والكآبة.

ووسط هذا المشهد المأساوي، يظلّ سؤال «هو» في الأفق، صدىً يرفض الاختفاء: هل يستحق الحبُّ أن يُحاكم على جريرة الحقيقة؟ أم أنّ الجريرة الحقيقية هي التواطؤ مع الوهم؟ وهل يستطيع القلب أن ينام بعد أن فقد مرآته كاملة؟

في قلب تلك القاعة الزجاجية التي تشبه سجنًا شفافًا، كانت «هي» و«هو» واقفين، محاصرين بين أضلاع هذا القفص الذي لم يكن سوى انعكاسٍ صارخٍ لحياتهما. لم يكن الزجاج هنا مجرد مادة شفافة، بل كان حاجزًا وجوديًا يفصل بين عوالمهما الداخلية وما هو ظاهر للعيان، بين حقيقة المشاعر التي تُعاش في صمتٍ وبين الصورة التي يُفرض عليهما تقديمها أمام العالم. تلك الشفافية، التي يفترض أن تكون هي، تحولت إلى قيدٍ يخنق الروح ويحبس الأحلام بين أسوارٍ من كآبةٍ لا تُرى إلا في صدى الصمت.

كان المكانُ أشبهَ بمسرحِ جريمةٍ بطيئةٍ تُرتكبُ فيه خيانةُ الحب، والجريمةُ لم تكُن في الحبِّ نفسِه، بل في تلك الحقيقةِ المُرّة: الاضطرارُ إلى إخفائه، في ذلك التمثيلِ المتقَنِ الذي فرضَ عليهما ارتداءَ أقنعةٍ بلا ملامح، حيثُ كلُّ نظرةٍ وكلُّ كلمةٍ كانت مُكلِفةً بثِقلِ الأوهامِ التي تُشيّدُها الأيام.

وفي كلِّ ركنٍ صامتٍ، كانت الكبسولاتُ الزجاجيّةُ أوعيةً باردةً تحبسُ ذكرى حبيبةً مُحنّطةً: ابتسامةٌ مستعارة، دمعةٌ جفّتْ قبل أوانها، أو قُبلةٌ ذابَ طعمُها مع عبورِ الزمن. أضواءٌ باردةٌ تنسكبُ من الأعلى، تُضيءُ الألمَ لا الدفءَ، تُشعلُ جِراحَ الذاكرةِ ولا تداويها، وتحوّلُ الأحلامَ إلى أطلالٍ تئنُّ تحتَ وطأةِ الفقد.

كانت هي تتنقّلُ بعينين مثقلتين بحزنٍ عميقٍ بين تلك الكبسولاتِ، تُحدّقُ في صورِها المُتكسّرةِ داخلَها: صورةُ الفتاةِ التي ضحِكَتْ بزيفٍ في حفلِ زفافٍ لم يُعِدْ له قلبُها موضعًا. كلُّ كبسولةٍ كانت تروي حكاياتٍ مكتومةً، قصصَ حبٍّ خُنِقتْ وسطَ صمتٍ متواطئٍ، صمتٍ أقسى من الصراخِ وأطولُ منهُ عمرًا.

أما هو فكان واقفًا متكئًا على جدارٍ باردٍ، يحملُ شظيّةَ مرآةٍ تحفظُ في شقوقِها ألمًا مضاعفًا: ألمَ الحقيقةِ المجزّأةِ التي لم تُجمَعْ يومًا، وجراحَ الغيابِ التي لم تُشفَ. تلك الشظيّةُ كانت مرآةَ قلبِه المتكسّرِ الذي لم يهتدِ إلى سبيلٍ للشفاءِ، تعكسُ الحقيقةَ التي لم يُرِدْ رؤيتَها يومًا، لكنّه أُجبرَ على مواجهتِها: أنّ الحبَّ الذي أبقاهُما معًا لم يكن إلا مسرحيةً هشّةً كتبَها المجتمعُ وأخرجَها الزمنُ، ليكونا فيها مجرّدَ ممثلين.

سحرُ الجدرانِ لم يكُن في شفافيّتها، بل في القسوةِ التي تُخفيها وراءَ الزجاجِ الرقيق. شفافيّةٌ تقطعُ الأملَ، وتُقيّدُ الحريّةَ، وتحبسُ العشقَ في قفصٍ من برودةٍ تقتلُ كلَّ نبضة. وهنا، صار الألمُ لغةً مشتركةً، والحقيقةُ أقسى ممّا يحتملان.

كانت الأضواءُ الساقطةُ من الأعلى تُبرزُ شظايا جروحِهما، وتزيّنُ جدارَ الذاكرةِ ببقعٍ من عتمةٍ مضيئةٍ، في حينِ أنّ كلَّ كبسولةٍ تحكي عن حكايةِ حبٍّ ضائعةٍ، عن لحظةٍ أُجهِضتْ قبل أن تولد، عن صمتٍ خانقٍ علّقَ العشّاقَ على حافةِ انتظارٍ لا ينتهي.

تبادلا نظراتٍ طويلةً، كلٌّ فيهما يرى في عينَي الآخر غابةً من أسئلةٍ مُعلّقةٍ، أسئلةٌ لم تجرؤ الكلماتُ على نُطقِها، خوفًا من أن تُفكّكَ ما تبقّى من أوهامٍ هشّةٍ تصلحُ للسترِ لا للنجاة. شعرا أنّهما محاصرانِ في هذا السجنِ الزجاجيِّ الذي بلا اسمٍ، لا مهربَ من الحقيقةِ، ولا من نفسيهما، ولا من مرآةٍ لا تكذب.

وفي تلك اللحظةِ، حين اختلطتْ أنفاسُهما بصدى صمتٍ ثقيلٍ كالقدر، أدركا معًا أنّ هذا القفص الشفّاف ليس جدرانًا فقط، بل مرآةٌ لجُرحٍ قديمٍ عاشا فيه طويلًا دون أن ينجوا. مرآةٌ تكشفُ حكايتَهما التي تقادمتْ تحت ركامِ الصمتِ والكتمانِ وخيباتِ الحنين. إنّه حُبٌّ شاخَ على عتبةِ الحقيقة، وانحنى أمامَ زمنٍ لا يعترفُ إلا بالوجوهِ المطليةِ بألوانٍ لا رائحةَ لها.

هناك، في حضرةِ هذا الزجاجِ المهيبِ، حيث الذكرياتُ مسجونةٌ في كبسولاتٍ باردةٍ كقُبلٍ منسيّةٍ لم تعبرِ الشفاه، صار هو وهي مجرّد ظلّينِ يتعثرانِ في مسرحيةٍ لا ختامَ لها، محكومَيْنِ بإعادةِ تمثيلِ الألمِ ذاتهِ كلَّ ليلةٍ، في مكانٍ كان ينبغي أن يكونَ حريّةً فصارَ قيدًا من بلّورٍ لا يعرفُ العفو.

ظلا واقفينِ كتمثالَيْنِ من صبرٍ وشكّ، وكلُّ زاويةٍ حولَهما شاهدةٌ على حكايةٍ اندثرتْ قبل أن تكتمل، وكلُّ شُعاعِ ضوءٍ

يُضيءُ ظلالَهما فلا يُدفئها. كلاهما يحملُ في صدرِه أثقالًا من أسئلةٍ لم تُطرَحْ، وأجوبةٍ انطفأتْ بين همساتِ ليالٍ بلا نجوم.

مدّت هي يدَها، ببطءٍ خائفٍ كمن يلمسُ شوكةً في حديقةِ صدرِه، ولامستْ شظيّةَ المرآةِ التي استقرّتْ في كفِّه. كان ألمُهُ ينسابُ منها إليها، فتقرأُ على حوافِّ الزجاجِ بقايا حكاياتٍ أُرجئتْ ولم تكتمل. حدّقتْ في عينيه، وفيهما بحرٌ خفيٌّ من أسرارٍ تائهةٍ لم تجدْ ميناءً ترسو فيه، وهمستْ بصوتٍ أقربَ إلى تنهيدةٍ:

«كلُّ شيءٍ هنا يُشبهُنا... نحنُ صدى يصرخُ في صمتٍ من زجاج، نتكسّرُ ولا نتهشّمُ تمامًا، نبحثُ عن أنفسِنا في شظايا الحكاية.»

كان لصدى كلماتِها طعمُ الدمعِ الصامت، وارتجافُ أنفاسِهما يزيدُ المكانَ اتساعًا ولا يحتضنهُما. صار ما بينَهما فراغًا يضيقُ بهما أكثرَ من أيِّ سجنٍ ماديٍّ، وكأنّ ما كان يومًا وعدًا بالحبِّ والوضوحِ تحوّلَ إلى مزارٍ للخيبةِ والخذلانِ اللامرئيّ.

قال هو، بصوتٍ أثقلَ من كلِّ الحوائطِ التي حاصرَتْ قلبه:

«أما تساءلتِ يومًا... لماذا نرتدي هذه الأقنعة؟ لماذا نُؤثرُ العيشَ في ظلالِ الأكاذيبِ التي تفتكُ بنا، بدلَ أن نواجهَ الحقيقةَ بكلِّ قسوتها؟»

أجابتهُ بمرارةٍ تسيلُ منها صراحةٌ متعبةٌ:— «لأنّ الحقيقةَ يا هذا، أحيانًا أفتكَ بنا من كلِّ الأكاذيبِ مجتمعةً. الحقيقةُ تقتلعُ الأحلامَ من جذورها، تجعلُ القلبَ يبكي بلا صوتٍ ولا عزاء. أمّا الكذبُ، فيمنحُنا أوهامَ البقاءِ ولو على حافّةِ الرماد.»

كانت كلماتُها تُغرقهُ أكثرَ في بحرِ صمتٍ يئنّ بصوتٍ مكتومٍ. في عينيها كان يرى رجلًا كانهُ هو، قبل أن يُعلّبَ الزمنُ حُلمَهُ في قارورةٍ باردةٍ ويدسَّهُ بين أرففِ النسيان. تأمّلها طويلًا، وفيها كان يرى صورتهما: انعكاسًا لما كانا عليهِ قبل أن يزرعَ الخوفُ أسلاكهُ الشائكةَ حولَ حريّتِهما، قبل أن تتحوّلَ الأحلامُ إلى بقايا عناقٍ مجمّدٍ في كبسولاتٍ لا تُعيدُ إلا وجعَ الذكرى.

بدأت «هي» تتحدث عن تلك اللحظات التي اعتقدت فيها أن الحب سيحررهما، أنه سيكون الشمس التي تذيب جليد الصمت، لكنها اكتشفت أن الحب وحده لم يكن كافيًا.

«تعلمنا أن نصمت، لأن الكلام كان سيُعرّي ضعفنا. صمتنا لأن الكلمات كانت أكثر وقعًا من الصدمات. وكلما حاولنا أن نُعلن عن الحقيقة، اجتاحنا الخوف، الخوف من أن نُفقد ما تبقى منّا.»

سقط الصمت ثقيلًا بينهما، صمتٌ يحيط بهما كغطاءٍ خفيفٍ لكنه خانق. كانا يعرفان أن ما بينهما لم يعد حبًا كما عرفاه، بل

شبحًا لحبٍ مات قبل أن يزهر. لكنهما أيضًا يعرفان أن هذا الموت لم يكن حقيقيًّا إلا حين أوقفا الزمن عن الحركة، حين تناسيا أن يرحلا عن الأوهام التي شابتهما.

اقترب هو من كبسولةٍ زجاجية، لامسها بأنامل مرتجفة، همس وكأنه يعترف:

«هنا تُحبس ضحكةٌ مزيفةٌ من يوم زفافنا. لم نضحك حقًّا، بل ارتدينا فرحًا هشًّا لنخدعهم... ولعلّنا خدعنا أنفسنا أكثر.»

أغمضت هي عينيها، انزلقت دمعةٌ خجولةٌ منها كأنّها توقّع شهادة وفاةٍ لحكايةٍ لم تجد قبرًا. همست وكأنها تحاكم الماضي:

«كلّ واحدةٍ من هذه الكبسولات جريمةُ حبٍّ اختنق، أو حلمٌ لفظ أنفاسه، أو وعدٌ دهسه الزمنُ بلا ندم.»

تبادلَا نظرةً كسكينٍ باردةٍ تنزف وجعًا صامتًا، وكلٌّ يرى في الآخر ما يجرؤ أن يراه في نفسه. في تلك اللحظة، مدّ هو يده المرتعشة وأخرج شظيّةً صغيرةً من الزجاج، وضعها في كفّها وقال:

«هذه الحقيقةُ، كما تراها الشظايا: مكسورة، لكنّها مرآةٌ نرى فيها ما أخفاه القناع. تعالي نجمعها، لا لتعود كما كانت، بل لتشهد أنّنا كنا هنا ذات وجع.»

تطلّعت إلى الشظيّة وكأنّها تُحدّق في قلبها العاري. سكنت في عينيه رعشةُ أملٍ لا تموت مهما تكاثف الصقيع، فابتسمت بسلامٍ أخير، كأنّها تعترف بأنّ الحبّ لا يُشفى من كسوره، لكنه يظلّ يكفي لنبدأ من رمادٍ صادق.

هناك، وسط شظايا الأمل والصدق، لم يعد لهما ما يخفيانه، ولا ما يحميهما من الريح سوى بعضهما. في حضرة الزجاج المكسور، تفتّحت زهرةٌ صغيرةٌ تشبه وعدًا جديدًا... وعدٌ لا يخشى الحقيقة ولا يفرّ من هشاشتها.

قبل أعوام، حين تبادلا الخواتم تحت أضواءٍ من وردٍ وألسنة أقاربٍ يُباركون نصف قلبٍ ويتركون نصفه الآخر وحيدًا، خرجت لهما عجوزٌ من هامش الحفل، تحمل ساعةً رمليّةً تتدلّى من أصابعٍ كعروقٍ ذابلة. همست لهما بصوتٍ يشبه نحيب شجرةٍ خريفية:

«هذه حفنتكما من الوهم... الحبّ سؤالٌ يُنجب الغربة حين يتعب من أجوبته.»

ابتسما يومها، ظنّاها خرافةً طيّبةً تُفرش لهما دربًا من يقين. لم يدركا أنّ الخواتم أقفالٌ مذهّبة، تتقن العناق وتُتقن الخنق معًا.

مرّت السنوات ثقيلةً كغمامةٍ لا تمطر. أوراقٌ خضراء نبتت بينهما ثم ذوت فجأةً كأنّها لم تكن. يداه اللتان صافحتا قلبها أول

مرّة صارتا موحشتين، مسكونتين بتعبٍ لم تعرفه. صارت هي ظلًّا يبحث عن شمسه بين أصابعٍ لم تعد تفتح لها باب القلب.

في الليل، كانت تستيقظ على أنفاسه القريبة، فتظنّه ما يزال هنا، ثمّ تلتفت فتكتشف بينهما صحارى من صمتٍ مالحٍ. أدركت أنّ الغربة لا تأتي من بلادٍ أخرى، بل تنمو بين ذراعين يفترض أن يقياك برد الوحدة.

كان هو يبحث فيها عن وطنٍ نسي أن القلوب لا توقّع عقودًا للإقامة. صار صمتها ملجأه حين يضيق به الكلام، وصار صمته بابًا موصدًا أمام أسئلتها. كان كلٌّ منهما يحمل الآخر كدينٍ ثقيلٍ لا مفرّ من سداده.

كبرت الساعة الرمليّة في رأسها. تراها على رفّ المطبخ، في خزانة الثياب، تتدلّى بين أصابع العجوز التي غابت ولم تغب. كانت ترى الرمل يتسرّب من قلبها كلّما نظرت إلى الخاتم، تعرف أنّه لمعَ حيث بهتَ القلب.

كانا يهمسان لليل في سرّين منفصلين: هي تسأل الكتب عن حكمةٍ تنقذها من هذا الفراغ، وهو يكتب رسائل يمحوها قبل أن يرسلها. وفي لحظة اقترابٍ نادرة، اكتشفا أن اللمس قد يكون غربةً أفدح من الفراق.

هكذا، مضيا كضيفين في بيتٍ واحدٍ، يحرسان سِرًّا لا يفضحه سواهما: أنّ الحبّ الذي تخيّلاه حصنًا كان سجنًا من ذهبٍ وصدأ.

أحيانًا كانت تتساءل: ما الذي جمعهما أصلًا؟ أيّ وهمٍ هذا الذي يجعلنا نعتقد أنّ الحبّ يكبر حين نوثّقه بالخواتم؟ تذكّرت أوّل مرّةٍ أسرّ لها والدها بأنّ الحبّ كذبةٌ بيضاء نعيشها حتّى لا نعترف بوحدتنا. يومها غضبت من حكمة الشيخوخة، وظنّت أنّ والدها يهذي بظلال فشله القديم. واليوم، بعد أن سكنت وحدتها في بيتٍ مكتمل الأثاث، فهمت متأخرةً أن القلوب لا يربطها خاتم، ولا تحفظها وثيقة، بل أسئلةٌ تتوالد بصمتٍ ولا تجد جوابًا إلا في الغربة.

كانت تنظر من النافذة إلى الحديقة الصغيرة التي نبتت على استحياءٍ في زاوية البيت. هناك، بين وردةٍ صفراء ذبلت قبل أوانها، وغصنٍ حزينٍ حاصرته الرياح، كانت ترى انعكاس حياتها. قالت لنفسها: «حتى الزرع يحتاج مَنْ يسقيه. ونحن جفّفنا كلّ شيءٍ ولم نُروِ شيئًا سوى الخوف من الفقد.»

أما هو، فكان يراقبها من بعيد، يراها تُطعم العصافير، تسقي شجرة الريحان التي ما تزال تقاوم. كان يراها كما لم يرها يومًا في زفافهما. امرأةٌ تشبه سؤالًا طويلًا، لا يُجاب عنه. امرأةٌ تقف في شرفة الغربة، تلوّح له أحيانًا، لكنها لا تنتظره أن يلوّح لها بالمثل.

كلٌّ منهما صار يُحبّ الآخر على طريقته، بصمتٍ لا يليق إلا بالأرواح المرهَقة.

في الليل، حين يعودان إلى الفراش، كانا ينامان كتوأمين مفصولين بحدّ الخيبة. هناك مسافةٌ صغيرةٌ بينهما، كانت كافيةً لتُقيم بينهما دولةً كاملةً من الصمت والأسئلة المؤجّلة. وحين ينهض هو إلى عمله، تنظر هي إلى مكانه الخالي، تتحسّس دفء جسده الذي لم يبقَ سوى كذكرى، ثمّ تقوم لتفتح الستائر، تفتح للنور نافذةً عساها تُنقذها من سؤالٍ جديدٍ.

وحدها الساعة الرمليّة ظلّت تتسرّب في عقلها. لم تعد تحتاج إلى العجوز لتُذكّرها بها، صارت تراها ماثلةً في كلّ تفصيلةٍ في البيت: في صورة زفافٍ باهتةٍ على الجدار، في خاتمٍ يلمع في إصبعٍ خائفٍ من الوحدة، في وردةٍ تسقيها كلّ صباحٍ رغم أنّها تعرف أنّ الربيع لا يعود لمن خانه الشتاء.

وذات صباحٍ رماديّ، بينما كانت ترتّب سريره وترفع الغطاء عن حلمٍ ثقيلٍ، انتبهت إلى أن الرمل انتهى. لا رمل بقي في الساعة التي أهدتهما إيّاها العجوز. لم يتبقَّ سوى زجاجٍ شفافٍ، يذكّرها بأنّ كلّ شيءٍ انساب من بين أصابع الانتظار. هناك فقط، أدركت أنّ السؤال لم يعد بحاجةٍ إلى جواب. وأنّ الحبّ حين لا ينجب غير الغربة، يصير كفنًا أبيض يُلفّ به القلب في جنازةٍ صامتة.

خرجت إلى الحديقة، نزعت الخاتم من إصبعها، دفنته تحت شجرة الريحان، وسقتها دمعةً أخيرةً. التفتت نحو البيت الذي تركت فيه صدى خطواتها القديمة. مشَت إلى المجهول بخطواتٍ خفيفة، تحمل في صدرها سؤالًا أخيرًا: هل كان الوهم أجمل من الحقيقة؟ أم أنّ الحقيقة وحدها كانت كافيةً كي تزرع فينا حكمة الفقد؟

لم تلتفت خلفها. تركت الساعة الرمليّة وحكمة العجوز في مهبّ الريح، ومضت تُدرك أنّ الحبّ لم يكن جوابًا بقدر ما كان درسًا مرًّا علّمها كيف تُنقّي روحها من وهم التضحية.

هناك، انتصب تمثالٌ بلّوريّ لامرأةٍ بلا ملامح، تحتضن سيفًا من زجاج. بدا التمثال وحيدًا، كأنه مرآة لكلّ من خسر ذاته باسم الحبّ. على قاعدته نُقِشت عبارةٌ واحدة: «من يجرّد نفسه أولًا؟ المُحبّ أم الذي انتُحِب؟»

وقفت «هي» أمامه، تلامس شفرة الزجاج كمن يختبر هشاشة قلبه. همست:

«لماذا لا يوجد تمثالٌ لمن رفض أن يُضحّي؟»

كان «هو» بجوارها، يحدّق في انعكاسهما الشاحب في البلّور. ابتسم بخفوتٍ وقال:

«لأننا نكرّم من يموت لأجلنا، لا من يحيا لنفسه.»

التفتت إليه بعينين أنهكهما السهر:

«أتظنّ الذي يرفض الفناء مذنب؟»

أجابها كمن يكشف عن ندبة قديمة:

«هو الصادق الوحيد بيننا. نحن نخاف الحقيقة، فنخترع بطولاتٍ وهمية ونسمّيها حبًّا.»

في الزاوية، سرت موسيقى خافتة. شعرت هي أن التمثال لو امتلك صوتًا لصرخ بكلّ الأسرار التي كبّلتها. تذكّرت كم مرّةٍ ظنّت أنّ التضحية تحمي حبّها، لتكتشف أنّها قبورٌ صغيرةٌ للذات.

ضحكت حين سألها: «أتحبّينني؟».

قالت، كمن يعلن براءة قلبه:

«أحببتك بما يكفي لأخونني. وحان وقت أن أوفّي نفسي حقّها.»

وضع كأسه بعيدًا، كأنّه يتخلّى عن دورٍ لم يلعبه أبدًا. ردّ عليها بصوتٍ شفيف:

«إذًا لن نكون بعد اليوم تمثالين عالقين في بلّور الذاكرة.»

أجابت:

«سنظلّ سؤالين... إلى أن يشيب السؤال وتصير الحقيقة غربة.»

انطفأت الأضواء من حولهما. وحدهما بقيا أمام التمثال الشفّاف، يراقبان ملامحهما المفقودة في امرأةٍ بلا وجه، وسيفٍ لا يجرؤ على الجرح ولا على الحماية.

همست وكأنها تكلم ظلّها:

«أخاف أن أبقى بلا ملامح أكثر من خوفي من الوحدة.»

ردّ، كأنه يحرس مرآتها:

«الحبّ هو من سرق ملامحنا.»

سكتت. أدركت أنّ الخلاص ليس في أن تبحث عن ملامحها فيه، بل أن تُعيد رسمها خارج أسوار الأسطورة.

مرّت لحظات، وحين لم تجد ما تقول، خطت خطوةً نحو المخرج. أضاءت شاشة هاتفها فانعكس نورها على البلّور، كأنه قبسٌ أخيرٌ يُذكّرها بأن النور الوحيد الذي نحتاجه هو ذلك الذي يشعلنا من الداخل. التفتت إليه، فوجدته ما زال ينظر إلى التمثال كأنه يحاور سؤالًا لم يُولد بعد.

قالت:

«هل ستبقى هنا؟»

أجاب دون أن يرفع عينيه:

«ربّما أنتظر أن تتحرّر هي قبل أن أتحرّر أنا.»

أشارت إلى التمثال وسألته ساخرةً:

«تقصد هي أم أنا؟»

ابتسم ابتسامةً خفيفةً كمن يودّع ظلًّا قديمًا:

«كلاكما... أنتِ وهي.»

مضت «هي» نحو الباب الكبير. كلّ خطوةٍ كانت تفكّ قيدًا من قدميها. تذكّرت والدتها التي علّمتها أنّ الحبّ مروحةٌ تُحرّك الروح إذا كانت نافذةً مفتوحة، وتخنقها إذا أُغلِقَت في غرفةٍ ضيّقة. تذكّرت العجوز التي مرّت بها ذات حلمٍ قديمٍ، همست لها أن الحقيقة لا تُقال إلا حين نتجرّد من الحاجة إلى الآخر.

Q A S E M K O U F A H I

هذه الرواية

في رواية حوار الروح مع الزمن، لا يكتفي قاسم محمد كوفحي بتقديم حكاية شخصية، بل يفتح نوافذ التأمل العميق في الزمن، الذاكرة، والوحدة. تسكن البطلة بيتًا قديمًا يُشبه قلبها؛ مليءٌ بالشقوق، لكنه صامد. في ذلك الفضاء المنسي، تتماهى الجدران مع الذكريات، ويصبح المطر رسولًا صامتًا بين الماضي والحاضر، ينقر على الزجاج بأسئلة لا إجابات لها، ويغسل ما تبقى من نبضٍ في قلبٍ أثقلته الخيبات.

هذه ليست قصة عن امرأة وحيدة، بل عن ذاتٍ تبحث عن المعنى في ما تبقّى من الحياة بعد أن غادر الآخرون، واختبأ الضوء في زاوية بعيدة من الذاكرة. كل مشهد، من صوت الريح إلى لهب شمعةٍ يرفض أن ينطفئ، يتحول إلى رمز داخلي، يكشف عن حوارٍ صامتٍ بين الروح والزمن، بين القلب وصداه، بين الرجاء والانطفاء.

تدور الرواية في إيقاعٍ داخلي عميق، حيث يصبح الصمت لغة، والحنين موطنًا، والصبر بيتًا آخر حين تخوننا البيوت. بأسلوب شعري شفيف، وعاطفة مكتومة لكنها مشتعلة، يمنح الكاتب القارئ مرآةً لألمه الشخصي، ويقوده إلى سؤالٍ كبير: كيف ننجو من العمر دون أن نفقد ذواتنا؟

إنها رواية تُنصت لا لتُعلِن، تُضيء لا لتُبهر، تُربّي في قارئها قدرةً جديدة على الإصغاء للداخل، والتصالح مع هشاشته، والثقة بأن في كل انكسارٍ ضوءًا لا يُطفأ. إنها تأملٌ وجودي مكتوب بأدق ما في اللغة من حواس.

سمير اليوسف

* تصميم الغلاف: الفنانة غنى قاسم كوفحي

Designed By S. Alyousef

9 789923 232576

دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمـــــان، العبدلي تلفاكس: 00962 6 464 7559

daralkhalij@gmail.com daralkhalij1998 daralkhalij

تتوفر أصدارتنا على: Google play جملون